د. ريازانوف

محاضرات في تاريخ الماركسيّة

ترجمة

جورج طرابيشي

مُحَاضَرَاتٌ
فِي تَارِيخِ المَارْكِسِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطليعة
ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ـ لبنان
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٢٥٧١٧٨

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٧٩

د. ريازانوف

محاضرات في تاريخ الماركسية

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

Marx Et Engels
Conférences Faites
Aux Cours De Marxisme
Près L'Academie Socialiste
En 1922
Par
D. Riazanov
Editions Anthropos
Paris 1970

تقديم

بناء على اقتراحي ، قررت شعبة الدعوة التابعة للجنة موسكو لحزب روسيا الشيوعي (١) في ايار ١٩٢٢ تنظيم دورة دروس قصيرة الامد عن الماركسية في نطاق **الاكاديمية الاشتراكية** . «كان هدف تلك الدروس تقوية الاعداد الماركسي وتزويد الرفاق العاملين في الحزب او النقابات او الاقتصاد بمنهج لدراساتهم اللاحقة» . وعلى الرغم من تشكك عدد من الرفاق الذين ارتأوا ان محاولة اجتذاب عمال مختلف الفروع الى دورة الدروس تلك من دون ابعادهم عن وظائفهم في الحزب وغير الحزب مقضي عليها بالاخفاق ، اصابت التجربة نجاحا رائعا . وقد اظهرت اعمار المستمعين (اكثر من ٥٠ بالمئة هم في الثلاثين وما فوق) ، وفترة

---

١ ـ ذلك هو الاسم الذي أطلق على الحزب الشيوعي السوفياتي إبان الحرب الاهلية وقبل تكوين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية . «م»

تدرجهم في الحزب (٦٩ منهم منتسبون الى الحزب قبل اوكتوبر ١٩١٧ ، و٦٤ منهم في عامي ١٩١٨ و١٩١٩) ، ووضعهم الاجتماعي (اكثر من ٨٠ بالمئة هم من البروليتاريين) ، ومواظبتهم على الدروس (لم يفوت ٨٠ شخصا محاضرة واحدة) ، اظهرت ان لديهم رغبة صادقة في التثقف .

وقد كان من المأمول ان يُمدّ في أجل الدروس ، لكن شعبة الدعوة التابعة للجنة موسكو ارتأت غير هذا الرأي .

وقد ألقيت اثناء الدورة الدراسية ، ووفقا للمخطط الذي وضعته بنفسي ، سلسلة من المحاضرات في المواضيع التالية : أ ـ حياة ماركس وانجلز وعملهما ـ د. ريازانوف ؛ ٢ ـ المادية الجدلية ـ أ. ديبورين ؛ ٣ ـ بدلا من حلقة دراسية عن المادية التاريخية ، ألقى ستيبانوف اربع محاضرات عن تاريخ الدين .

لقد عهد الي بالحلقة التاريخية . وكان عليّ أن آخذ بعين الاعتبار ان رفاقي تناولوا مواضيع محددة . وكان في نيتي ان أعرض في دروس تالية آراء ماركس الاقتصادية ، لكني كرست محاضرتي العاشرة للمحة وجيزة عن **الرأسمال** وللسؤال التالي : **كيف نقرأ الرأسمال** ؟ وسوف تنشر هذه المحاضرة على حدة ، بعد اعادة النظر فيها وتكميلها .

سوف يفهم القارىء الان علة بعض الثغرات في المحاضرات التي انشرها هنا . فهي مكرسة بصورة رئيسية ، شأن سيرة ماركس بقلم مهرينغ ، لحياة ماركس وانجلز ولعملهما كثوريين .

يبقى عليّ ان اقول بضع كلمات بصدد طابع محاضراتي . فقد حاولت ، بقدر ما يسمح لي الموضوع ، أن اكون شعبيا ، وأملي ان تكون هذه المحاضرات سهلة الفهم على القراء الذين هم في مستوى يؤهلهم لاستيعاب الشرح الذي كتبته لتلامذة مدارس الحزب عن **البيان الشيوعي** (منشورات موسكو فسكي رابوتشي) . ومن المؤكد انهم سيكونون بحاجة ، من اجل ذلك ، الى اعداد معين ، متوفر اصلا لمستمعيّ جميعا بوجه الاجمال . فهؤلاء

المستمعون ، الذين نالوا حظا من الإعداد في الحزب ، قـــــراوا جميعا بناء على نصيحتي ، وبصورة مسبقة ، كراستَي زتكيـــن وستكلوف عن ماركس . وكما امكنني ان الاحظ من الاسئلة التي طرحتها عليهم ، كان في عدادهم من قرأ كتاب مهرينغ . وعليه ، فان مستمعيَّ جميعا كانوا مطلعين بقدر او بآخر على الطريقـــة المعهودة في معالجة الموضوع الذي وقع اختياري عليه .

سأضيف القول ، برسم اساتذة مدارس حزبنا ، ان منهجي ، كما سيلاحظون بأنفسهم ، يختلف اختلافا كبيرا لا عن منهج مهرينغ فحسب ، بل ايضا عن منهج سائر كتّاب سيرة ماركس وانجلز ، وكذلك عن منهج مؤرخي **الاممية** . وقد حملني طابع محاضراتـــي على التخلي عن كل بهرج علمي له شكل هوامش وإحالات الـــــى مراجع ، ولم أسمح لنفسي ببعض الشواهد الا فيما ندر . بيد انه يمكنني القول مع ذلك ان استنتاجاتي تستند الى دراسة مطولة ومدققة لا لكل ما نشر فحسب ، بل ايضا لمواد كثيرة استقيتها من محفوظات (أرشيفات) متنوعة ، كنت انا السباق في معظم الاحوال الى نبشها من الغبار والنسيان . ويمكن ، لمن يشاء ، ان يعثر في مجموعة كتاباتي عن تاريخ الماركسية ، التي ستنشر في طبعـــة خاصة ، على أدلة وبراهين في تأييد بعض من أطروحاتي .

١٨ نيسان ١٩٢٣ **د. ريازانوف**

المحاضرة الأولى

[مدخل ـ الثورة الصناعية في انكلترا ـ الثورة الفرنسية الكبرى وأثرها في المانيا] .

الموضوع الذي سأعالجه تاريخي بحت ، لكني آخذ في الوقت نفسه على عاتقي المهمة التالية : لما كان ماركس وانجلز ، معلمانا ، يستأثران باهتمامكم بصفتهما واضعي التصور المادي للتاريخ ، وبصفتهما مبدعي الاشتراكية العلمية ، ففي ودي أن أسرد عليكم تاريخهما مستخدما منهجهما بالذات ، مطبقا تصورهما المادي .

على الرغم من ان برنامجنا ينوه بأهمية الجماعة ، ترانا نعزو احيانا اهمية مسرفة الى دور الافراد في التاريخ . وفي الآونة الاخيرة بوجه خاص ، ترانا نهوّن الى حد ما من دور الجماهير ونضرب صفحا عن الشروط الاقتصادية والتاريخية العامة التي

تحدد دور الافراد . ان شخصية انجلز تنحني قليلا امام تفوق شخصية ماركس . ولا يكاد يكون في الامكان العثور في تاريخ القرن التاسع عشر على رجل حدد مثله بنشاطه وبنتاجه العلمي فكر وعمل سلسلة من الاجيال في جملة من البلدان . وعما قريب يكون قد تصرم اربعون عاما على وفاة ماركس ، ولكنه لا يزال حيا، ويواصل فكره ممارسة تأثيره ، محدّدا التطور الفكري حتى لأنأى البلدان ، بلدان لم تسمع باسمه يوم كان على قيد الحياة .

ان اسم ماركس معروف جدا في روسيا . وها قد انقضى خمسون عاما ونيف على صدور الترجمة الروسية لـ «**الرأسمال**»، ولكن تأثير الماركسية لا يني يتزايد عاما بعد عام . ولن يكون في مستطاع أي مؤرخ مستقبلا ان يدرس التاريخ الروسي ابتداء من عام ١٨٨٠ من دون ان يدرس قبل ذلك مؤلفات ماركس وانجلز ، نظرا الى عمق تغلغلهما في تاريخ الفكر الاشتراكي والاجتماعي الروسي ، وفي تاريخ الحركة العمالية الثورية الروسية .

ها نحنذا نقف امام رجلين نابغتين حددا وجهة الفكر الانساني . فلنرَ اذن الى الشروط والبيئة التي ترعرعا فيها . ان كل انسان نتاج لوسط تاريخي محدد ، وكل نابغة كبير يأتي بشيء ما جديد ، انما يفعل ذلك على اساس ما فُعل قبله . انه لا ينبجس من العدم . بل اكثر من ذلك : فنحن اذا اردنا تحديد عبقرية رجل من الرجال ودرجة ابتكاره وأصالته ، ما استطعنا سبيلا الى ذلك الا اذا تكونت لدينا فكرة تقريبية عما فُعل قبله ، وعن التطور الذي كان الفكر الانساني والمجتمع الانساني قد ادركاه يوم شرع ذلك الرجل يتكون ويتنسم تأثير الوسط المحيط. وعليه ، لا بد لنا حتى نفهم ماركس ــ وسيكون ذلك بمثابة تطبيق عملي لمنهج ماركس على ماركس ذاته ــ من ان ندرس تأثير الوسط التاريخي على ماركس وانجلز .

رأى ماركس النور في ٥ ايار ١٨١٨ في تريير [١] ، وانجلز في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٢٠ في بارمن . وتريير وبارمن مدينتان المانيتان تقعان في اقليم واحد ، اقليم الراينلاند الذي يحيط به نهر الراين الذي يؤلف خط الحدود الفاصل بين فرنسا والمانيا . لقد ولد اذن ماركس وانجلز في زمن واحد تقريبا ، بفاصل سنتين ونيف .

ولدا في المانيا ، في اقليم واحد ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر . والطفل ، كما تعلمون ، يكون عرضة على الاخص لتأثير الوسط العائلي في السنوات الاولى من حياته . وبدءاً من السنة العاشرة ، او السنة الثانية عشرة ، يتعرض لتأثير اكثر تعقيدا ، تأثير المدرسة ، حيث يبدأ بالاحتكاك بجملة من الظاهرات والوقائع التي كان يجهلها في الدائرة الضيقة للحياة العائلية .

نحن نرى اذن ماركس وانجلز من الان في وسط جغرافي معين : المانيا . وسنرى فيما بعد ما الطبقة التي كانا ينتميان اليها بحكم اصلهما . وفي حوالي العام ١٨٣٠ كانا قد أمسيا صبيين واعيين ، وانما في ذلك الوقت طفقا يتعرضان لتأثير الوسط التاريخي الاجتماعي .

لنرَ الان كيف كان الوضع التاريخي العام يوم بدأ ماركس وانجلز يحييان حياة واعية . ان عامي ١٨٣٠ و١٨٣١ عامان

---

١ ــ في ترجمتنا لاسماء العلم الجغرافية الالمانية سنعتمد النطق الالماني ، لا المقابل الفرنسي . ومن ثم سنقول تريير ، وليس تريف كما درجت عادة الذين يترجمون عن الفرنسية . وسنقول راينلاند ، وليس رينانيا ؛ والراييني ، وليس الريناني (مثال : «الصحيفة الراينية» وليس «الرينانية») . «م»

ثوريان بالنسبة الى اوروبا . في ١٨٣٠ اندلعت ثورة تموز (٢) في فرنسا . فطفت على اوروبا بكاملها ، من الغرب الى الشرق ، بل انها ادركت روسيا ذاتها ، حيث حركت في مملكة بولونيا انتفاضة ١٨٣١ (٣) . اذن ما ان غدا ماركس وانجلز غلامين واعيين بقدر او بآخر ، حتى وجدا نفسيهما في دوامة الثورة ، يتلقيان انطباعات الحقبة الثورية . لكن ثورة تموز ١٨٣٠ لم تكن هي نفسها سوى إكمال لثورة اخرى اعظم شأنا ، لا مناص لنا من معرفة نتائجها وتأثيرها حتى نفهم الوسط التاريخي الذي شب فيه كل من ماركس وانجلز عن الطوق .

تحدد تاريخ القرن التاسع عشر امتدادا الى عام ١٨٣٠ بعاملين اساسيين: الثورة الصناعية فيانكلترا والثورة الفرنسية الكبرى. وقد بدأت الثورة الصناعية في انكلترا في حوالي عام ١٧٦٠ ، وامتدت على حقبة طويلة جدا من الزمن . وادركت اوجها في أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تنته الا في حوالي عام ١٨٣٠ . فما الثورة الصناعية (كما سماها انجلز) ؟

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت انكلترا قد أضحت قطرا رأسماليا . كان فيها طبقة من العمال ، من البروليتاريين ، اي طبقة من رجال محرومين من كل ملكية ، غير مالكين لادوات انتاج ، وبالتالي مكرهين على بيع قوة عملهم كما

---

٢ ــ ثورة تموز ١٨٣٠ : انتفاضة سكان باريس على حكم شارل العاشر ، تمخضت بعد يومين من القتال في باريس عن نفي الفرع البكر من آل بوربون ، وقيام ملكية لوي فيليب حيث كانت السيادة للبورجوازية . «م»

٣ ــ ثورة ١٨٣٠ ــ ١٨٣٣ في مملكة بولونيا ، اي في القسم الذي يخضع للتاج الروسي من اراضي بولونيا ، وقد قمعها جنود القيصر بوحشية منقطعة النظير ، وفقدت مملكة بولونيا على اثرها البقية الباقية لها من استقلالها الذاتي . «م»

تباع السلعة حتى يعيشوا . وكان يوجد فيها ايضا طبقة من الرأسماليين الذين يستغلون طبقة العمال . وكان فيها اخيرا طبقة من كبار الملاك العقاريين .

بيد ان الرأسمالية في انكلترا كانت لا تزال تعتمد تقنيا حتى منتصف القرن الثامن عشر على الانتاج اليدوي القديم ، على المهنة . ولا نقصد بذلك الانتاج الحرفي القديم حيث كانت كل منشأة لا تضم سوى رب عمل واحد ، واثنين او ثلاثة من العرفاء، وبعض المبتدئين . فقد كان ذلك الانتاج الحرفي قد أخلى الساح لنمط الانتاج الرأسمالي . وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان الانتاج الرأسمالي في انكلترا قد اضحى معمليا (٤) . وفي الطور المعملي من تطور الانتاج ، يواصل الرأسماليون استغلال العامل ، لكن على نطاق واسع ، وفي مشغل اكبر بكثير من مشغل الحرفي . أما من منظور تنظيم العمل ، فان الانتاج المعملي يتميز عن الصناعة الحرفية بجمعه لمئات من الحرفيين في مقر كبير . ويقوم بين اولئك الرجال الذين يعدون بالمئات ، أيا تكن المهنة التي يعملون فيها ، تقسيم مكتمل للعمل مع كل ما يترتب على هذا التقسيم من نتائج . وتلك هي المنشأة الرأسمالية ؛ منشأة بلا آلات ، لكن تقسيم العمل ، تقسيم كيفية الانتاج بالذات الى عمليات جزئية متباينة ، يكون قد قطع فيها شوطا بعيدا . وفي منتصف القرن الثامن عشر تحديدا ادركت هذه الحقبة المعملية أوج ازدهارها في انكلترا .

وانما ابتداء من عام ١٧٦٠ طفقت تتبدل أسس الانتاج التقنية بالذات . فمحل ادوات الحرفيين القديمة حلت آلات . وحدث هذا التجديد اول ما حدث في الفرع الرئيسي من الصناعة

---

٤ ــ نسبة الى المعمل Manufacture الذي ينبغي تمييزه عن المصنع Usine بالمعنى الحديث والكامل التطور للكلمة . «م»

الانكليزية : النسيج . وطرأ تحول كبير على الجانب التقني من مهنة النساج والغزال بنتيجة التطبيق المتعاقب لسلسلة من الاختراعات . ولن أعدد تلك الاختراعات جميعا . سأقول فقط انه في حوالي العام ١٧٨٠ كان قد تم اختراع المغزل والمنسج الآليين ، وفي عام ١٧٨٥ اخترع واط ايضا آلته البخارية المتقنة التي اتاحت امكانية اقامة المعامل في المدن بعد ان كانت من قبل لا تقام الا عند مجاري المياه المولدة للطاقة الضرورية . ونجمت عن ذلك شروط موائمة لتركز الانتاج . وابتداء من ١٧٨٥ بدأت محاولات استخدام البخار كمحرك في عدد من فروع الصناعة . لكن تقدم التقنية الصناعية لم يتم بالسرعة التي تتحدث عنها احيانا موجزاتنا المدرسية . لهذا قلت ان الحقبة الممتدة من ١٧٦٠ الى ١٨٣٠ هي بكاملها حقبة تلك الثورة الصناعية الكبرى . ومن ذلك أن المغزل الذي يعرفه الكثيرون منكم ، المغزل الآلي Self - Acting الكثير الانتشار في معاملنا ، لم يأخذ شكله المكتمل ، المتقن ، النهائي ، الا في عام ١٨٢٥ . كذلك لم يأخذ النول الآلي شكله الراهن الا في عام ١٨١٣ ، مع ان الانوال الاولى اخترعت قبل عام ١٧٦٠ (نول كارترايت في عام ١٧٨٥) ، اي قبل ذلك التاريخ بمدة لا بأس بطولها .

نحن اذن امام بلد ما ونت فيه الاختراعات تتوالى بلا انقطاع منذ سبعين عاما ، وما ونى فيه الانتاج يتركز اكثر فأكثر ، وما ونت فيه أنوال الغزل والنسيج الصغيرة تنقرض وتزول تدريجيا ، وكان يحل محل الحرفيين أعداد متزايدة باستمرار من البروليتاريين . وهكذا نجد في انكلترا في نهاية القرن الثامن عشر ، وعلى الاخص في أواسط القرن التاسع عشر ، وبدلا من طبقة العمال القديمة التي شرعت بالتكون في القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي ما كانت تمثل ، حتى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، سوى جزء ضئيل من السكان ، نجد طبقة كثيرة التعداد من السكان ، تسم بميسمها العلاقات

الاجتماعية كافة .

وبالتواقت مع تلك الثورة الصناعية ، طرأ قدر من التركز في داخل الطبقة العاملة بالذات ، كما طرأ تغير على العلاقات الاقتصادية كافة . فقد سلخ الغزالون والنساجون عن شروط وجودهم المعهودة . في البدء كان العامل في المعمل لا يتميز كثيرا عن الحرفي او الفلاح ، فكان مطمئنا الى الغد ، مدركا انه يحيا في الشروط نفسها التي عاش فيها والده او جده ، لكن كل شيء قد تغير الان . فالعلاقات العائلية العريقة القدم بين اصحاب المنشآت والعمال قد اندثرت ؛ وصار اصحاب المنشآت يلقون الى قارعة الطريق بالعشرات والمئات من العمال . وعندئذ ثارت ثائرة هؤلاء الاخيرين على هذا التبدل الجذري ، على هذا الانقلاب في شروط حياتهم . استولى على قلوبهم الغيظ ، وانصب غيظهم وحقدهم في البداية على العلامة الخارجية لتلك الثورة الجديدة المعاكسة لمصالحهم ، اي على الآلات التي كانت تشخص في نظرهم الشر كله . وفي مطلع القرن التاسع عشر حدثت سلسلة من اعمال تمرد العمال على الآلات ، على التحسين التقني للانتاج . وبلغت حركات التمرد تلك أقصى مداها في انكلترا في حوالي العام ١٨١٥ ، وذلك على اثر الابتداء باستخدام المنسج الآلي المطور . ويومئذ اجتاحت الحركة المراكز الصناعية جميعا ؛ وبعد ان كانت عفوية ، تنظمت وابتدعت شعاراتها وزعماءها .

ولمواجهة هذه الحركة ، المعروفة في التاريخ باسم حركة **اللوديين** ، والتي اقتبست تسميتها في رأي بعضهم من اسم واحد من العمال ، وفي رأي بعضهم الآخر من اسم الجنرال الخرافي لودا الذي كان العمال يوقعون به بياناتهم ، لجأت الطبقات الحاكمة والاوليغارشية السائدة الى أشد التدابير حزما وصرامة . فكل عمل من أعمال التدمير ، وكل محاولة لتخريب

الآلات عقوبتها الموت ، وقد قضى الكثير من العمال شنقا .

كانت هناك حاجة الى دعاية مناسبة لتنوير العمال، ولإفهامهم ان خطأ وضعهم لا يرجع الى الآلات نفسها ، وانما الى الشروط التي تستخدم فيها هذه الآلات الجديدة . والحال ان الحركة الثورية التي تجعل هدفها تحويل العمال الى كتلة جماهيرية واعية، قادرة على التصدي لشروط اجتماعية وسياسية معينة ، طفقت تنمو وتتطور بقوة في انكلترا ابتداء من عام ١٨١٥ تحديدا . ولن أدخل في تفاصيل تلك الحركة ، لكن بودي التنويه بأنها وان بدأت في ١٨١٥ — ١٨١٧ فان روادها ظهروا في أواخر القرن الثامن عشر .

لكن حتى نفهم دور هؤلاء الرواد ، ينبغي علينا ان ندرس الان فرنسا، لانه يشق علينا ان نفهم الخطوات الاولى للحركة الانكليزية من دون ان نعرف دور الثورة الفرنسية .

اندلعت الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ ، وأدركت ذروتها في ١٧٩٣ . وبدءاً من ١٧٩٤ طفقت تأفل ، وبعد بضعة أعوام أفضت الى قيام دكتاتورية نابليون العسكرية . ففي ١٧٩٩ قام نابليون بانقلابه ؛ وشغل منصب القنصل لمدة خمس سنوات ، ثم اعلن نفسه امبراطورا ، وملك على فرنسا حتى عام ١٨١٥ .

كانت فرنسا ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، قطرا تحكمه ملكية مطلقة . وفي الواقع ، كانت السلطة في أيدي النبالة والاكليروس اللذين كانا يبيعان مقابل اعانات مالية جزءاً من نفوذهما للبورجوازية المالية التجارية التي كانت قيد التكوين . وأفضى غليان الجماهير الشعبية ، والمنتجين الصغار ، والفلاحين ، والصناعيين الصغار والمتوسطين غير المتمتعين بأي امتياز ، افضى الى حركة ثورية قوية اجبرت السلطة الملكية ، في خاتمة المطاف، على القبول بتنازلات . فاستدعى لويس السادس عشر «المجالس

العامة» (٥) . وفي إبـــان صراع الفئتين الاجتماعيتين الممثلتين بطبقة فقراء المدن وبطبقة اصحاب الامتيازات ، سقطت السلطة، في ١٠ آب ١٧٩٢ ، بين يدي البورجوازية الصغيرة الثوريـــة والعمال الباريسيين . ويومئذ سيطر اليعاقبة مع روبسبيير ومارا اللذين ينبغي ان نضيف اليهما الجيروندي دانتون . وعلى مـدى سنتين كان مصير فرنسا بين أيدي الشعب الثائـــر الذي كانت باريس طليعته . كان اليعاقبة ممثلي البورجوازية ، لكنهم دفعوا بمطالب هذه البورجوازيةالى حدها المنطقي. ما كانوا لا بشيوعيين ولا باشتراكيين ، وما كان روبسبيير ومارا ودانتون ســـوى بورجوازيين صغارا ديموقراطيين اخذوا على عاتقهم الدور والمهمة اللذين كان يفترض بالبورجوازية قاطبة ان تنجزهما : تحريـــر فرنسا من جميع مخلفات العهد الاقطاعي ، وخلـــق الشروط السياسية التي تسمح لجميع المالكين بمزاولة نشاطهم بحرية ، ولكل مالك صغير بأن يتدبر لنفسه دخلا متوسطا من خلال مهنة شريفة او استثمار شريف لعمل الغير . لكن اليعقوبيين روبسبيير ومارا ، في نضالهما من اجل خلق تلك الشروط السياسية ، في نضالهما ضد الاقطاع ، وضد الارستقراطية ، وبصورة رئيسيـة ضد اوروبا قاطبة التي كانت تنقض على فرنسا ، لعبا دور زعماء ثوريين . وقد كان عليهما ، في مجرى ذلك الكفاح ضد اوروبـا قاطبة ، أن يلجآ الى استخدام خطة الدعاية الثورية . وكي يواجها قوة النبلاء والملوك بقوة الجماهير الشعبية ، أطلقا شعار : «الحرب على القصور ، السلم للاكواخ !» . وتحت رايتهما نقشا شعار : **الحرية ، المساواة ، الاخاء .**

---

٥ ـ المجالس التمثيلية لطبقـات فرنسا الثلاث : الاكليروس والنبالـــة والبورجوازية . وقد اعلنت عند انعقادها في عام ١٧٨٩ عن قيام الجمعيـــة التأسيسية التي ألغت الامتيازات الاقطاعية . «م»

ان تلك المنجزات الاولى للثورة الفرنسية قد عادت بالفائدة المباشرة على راينلاند حيث جرى تنظيم جمعيات يعقوبية . وتطوع الكثيرون من الالمان في الجيش الفرنسي . وقد ساهم بعضهم في جميع الجمعيات الثورية في باريس . وكان للثورة الفرنسية تأثير بالغ ودائم في اقليم راينلاند حيث حافظ الجيل الفتي في مطلع القرن التاسع عشر على زاهي تقاليدها البطولية . وقد كان على نابليون الغاصب نفسه ، في صراعه مع اوروبا الملكية والاقطاعية ، أن يعتمد على المنجزات الاساسية للثورة الفرنسية ، لمجرد انه كان غاصبا ، عدوا للنظام الاقطاعي . كان قد بدأ حياته العسكرية في الجيش الثوري . وقد حارب الجنود الفرنسيون ، الحافيـــة أقدامهم ، الرثة ثيابهم ، شبه العزل من الاسلحة ، ضد القوات النظامية البروسية وقهروها بحماستهم ، بتفوقهـــم العددي ، ببراعتهم في تثبيط معنويات الجيش المعادي وتفكيكه عن طريق قذفه بالمناشير قبل قصفه بالرصاص . وقد لجأ نابليون نفسه في حروبه الى تلك الدعاية الثورية . وكان يعلم حق العلم ان المدافع وسيلة عمل قوية ، لكنه لم يهمل قط ، حتى آخر ايام حياته ، اداة الدعاية الثورية التي تفكك قوات الخصوم .

وامتد تأثير الثورة الفرنسية الى الشرق ايضا ، فوصل حتى الى سان بطرسبورغ . وتروي كتبنا القديمة ان الناس ، عند وصول نبأ سقوط الباستيل ، راحوا يتبادلون التهاني ويتعانقون في شوارع سان بطرسبورغ بالذات .

وكان في روسيا اصلا مجموعة قليلة من الرجال ، أشهرهم راديتشيف (٦) ، تفهم عميق الفهم معنى أحداث الثورة الفرنسية.

---

٦ ــ الكسندر نيقولايفيتش راديتشيف : كاتب ومفكر مادي روسي ، ابو الفكر الثوري في روسيا ، انتحر يأسا (١٧٤٩ ــ ١٨٠٢) . «م»

وقد بان أثر هذه الثورة في أقطار اوروبا طرا بقدر او بآخر. وحتى في انكلترا ، القطر الذي كان يومئذ على رأس جميع الاحـــلاف الموجهة ضد فرنسا ، امتد أثرها لا الى العناصر البورجوازيـــة الصغيرة فحسب ، بل ايضا الى الاعداد الكبيرة من العمال الذين أوجدتهم الثورة الصناعية . وفي حوالي ١٧٩١ ــ ١٧٩٢ علـــى وجه التحديد رأى النور في انكلترا اول تنظيم عمالي ثوري ، وحمل ذلك التنظيم اسم **جمعية التراسل** ، وقد تسمى بهـــذا الاسم احتيالا على القانون الانكليزي الذي يحظر على كل جمعية في بلدة من البلدات ان تقيم صلة تنظيمية مع جمعية اخرى فـي بلدة اخرى . في نهاية القرن الثامن عشر ، كانت انكلترا قطـــرا دستوريا . وكان قد حدث فيها ثورتان: اولاهما في اواسط القرن السابع عشر ، وثانيتهما في اواخره . وكانت تعتبر اكثر الاقطار تحررا ؛ وكانت النوادي والجمعيات مرخصا لها فيها ، لكن لم يكن يحق لاي من تلك النوادي او الجمعيات ان يقيم علاقة تنظيمية مع غيره . وتداركا لامر هذا التحظير ابتكر العمال تنظيم جمعيات مراسلة حيثما وجدوا الى ذلك سبيلا . وكانت تلك الجمعيـــات تراسل بعضها بعضا . وكان على رأس جمعية لندن اسكافي يدعى توماس هاردي ، وهو اسكوتلندي من اصل فرنسي . وقـــد اجتذب عددا كبيرا من العمال الى الجمعية التي كان هو منظمها . وكان رسم الدخول زهيدا للغاية . وكانت الجمعية تنظم اجتماعات ومهرجانات خطابية . وكان معظم العمال المنتسبين اليها حرفيين واسكافيين وخياطين. وآية ذلك ان الثورة الصناعية التي تحدثت عنها كانت قد بدأت تمارس تأثيرها التفكيكي على الانتاج المعملـي القديم وعلى المهن القديمة . وسأذكر لكم اسما آخر يرتبـــط بالتاريخ اللاحق للحركة التريديونيونيـــة في انكلترا ، هـــو فرنسيس بلاس ، الخياط مهنة . وبين سائر الحرفيين الاعضاء في جمعيات التراسل تلك ، سأذكر الاسكافـــي هولكرافت ، الشاعر ، الكاتب ، الخطيب المفوه ، الذي لعب دورا كبيرا في

اواخر القرن الثامن عشر .

بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع من اعلان الجمهورية في فرنسا (١٠ آب ١٧٩٢) ، بعثت جمعية هاردي للتراسل ، بوساطة السفير الفرنسي في لندن ، بخطاب تعاطف وتأييد الى **الجمعية التأسيسية** (٧) . وقد ترك ذلك الخطاب ، وهو من أوائل بيانات التضامن الاممي ، أثرا كبيرا في **الجمعية التأسيسية** ، لانه صادر عن الشعب الانكليزي ، ولان الطبقات السائدة في انكلترا كانت تبدي آنئذ عن عداء لدود حيال فرنسا . وقد ردت عليه **الجمعية التأسيسية** بقرار خاص . وقد تذرعت الاوليغارشية الانكليزية بعلاقات جمعيات التراسل باليعاقبة الفرنسيين كي تقوم بحملة ملاحقة ضدها . ورفعت عدة دعاوى على هاردي وعلى عدد من رفاقه . ولو قرأنا خطابات وكلاء النيابة في تلك المحاكمات ، لرأينا كيف انتهزت المجموعات الرأسمالية الانكليزية سانحة الثورة كي تجرد فرنسا الثورية من مستعمراتها في آسيا وأميركا .

لقد عمدت الاوليغارشية ، تخوفا من انهيار أسس سيطرتها، الى اتخاذ سلسلة من الاجراءات ضد الحركة العمالية الوليدة . فالجمعيات والاتحادات التي كان قد رخص للعناصر البورجوازية والافراد الميسورين بانشائها ، والتي كان من المستحيل فيما بعد الامتناع عن الترخيص بها للحرفيين ، قد جرى في العام ١٨٠٠ تحظيرها . وحظرت بوجه خاص جميع الجمعيات التي تتبادل التراسل فيما بينها. وفي العام ١٧٩٩ صدر قانون خاص بتحظير

---

٧ ـ هي الهيئة الثورية التي خلفت الجمعية التشريعية في ٢١ ايلول ١٧٩٢ وحكمت فرنسا حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن مآثرها اعلان الجمهورية واعدام لويس السادس عشر وسحق التمرد الملكي وصد قوات اوروبا المتحالفة ضد الثورة . «م»

كل اتحاد للعمال في انكلترا . ومن ١٧٩٩ الى ١٨٢٤ حرمت الطبقة العاملة الانكليزية من كل حق في الاجتماع والتكتل .

لنرجع الى عام ١٨١٥ . فحركة اللوديين ، التي كان هدفها الاوحد تدمير الآلات ، أخلت الساح لنضال اكثر وعيا . ورأت النور تنظيمات ثورية جديدة جعلت هدفها تغيير شروط الحياة السياسية للطبقة العاملة . وقد طالبت في المقام الاول بحق الاجتماع ، وبحق التكتل ، وبحرية الصحافة. وبدأت سنة ١٨١٧ بكفاح مستعر الأوار تمخض في عام ١٨١٩ في مركز الصناعة القطنية ، مانشستر ، عن معركة كتبت لها الشهرة ، معركة تعرف باسم معركة بيترلو . فكما ان نيقولا الثاني صفق لعساكره الشجعان الذين اطلقوا النار على عمال إيارووسلافل ، كذلك هنأ ملك انكلترا الفرسان البواسل الذين قهروا العمال العزل من السلاح . فضلا عن ذلك ، اتخذت اجراءات جديدة صارمة ضد الطبقة العاملة ، تعرف باسم القوانين الستة . لكن تلك الاضطهادات لم تؤد الا الى تعزيز الكفاح الثوري . ففي عام ١٨٢٤ ، وبفضل بلاس على الاخص الذي كان قد غدا يومئذ صناعيا غنيا من دون ان يقطع صلاته بالراديكاليين في مجلس العموم ، حصل العمال الانكليز على تنازل: قانون التكتل المشهور. وصار لحركتهم الساعية الى انشاء منظمات مهنية غرضها الدفاع عنهم وحمايتهم من اضطهاد أرباب العمل والحصول على شروط عمل أفضل وعلى أجور اكثر ارتفاعا ، صار لها اساس شرعي . وابتداء من ذلك اليوم شرعت الحركة التريديونيونية الانكليزية بالتطور . وتكونت في داخلها جمعيات سياسية جعلت غايتها الفوز بحق الانتخاب العام .

في فرنسا ، أدت هزيمة نابليون في سنة ١٨١٥ الى اعادة الحكم الملكي القديم لآل بوربون ، فتسنم العرش لويس الثامن عشر . انه عهد عودة الملكية الذي دام خمسة عشر عاما . فبعد ان استعاد لويس الثامن عشر عرشه بمساعدة التدخل الاجنبي ،

وعلى الاخص مساعدة الكسندر الاول (٨) ، قام بسلسلة من التنازلات لصالح كبار الملاك العقاريين الذين تضرروا من الثورة . كان من المستحيل ان تعاد اليهم اراضيهم ، اذ كان لا مفر في هذه الحال من انتزاعها من أيدي الفلاحين ، لذا فقد دفع اليهم مبلغ مليار فرنك . وبذلت السلطة الملكية قصارى جهدها لكبح تطور علاقات سياسية واجتماعية جديدة . وسعت الى سحب اكبر قدر من التنازلات التي كانت قد أرغمت على التنازل عنها . ودار الصراع بين الليبراليين والمحافظين بلا توقف ، وأدى اخيرا الى ثورة جديدة اندلعت في تموز ١٨٣٠ .

اما انكلترا ، التي تجاوبت في نهاية القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية بتعزيزها للحركة العمالية ، فقد أمست ، تحت تأثير ثورة تموز ، مسرح اندفاعة ثورية جديدة ، وعمت البلاد حركة قوية تطالب بتوسيع حق الانتخاب . ففي ذلك العهد كان الحق الانتخابي يقتصر على أقلية زهيدة من السكان . وكان كبار الملاك العقاريين اصحاب اليد الطولى في الانتخابات ، ومن هم في مجلس العموم . وقد أرغم الحزبان الحاكمان ، اللذان كانا يمثلان مختلف أجنحة الارستقراطية العقارية ، الويغ والتوري (٩) ، على تقديم تنازلات . وكتبت الغلبة للحزب الاكثر ليبيرالية منهما ، حزب الويغ الذي كان يعتبر الاصلاح الانتخابي ضروريا . لكن البورجوازية الصناعية هي وحدها التي حصلت على حق الاقتراع .

---

٨ ـ امبراطور روسيا من ١٨٠١ الى ١٨٢٥ والد خصوم نابليون (١٧٧٧ ـ ١٨٢٥) . «م»

٩ ـ كان الويغيون يناصرون «حقوق الشعب» ، بينما كان خصومهم التوريون يؤيدون سلطان التاج . وابتداء من سنة ١٨٣٢ ، سمي حزب الويغ حزب الاحرار ، وحزب التوري حزب المحافظين ، وقد تناوبا على سدة السلطة على امتداد القرن التاسع عشر . «م»

وردا على خيانة البورجوازية الليبيرالية ، التي انحاز اليها العضو السابق في جمعية المتراسلين بلاس ، نظم العمال ، بعد عـــدة محاولات غير مثمرة ، جمعية لندن العمالية في عام ١٨٣٦ . وقد تولى قيادة تلك الجمعية عدد من العمال الموهوبين ، ومنهم وليـم لويت وهنري هاسرينغتون . وفي سنة ١٨٣٧ صاغ لويت ورفاقه لاول مرة المطالب السياسية الاساسية للطبقة العاملة . فقد جعلوا هدفهم تنظيم العمال لا في حزب عمالي طبقي ينتصب في وجه سائر الاحزاب البورجوازية الاخرى ، وانما في حزب سياســي ينادي بأنه يريد ان تكون له حصته من النفوذ ، وأن يشارك في المعترك السياسي ، وأن يكون في ظل النظام البورجوازي الحزب السياسي للطبقة العاملة . وتوجد في الوقت الراهن احـــزاب عمالية من ذلك النوع في استراليا وزيلاندا الجديـــدة ، وليس هدفها التحويل الجذري للشروط الاجتماعية ، وقد تتحالـــف احيانا تحالفا وثيقا مع البورجوازية بغية تأمين حصة محددة من النفوذ للعمال في الآلة الحكومية .

عُمدت الوثيقة التي صاغ فيها لويت ورفاقه مطالب العمال باسم «الميثاق» ، وحركتهم باسم الحركة «الميثاقية» (١٠) . وقد طرح العمال الميثاقيون ستة مطالب : الانتخاب العام ، برلمـــان سنوي ، اقتراع سري ، تعويض برلماني ، تقسيم البلاد الـــى دوائر انتخابية متساوية ، وإلغاء ضريبة الترشيح المفروضة على النواب . على هذا النحو بدأت الحركة الميثاقية .

في فرنسا ، أدت ثورة تموز ١٨٣٠ لا الى اقامة الجمهورية، وانما الى اقامة حكم ملكي دستوري ، على رأسه زعيم الفـــرع الاورليانسي الذي كان قد وقف إبان الثورة الفرنسية الكبرى ، ثم في عهد عودة الملكية لاحقا ، موقف المعارضة من آل بوربون .

---

١٠ ــ او الشارتية . «م»

وكان لوي فيليب «١١» الممثل النموذجي للبورجوازية : فقد كان حرصه على الاقتصاد والتوفير يحظى باعجاب اصحاب الدكاكين الباريسيين الصغار .

أطلقت ملكية تموز الحرية للبورجوازية الصناعية والتجارية والمالية حتى تتيح لها فرصة الاثراء السريع ، وسددت ضرباتها الى الطبقة العاملة التي تجلى في أوساطها منذ ذلك العهد، وان بصورة غير كافية ، ميل الى التنظيم .

في السنوات الاولى التالية للثورة كانت الجمعيات الثورية تتألف بصورة رئيسية من الطلبة والمثقفين ، وما كان العمال فيها الا الاستثناء . لكن ردا على خيانة البورجوازية انفجرت انتفاضة عمالية في عام ١٨٣١ في ليون ، مركز صناعة الحرير . واستولى العمال لعدة ايام متتالية على المدينة . ولم يطرحوا اي مطلب سياسي ، ونقشوا على رايتهم شعارا يقول : «لنعش عاملين او لنمت مقاتلين» . وفي خاتمة المطاف غلبوا على أمرهم ، وتعرضوا لانتقام رهيب .

تجددت الانتفاضة في ليون عام ١٨٣٤ . وكان دورها لا يستهان به ، وأهم شأنا من دور ثورة تموز . فقد أثرت هذه الاخيرة على العناصر البورجوازية الصغيرة الديموقراطية بوجه خاص . أما الانتفاضة الليونية المزدوجة فقد أظهرت للعيان للمرة الاولى الاهمية الثورية للعنصر العمالي الذي رفع ، وان في مدينة واحدة فقط ، راية التمرد على البورجوازية قاطبة وطرح بوضوح المسألة العمالية . ولم تكن مطالب البروليتاريا الليونية موجهة بعد ضد أسس النظام البورجوازي بالذات ، ولكنها كانت موجهة ضد الراسماليين ، ضد الاستغلال .

في ذلك العهد اذن ، وفي فرنسا وانكلترا ، دلفت الى خشبة

---

١١ ــ ملك فرنسا من ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ . «م»

المسرح طبقة ثورية جديدة ، هي البروليتاريا . في انكلترا حاولت هذه البروليتاريا ان تنظم نفسها . وفي فرنسا ، وبعد انتفاضة ليون ، بدأت المحاولات الاولى لتنظيمها الثوري . وأبرز ممثلي هذه الحركة هو اوغست **بلانكي** ، احد عظام الثوريين الفرنسيين. فتحت تأثير الانتفاضتين الليونيتين اللتين أظهرتا للعيان ان العنصر الاكثر ثورية في فرنسا يتمثل بالعمال ، طفق بلانكي مع رفاق له بتنظيم جمعيات ثورية في اوساط عمال باريس . وقد ساهم في تلك الجمعيات الثورية ، كما في زمن الثورة الفرنسية الكبرى ، رجال من جنسيات مغايرة : ألمان ، بلجيكيون ، سويسريون . وقام بلانكي ورفاقه ، وكان هدفهم الاستيلاء على السلطة السياسية بهجوم عسكري مفاجيء ثم المبادرة بعد ذلك الى تحقيق سلسلة من التدابير لصالح الطبقة العاملة ، قاموا في ايار ١٨٣٩ في باريس بمحاولة تمرد جريئة سرعان ما أجهضت . وقد انتهت تلك المحاولة ، التي عادت على بلانكي بالحكم بالسجن المؤبد ، نهاية مؤسفة بالنسبة الى الالمان الذين شاركوا فيها . ومن بين هؤلاء الاخيرين سأذكر شخصا واحدا فقط ، هو شابر الذي سيطالعنا اسمه لاحقا . فقد اضطر مع بضعة رفاق له الى مغادرة فرنسا، وتوجه في شباط ١٨٤٠ الى لندن حيث نظم جمعية تثقيف عمالية .

وفي ذلك الزمن الذي بلغت فيه الحركة العمالية الثورية أوجها ، كان ماركس وانجلز قد صارا رجلين واعيين ، أولهما في الثانية والعشرين من العمر ، والثاني في العشرين .

المحاضرة الثانية

[الحركة الثورية في ألمانيا في ١٨٣٠ ـ الراينلاند ـ سنوات مراهقة ماركس وانجلز ـ كتابات انجلز الادبية ـ ماركس محرر «الصحيفة الراينية» .]

لنرَ الان الى الوضع في ألمانيا بعد ١٨١٥ . كانت الحروب النابوليونية قد انتهت . وقد شاركت في تلك الحروب ، علاوة على انكلترا ، محور التكتل ، روسيا المتحالفة مع الالمان والنمسويين . وكان الكسندر الاول قد لعب الدور الرئيسي في مؤتمر فيينا (١) الذي قرر مصير اوروبا . ولم يكن صلح فيينا

---

١ ـ واحد من اكثر المؤتمرات في التاريخ رجعية ، انعقد بعد سقوط نابليون وأعاد تنظيم اوروبا ضاربا عرض الحائط بمشاعر القوميات . «م»

أجدى لاوروبا من مؤتمر فرساي (٢) الذي انهى الحرب الامبريالية الاخيرة . فقد جرد فرنسا من كل فتوحاتها الاقليمية في الحقبة الثورية . واعطيت المستعمرات الفرنسية لانكلترا . وانشطرت المانيا ، التي كانت تنتظر اتحادها من حرب التحرير تلك ، الى شطرين بصورة نهائية : المانيا الشمالية والنمسا .

وسرعان ما قامت بعد ١٨١٥ في اوساط المثقفين والطلبة حركة ترمي بصورة اساسية الى اعادة توحيد المانيا . وكان العدو الرئيسي يومئذ روسيا التي عقدت ، بعد مؤتمر فيينا مباشرة ، مع كل من المانيا والنمسا **التحالف المقدس** الرامي في المقام الاول الى خنق الصبوات الثورية . وكان المؤسسان الرسميان لذلك الحلف الكسندر الاول وأمبراطور النمسا (٣) ؛ أما في الواقع فقد كان رأسه المدبر مترنيخ ، موجه السياسة النمسوية . لكن روسيا كانت تُعد المعقل الاول للرجعية . لهذا كان للحركة اللامشروعة ، التي ظهرت بين المثقفين والطلبة الالمان والتي كان هدفها تطوير الثقافة والتعليم في اوساط الشعب لاعداد العدة لتوحيد المانيا ، اتجاه مناوىء للروس من البداية . وقد أسست جمعيات عديدة ، وبرزت من بينها الحلقات الجامعية في إيينا وهس الخ . وفي عام ١٨١٩ اغتال طالب يدعى كارل ساند الكاتب الالماني كوتزبو (٤) الذي كان يعد بحق جاسوسا روسياً . وقد قدم ذلك العمل الارهابي ، الذي ترك اثرا عميقا في روسيا حيث

---

٢ ــ مؤتمر تاريخي رجعي آخر ، انعقد في ٢٨ حزيران ١٩١٩ ، ليكرس الهزيمة الالمانية في الحرب العالمية الاولى وليعيد تقاسم العالم والمستعمرات بين الامبرياليات الكبرى . «م»

٣ ــ هو فرانسوا الثاني من آل هابسبورغ . «م»

٤ ــ اوغست فون كوتزبو ، مؤلف مسرحي الماني (١٧٦١ ــ ١٨١٩) . «م»

اصبح كارل ساند قدوة غالبية كانونيينا (٥) المقبلين ، قدم لمترنيخ وللحكومات الالمانية ذريعة لشن حملة اضطهادات ضد المثقفين . لكن الجمعيات الطالبية وطدت أقدامها بدلا من ان تندثر، وشكلت رويدا رويدا تنظيمات ثورية .

ان حركتنا الكانونية ، التي تمخضت عن محاولة عصيان مسلح لم يكتب لها النجاح في ١٤ كانون الاول ١٨٢٥ ، ليست حركة معزولة ومحصورة بالمثقفين الروس . فقد تطورت تحت تأثير الحركة الثورية لمثقفي بولونيا والنمسا وفرنسا واسبانيا . وكان يقابلها تيار ادبي خاص ، كان ابرز ممثليه واهمهم شأنا وأكثرهم نموذجية ، من ١٨١٨ الى ١٨٣٠ ، الصحفي الالماني لودفيغ بيرن . كان من اصل يهودي ، وكان له تأثير عظيم على تطور الفكر السياسي الالماني . وبوصفه ديموقراطيا سياسيا حقيقيا ، لم يكترث كثيرا للمسألة الاجتماعية ، لاقتناعه بأن من الممكن اصلاح كل شيء وتحسين كل شيء متى ما منح الشعب الحرية السياسية الكاملة .

لقد كان لثورة تموز ١٨٣٠ صدى قوي في اوروبا قاطبة ، بل انها تسببت في بعض أرجاء المانيا في فتن وانتفاضات . لكن نظرا الى ان الحركة لم تكن ذات جذور عميقة في الجماهير الشعبية ، فقد تغلبت عليها الحكومة بيسر وسهولة مقابل بعض تنازلات .

لقد أرغمت هزيمة انتفاضة ١٨٣١ البولونية ، تلك العاقبة المباشرة لثورة تموز ، عددا لا يستهان به من الثوريين البولونيين على البحث عن ملاذ لهم وملجأ في المانيا كي يفلتوا من ملاحقات

---

٥ ـ الكانونيون او الديسمبريون : اول جماعة ثورية ارهابية ظهرت في روسيا في اوساط الضباط ، ونظمت ثورة قصر فاشلة في كانون الاول ١٨٢٥ .
« م »

الحكومة القيصرية . وترتب على ذلك، في اوساط المثقفين الالمان، احتدام الكره لروسيا وتعاظم التعاطف مع بولونيا الرازحة تحت نير الاضطهاد .

وتسببت ثورة تموز والانتفاضة البولونية في قيام عدد من الحركات الثورية التي يخلق بنا ان نتوقف عندها . وسأسرد عليكم الاحداث والوقائع التي امكن لها ، بصورة او بأخرى ، التأثير على ماركس وانجلز اللذين كانا لا يزالان فتيين يافعين . ففي ١٨٣٢ كان اقليم بفالز مركز الحركة الثورية في المانيا الجنوبية . وكان اقليم بفالز ، شأنه شأن اقليم الراينلاند ، قد وقع في أيدي الفرنسيين لحقبة مديدة من الزمن ، ولم يُرجع الى المانيا الا بعد ١٨١٥ . ويومئذ أعطي الراينلاند لبروسيا ، وبفالز لبافاريا حيث كانت الرجعية تعيث فسادا على نحو مماثل لما كانت تفعله في بروسيا . ولم يكن ثمة بد بالطبع من ان يقاوم سكان الراينلاند ، وكذلك سكان بفالز ، الذين اعتادوا على قدر من الحرية النسبية في ظل النظام الفرنسي ، النظام الذي صاروا خاضعين له . وكان كل نهوض للحركة الثورية في فرنسا يشد بالضرورة من أزر معارضتهم . وفي ١٨٣١ انتشرت تلك الحركة على نطاق واسع للغاية في اوساط المثقفين الليبراليين في بفالز . وفي ١٨٣٢ نظم المحاميان فيرث وشيبنفايفر في مدينة هامباخ حفلا كبيرا توالى فيه على المنصة عدد من الخطباء ، بينهم بيرن ، ليعلنوا ضرورة قيام المانيا حرة وموحدة . وكان في عدادهم صانع فراشي يدعى يوهان بيكر ، وكان له من العمر آنئذ ٢٣ عاما ، وسوف نلتقي باسمه غير مرة في تاريخ الحركة الثورية الاوروبية . وراح بيكر، الوثيق الصلة بعدة أجيال من الثوريين الروس ، يثبت للمثقفين انه لا يجوز الاقتصار على التحريض ، وانه لا بد من اعداد العدة للانتفاضة المسلحة . كان ثوريا نموذجيا ، موهوبا جدا ، قبل ان يصير فيما بعد كاتبا . بيد انه لم يكن قط منظّرا لامعا ، بل كان

يمثل بالاحرى نموذج الثوري العملي . وبعد حفل هامباخ ، امضى بضع سنوات اخرى في المانيا حيث مارس الدعاية والتحريض ونظم عمليات هرب للثوريين المسجونين . وفي ١٨٣٣ ، وفيما كان هو نفسه في السجن ، قامت مجموعته بهجوم مسلح على حامية فرانكفورت حيث مقر دييت الاتحاد الكونفدرالي الجرماني. وكان الطلبة والعمال المنتسبون الى تلك المجموعة مقتنعين بأن انتفاضة مظفرة في تلك المدينة سيكون لها وقع عظيم في المانيا ، بيد ان الإخفاق كان من نصيبهم . وقد شارك كارل شابر ، الذي كان يشتغل يومئذ في المانيا ، مشاركة فعالة في تلك الانتفاضة ؛ وبعد الاندحار تمكن من الهرب الى فرنسا . وكانت كل تلك الحركة الثورية متركزة بوجه الخصوص في المناطق التي لبثت ردحا طويلا من الزمن تحت السيطرة الفرنسية .

في امارة هس ايضا قامت حركة ثورية بقيادة الراعي فيديغ، النصير الراسخ اليقين للحرية السياسية ولتوحيد المانيا . وقد نظم فيديغ مطبعة سرية كان يطبع فيها بياناته ، ويسعى الى تجميع المثقفين حوله . وكان في عداد هؤلاء واحد من اولئك الذين شاركوا أوسع المشاركة في الحركة ، أعني جورج بوخنر مؤلف مسرحية «موت دانتون» . فيقينا منه بضرورة كسب تعاطف الجماهير القروية ، انشأ برسم فلاحي اقليم هس صحيفة دعائية خاصة كانت اول محاولة في نوعها . ولم يطل العمر بتلك الصحيفة التي كان فيديغ يطبعها في مطبعته السرية . واعتقل منظموها . وأفلح بوخنر في الافلات من الملاحقات : فهرب الى سويسرا حيث قضى نحبه بعد مدة قصيرة . أما فيديغ (خال فلهلم ليبكنخت الذي تأثر ، ولا بد ، عميق التأثر بتلك الاحداث وان كان غرا يافعا) فقد أودع السجن وتعرض لعقوبات جسدية.

يمم قسم من الثوريين الذين أفلح بيكر في تهريبهم من السجن ، وكذلك شابر الذي فر بعد انتفاضة فرانكفورت ، ثم شوستر ، يمموا بوجوههم شطر باريس حيث استقر بهم المقام

وأسسوا جمعية سرية : «**اتحاد المنفيين**» . وتحت تأثير شوستر وعدد من العمال الالمان المقيمين في باريس ، اشتد ساعد التيار الاشتراكي اكثر فأكثر في تلك الجمعية ، وأدى في نهاية المطاف الى انشقاقها . وأسس قسم من اعضائها ، بزعامة شوستر ، «**اتحاد العادلين**» الذي قيضت له ثلاث سنين من العمر والذي شارك المنتسبون اليه في انتفاضة بلانكي ، وكان مآلهم ، شأن البلانكيين ، الى الاعتقال والسجن . وبعد الافراج عنهم توجه شابر ورفاقه نحو لندن حيث أنشؤوا جمعية للتثقيف العمالي ، تحولت فيما بعد الى جمعية شيوعية .

في ذلك العهد كان المثقفون الالمان واقعين تحت تأثير ل. بيرن ومجموعة من الكتاب الذين كان ابرزهم وألمعهم هنري هايني ، الشاعر والصحفي معا . وقد ساهمت مراسلاته من باريس ، وكذلك مراسلات بيرن ، اسهاما مرموقا في تكوين الشبيبة الالمانية .

كان مسقط رأس بيرن في بفالز ، وهايني في الراينلاند ، وكانا كلاهما يهوديين . وكان ماركس هو الآخر يهوديا . فالى اي حد أثر أصله اليهودي على تطوره ؟

في تاريخ الاشتراكية الالمانية لعب اربعة يهود ، ماركس ولاسال وهايني وبيرن ، دورا بالغ الاهمية . ولا مراء في ان اصل ماركس وهايني اليهودي كان له بعض التأثير على وجهة تطورهما السياسي . فقد كان الطلبة يرفعون يومئذ عقائرهم بالاحتجاج على النظام السياسي والاجتماعي السائد في المانيا ، لكن المثقفين اليهود كانوا أشد احساسا بوطأته . وينبغي ان نقرأ المقالات التي يصف فيها بيرن عسف الرقابة ، ويندد فيها بضيق الافق السائد في المانيا يومئذ ، وبهيمنة البوليس ، لكي ندرك ان كل انسان ، مهما ضؤل حظه من الاستنارة ، كان مكرها بالحتم والضرورة على الاحتجاج على شروط الحياة تلك ، والتي كانت تثقل بوطأتها على

اليهود بوجه خاص . وقد امضى بيرن حداثته كلها في الحي اليهودي من فرانكفورت . وقد ترك النظام القروسطي الذي كان يحيا في ظله اليهود اثرا عميقا في نفسه ، وفي نفس هايني كذلك .

ولم تكن الشروط التي عاش فيها ماركس مماثلة ؛ ولهذا كاد بعض مؤرخي سيرته ان ينكروا انكارا تاما تأثير الوسط اليهودي عليه .

كان والده ، هنري ماركس ، المحامي مهنةً والانسان المثقف والمنعتق من الاحكام المسبقة الدينية ، يكنّ بالغ الاعجاب للادب الفلسفي المبدع في القرن الثامن عشر . وقد علم ابنه ان يطالع مؤلفات كتاب من أمثال لوك وفولتير وديدرو . وكان لوك في الفلسفة خصما للفطرية . وكان يقول ان الانسان لا يحمل افكارا فطرية ، وان كل فكرة ان هي الا نتاج التجربة والتربية . وقد سار الماديون الفرنسيون على خطاه . فكانوا يثبتون انه لا يوجد في روح الانسان شيء ليس اساسه الاحساس اولا ، ولا يمر بالحواس اولا . كذلك ما كانوا يعترفون بأي فكرة فطرية .

لئن كان والد ماركس قد انقطع منذ عهد بعيد عن أداء فرائض دينه ، فقد بقي مع ذلك يهوديا ، ولم يعتنق المسيحية الا في عام ١٨٢٤ . وقد جهد مهرينغ في السيرة التي وضعها عن حياة ماركس كي يثبت ان هنري ماركس اراد ، بفعلته تلك ، ان يفوز بحق الدخول الى المجتمع المسيحي المثقف . وفي ذلك قسط من الحقيقة ، لكن لئن تنصر هنري ماركس فهذا كي يفلت من ضروب التنكيد الجديدة التي بات يواجهها اليهود منذ عودة الراينلاند الى بروسيا . وقد ابدى ماركس نفسه ، على الرغم من انه كان منقطعا عن كل صلة روحية بالوسط اليهودي ، اهتماما كبيرا بالمسألة اليهودية في شبابه . فقد كان يتصل بالطائفة اليهودية في تريير . وكان اليهود يرفعون آنئذ عرائض متوالية يلتمسون فيها تخفيف وطأة مختلف الاجراءات الجائرة المتخذة بحقهم .

وبناء على طلب من أقربائه الاقربين والطائفة اليهودية في تريير ، حرر ماركس ، وكان له من العمر آنئذ ٢٤ سنة ، واحدة من تلك العرائض .

لم يكن ماركس يحتقر بحال من الاحوال اذن ابناء دينه السابق ؛ بل كان يهتم بالمسألة اليهودية ويشارك في النضال في سبيل انعتاق اليهود . وما كان ذلك ليمنعه من ان يميز تمييزا واضحا بين اليهود الفقراء وبين ممثلي الدوائر المالية العليا ، وان كان عدد اليهود الاثرياء في المنطقة التي كان يحيا فيها ماركس ضئيلا ، والحق يقال . فقد كانت الارستقراطية اليهودية متركزة يومئذ في هامبورغ وفرانكفورت .

تقع تريير ، التي رأى فيها النور ماركس وعدد من أسلافه الذين كانوا من الحاخامات ، في اقليم راينلاند كما سبق ان ذكرت . وكان هذا الاقليم يشهد حياة سياسية وصناعية مكثفة. وهو لا يزال الى اليوم واحدة من اكثر مناطق المانيا تصنيعا . ويضم مدنا من أشباه سولنجن ورمشايد المعروفتين بمصاهرهما الفولاذية، وكذلك بارمن وإلبرفيلد ، مركزي الصناعة النسيجية. كانت تريير ، التي عاش فيها ماركس ، مدينة قروسطية قديمة لعبت في القرن العاشر دورا مرموقا ، وكانت مع روما واحدة من حواضر المسيحية . وكان فيها مدابغ ومعامل نسيج ، لكن الصناعة المعملية كانت واهية التطور فيها قياسا الى الاجزاء الشمالية من راينلاند حيث كانت تقوم مراكز العدانة وصناعة القطن . وكانت تريير ، الواقعة وسط منطقة مختصة بزراعة الكروم حافظت على مخلفات المشاعة القروية القديمة وكانت غالبية الفلاحين فيها من الملاك الصغار وزراع الكرمة الذين تطيب لهم حياة المسرة والخمرة الجيدة ، اقول كانت تريير قد صانت الى حد ما عادات مدينة من القرون الوسطى . وكان ماركس يولي فائق اهتمامه يومئذ لوضع الفلاحين . وكان يقوم بجولات في

القرى المجاورة ، ويتزود بالمستندات والبيّنات بصدد حياتهم . وقد اظهرت المقالات التي نشرها بعد بضع سنوات انه مطلع حق الاطلاع على تفاصيل الحياة القروية ، وعلى نظام ملكية الارض ، وعلى طرائق الزراعة لدى فلاحي الموزيل .

في المدرسة الثانوية كان ماركس ، كما تثبت ذلك بوجه خاص شهادة واحد من اساتذته بصدد موضوع انشائي كتبه ، من ألمع التلاميذ . فبناء على تكليف من ذلك الاستاذ بكتابة موضوع انشاء عن اختيار مهنة للشبان ، بيّن ماركس ان المرء لا يستطيع اختيار مهنته بحرية ، وأنه يولد في شروط تحدد سلفا مهنته وتصوره للعالم . ويمكننا ، لو شئنا ، أن نرى في ذلك البذرة الاولى للتصور المادي للتاريخ . ولكن لا يجوز ان نرى فيه سوى الدليل على ان ماركس استوعب منذ حداثته، وتحت تأثير والده، الافكار الاساسية للمادية الفرنسية . وكل ما هنالك انه عبر عن تلك الافكار في شكل خاص .

ترك ماركس المدرسة الثانوية في السادسة عشرة من العمر. ودخل الى الجامعة في عام ١٨٣٦ ، اي في زمن كانت قد سكنت فيه الاضطرابات الثورية وران فيه قدر من الهدوء على الحياة الجامعية .

وحتى تحسنوا فهمي ، سأرجع الى حركتنا الثورية الروسية . فاندفاعة الحركة الثورية في العقد الثامن دامت حتى ١٨٨٣ ــ ١٨٨٤ ، يوم صار واضحا ان **نارودنايا فوليا** (٦) القديمة قد غلبت على أمرها . وكانت سنوات ١٨٨٦ ــ ١٨٨٩ ، وعلى

---

٦ ــ نارودنايا فوليا «ارادة الشعب» : جمعية سرية شعبوية تأسست في عام ١٨٧٩ لمكافحة الاوتوقراطية القيصرية ، نجحت في اغتيال الكسندر الثاني في ١ آذار ١٨٨١ ، وأخفقت في اغتيال ابنه الذي خلفه والذي تمكن من تحطيم شبكاتها وخلاياها كلها تقريبا . «م»

الاخص بعد محاولة اغتيال الكسندر الثالث في ١ آذار ، سنوات رجعية تماما في الجامعات حيث توقفت الحركة الثورية توقفا تاما . وقد شرع أترابي في السن ـ أعني اولئك الذين لم يفقدوا الحس الثوري ـ يدرسون الاسباب التي آلت بفعلها تلك الحركة السياسية الثورية الى فشل ، وانكبوا مؤقتا على العلم .

واننا لنواجه تيارا من هذا النوع في المانيا حين دخل ماركس الى الجامعة . انكب ماركس على الدراسة بجد . ولدينا عنه وثيقة مهمة في ذلك العهد : رسالة وجهها الى والده وخاطبه فيها مخاطبة الصديق الحميم ، وعرض له بلا لف أو دوران افكاره . كان هنري ماركس يقدر ويفهم أحسن التقدير والفهم ابنه ، وحسبنا أن نقرا رده لنحكم على ثقافته الرفيعة . وبموجب روح ذلك الزمان ، نرى ماركس يبحث عن تصورات ومذاهب تسمح له بأن يعلل نظريا الحقد الذي كان يعتمل في نفسه تجاه النظام السياسي والاجتماعي السائد . وسأدرس فيما بعد هذه المسألة بالتفصيل . سأقول لكم الان أن ماركس ، عبر بحثه ذاك ، اعتنق الفلسفة الهيغلية في شكلها الذي اعطاها اياه **الهيغليون الشبان** الذين بتوا كل صلة لهم بتا مبرما بجميع الاحكام المسبقة واستخلصوا من تلك الفلسفة الاستنتاجات الاكثر راديكالية في مضمار السياسة والعلاقات المدنية والعلاقات الدينية . وفي ١٨٤١ أنهى ماركس دراسته الجامعية بدبلوم الدكتوراه .

في ذلك الوقت بالضبط وقع انجلز بدوره تحت تأثير الهيغليين الشبان .

رأى انجلز النور في بارمن ، المدينة الواقعة في شمال الراينلاند ، في مركز صناعة القطنيات والاصواف ، غير بعيد عن إيسن (٧) التي ستصبح فيما بعد مركز صناعة الصلب . وكان

---

٧ ـ من كبرى المدن الصناعية الالمانية في وادي الرور ، ومركز مصانع كروب التي أسست في عام ١٨١٢ . «م»

انجلز من اصل الماني ومن أسرة ميسورة .

ان بين يدي غوتا (٨) التجار وأصحاب المعامل في الراينلاند. أسرة انجلز تحتل فيها مكانة كريمة . ولها فيها شعارها النسَبي الخاص بها . وهذا الشعار مزدان ، وكأنه يشير الى المجرى السلمي لحياة انجلز المستقبلة والى ميوله السلمية ، بملاك مع غصن زيتون . وبذلك الشعار دخل انجلز الى الحياة . وأرجح الظن ان أسلافه اختاروه لان انجلز يعني في الالمانية «ملاك» . ويرجع أصل اسرة انجلز الى القرن السادس عشر . كانت اذن أسرة ذات شأن . أما فيما يخص ماركس ، فان أسرته لم تحظ باهتمام كثير ، بل انه لتصعب معرفة جده معرفة يقينية . المعروف فقط ان ماركس كان من أسرة حاخامات . وحول اصل أسرة انجلز توجد روايتان . فطبقا لبعض المعطيات يقال ان انجلز سليل بعيد للفرنسي لانج (٩) ، البروتستنتي اللاجيء الى المانيا. لكن اقاربه الحاليين ينكرون تلك الواقعة ويجهدون لاثبات اصله الالماني الصرف . وعلى كل الاحوال ، كانت اسرة انجلز ابتداء من القرن السابع عشر قد أمست اسرة عريقة من اصحاب معامل الجوخ ، وصار أحفادها اصحاب معامل قطنية وأناسا في منتهى اليسر وذوي ميول أممية قوية . وقد أسس والد انجلز ، مع صديقه إرمن ، معملا للنسيج في وطنه ، ومعملا آخر في

---

٨ ـ غوتا : مدينة في المانيا الشرقية ، اشتهرت ماركسيا بـ «برنامج غوتا» الذي وضع عند تأسيس الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الالماني في ايار ١٨٧٥ ، والذي وجه اليه ماركس وانجلز نقدا لاذعا ، وكان يصدر في غوتا بالفرنسية والالمانية ، بين ١٧٦٣ و١٩٤٤ ، تقويم سنوي للأنساب ، دبلوماسي واحصائي ، ويعرف باسم «تقويم غوتا» ، وإليه يشير هنا ريازانوف . «م»

٩ ـ لانج بالفرنسية تعني «الملاك» . «م»

مانشستر ، وبذلك صار صناعيا انكليزيا ـ ألمانياً .

كان انجلز الاب يعتنق الديانة البروتستنتية وينتمي الى الطائفة الانجيلية . وهو يشبه شبها قويا قدامى الكالفينيين الذين كانوا يجمعون بين ايمان عميق وبين اقتناع لا يقل عمقا بأن دعوة الانسان أن يتدبر لنفسه مالا وأن يكدس رأسمالا بالانتاج والتجارة. كان في حياته الخاصة رجلا متدينا ، متعصبا ، يكرس جميع الساعات التي تتركها له قضاياه المالية لتأملات الورع والتقى . على هذا النحو قامت بين انجلز ووالده علاقات معاكسة تماما لتلك التي كانت قائمة بين ماركس وأبيه . فأفكار انجلز قادته ، منذ وقت مبكر ، الى منازعات مع والده . فرغبة من هذا الاخير في أن يجعل من ابنه تاجرا ، انشأه التنشئة الموافقة . وحين ناهز ابنه السابعة عشرة من العمر أرسله الى بريمن ، وهي من اشهر المدن التجارية في المانيا . وهناك عمل انجلز الفتى ثلاثة أعوام في مكتب تجاري . وتظهر لنا رسائله الى زملائه في المدرسة كيف كان يبذل كل ما أوتي من طاقة لينجو بنفسه من تأثير وسطه . فقد قدم الى بريمن متدينا ، بيد انه سرعان ما سقط تحت تأثير بيرن وهايني . وفي التاسعة عشرة من العمر بدأ يكتب ، واحتل مكانه بين المفكرين الاحرار الديموقراطيين الالمان . وتتضمن مقالاته الاولى (الموقعة بالاسم المستعار «اوسفالد») ، التي لفتت اليه الانظار ، نقدا لاذعا للوسط الذي قضى فيه طفولته . وأثارت رسائله من فوبرتال (من اسم وادي الفوبر الذي تقع فيه مدينتا بارمن وإلبرفيلد) وقعا ودويا . وظهر واضحا منها ان كاتبها شب عن الطوق في تلك المنطقة وأنه يعرف كل من فيها من رجال نابهين . وفي بريمن انعتق انجلز من كل حكم مسبق ديني ، وصار شبيها بيعقوبي فرنسي قديم .

في عام ١٨٤١ تطوع انجلز بصفته ابن صاحب معمل غني ـ وكان في حوالي العشرين من العمر ـ في مدفعية الحراسة في برلين . وهناك شق طريقه الى حلقة الشبان الهيغليين التي

كان ماركس يتردد هو الآخر عليها . وشاركهم نضالهم ضد الآراء المسبقة القديمة ، وانتمى ، نظير ماركس ، الى الاتجاه الاكثر راديكالية في الفلسفة الهيغلية . ولكن فيما بقي ماركس ، اذا جاز التعبير ، حبيس حجرة العمل والمطالعة يعد نفسه للحرفة الجامعية ، كان انجلز ، الذي بدأ بالكتابة منذ عام ١٨٣٩ ، قد احتل باسمه المستعار مكانة مرموقة في الادب وشارك بأوفى قسط في الصراع الايديولوجي الجاري بين أتباع الانظمة الفلسفية القديمة والجديدة .

اني ألفت انتباهكم بوجه خاص الى عامي ١٨٤١ ــ ١٨٤٢ . فهما العامان اللذان كانت فيهما مجموعة كاملة من الروس الموسكوفيين تحيا في المانيا. وكان في عدادهم باكونين وأوغاريف وفرولوف الذين كانوا يعيشون في شروط شبه متماثلة ويبدون نحو الفلسفة عين الحماسة التي كان يبديها نحوها كل من ماركس وانجلز . وفي وسعكم ان تحكموا على ذلك بأنفسكم من الواقعة التالية :

كتب انجلز في عام ١٨٤٢ نقدا عنيفا لفلسفة خصم هيغل ، شيلنغ . وكان هذا الاخير قد دعي يومئذ من قبل الحكومة البروسية للقدوم الى برلين لمعارضة فلسفة هيغل بفلسفته التي كان يحاول التوفيق فيها بين الانجيل والعلم . وتشبه الآراء التي كان انجلز يعتنقها عهدئذ شبها قويا الآراء التي عبر عنها بيلنسكي وباكونين في مقالاتهما في ذلك الزمن ، الى حد ان كراسته التي انتقد فيها «فلسفة الوحي» لشيلنغ كانت تعزى حتى الآونة الاخيرة الى باكونين . ونحن نعرف اليوم ان ليس باكونين هو الذي كتبها ، لكن الموضوع والتعابير والبراهين المستخدمة لاثبات تفوق النظرية الهيغلية تشبه غاية الشبه تعابير باكونين وبراهينه الى حد لا نستغرب معه ان يكون عدد من الروس قد اعتبروا ــ وما يزالون ــ ان ذلك المؤلف قد خطته يراعة

باكونين .

كان انجلز في عام ١٨٤٢ قد ادرك الثانية والعشرين من العمر . وهكذا يكون قد اضحى في عهد مبكر كاتبا ديموقراطيا ، جذريا ، ناجز التكوين . وكان ، كما قال بنفسه في قصيدة ممتعة وصف فيها شخصه ، يعقوبيا متحمسا . وهو يشبه عظيم الشبه ، من هذه الزاوية ، الالمان القلائل الذين التزموا بالثورة الفرنسية . وبحسب تعبيره ، كان نشيد **المارسييز** يتردد باستمرار على شفتيه ، وكان يطالب بالمقصلة ، لا اكثر ولا اقل. هكذا كان انجلز في عام ١٨٤٢ . وكان ماركس قد وصل الى الدرجة ذاتها من التطور . وفي ١٨٤٢ اخيرا التقيا من خلال عملهما المشترك .

كان ماركس قد انهى دراسته وحصل على دبلوم الدكتوراه في نيسان ١٨٤٢ . وقد عقد العزم في بادىء الامر على الاهتمام بالفلسفة والعلم ، لكنه عدل عن هذا المشروع حين حرم معلمه وصديقه ، برونو باور ، الذي كان من زعماء الهيغليين الشبان والذي كان ينتقد انتقادا حادا اللاهوت الرسمي ، من حق التدريس في الجامعة . وفي ذلك الوقت بالضبط دعي ماركس الى المشاركة في تحرير صحيفة جديدة . كان ممثلو البورجوازية التجارية والصناعية الراديكالية في الراينلاند ، كامبهاوزن وآخرون ، قد عقدوا النية على تأسيس جريدة سياسية خاصة بهم . وكانت اكثر الصحف نفوذا في الراينلاند صحيفة **كولنيش زايتونغ** ، وكانت كولن (١٠) يومئذ اكبر مركز صناعي في المنطقة . وكانت «كولنيش زايتونغ» تجثو مستكينة امام الحكومة . وشاءت البورجوازية الراديكالية ان تعارضها بصحيفة خاصة بها ، حتى

---

١٠ ــ وهي المدينة المعروفة ، نقلا عن الفرنسية ، باسم كولونيا ، وقد اشتهرت بصناعة العطور ، ومن هنا كانت تسمية «ماء الكولونيا» . «م»

تذود عن مصالحها الاقتصادية ضد الاقطاع . وعلاوة على كامباوزن ، كان باني السكك الحديدية مفيسون يلعب يومئذ دورا هاما في المنطقة . وقد قام هو وكامبهاوزن بجمع المال ، لكن كان ينقصهما المحررون . وحدث يومئذ ما حدث بعدئذ في روسيا . فقد سقطت مجموعة من صحفنا التي انشأها الراسماليون بين أيدي جماعة محددة من الادباء . هذا ما حصل قبل ١٩٠٥ وبعده ، وحتى اثناء الحرب . صناعيون مستقلون قدموا أموالا لجماعة معينة من الادباء . وفي الراينلاند ايضا تولت مجموعة من الفلاسفة الشبان ، من الادباء الشبان ، توجيه الصحيفة التي أسسها اصحاب المعامل الذين تحدثنا عنهم . ومن بين اولئك الادباء لعب موسى هس الدور الرئيسي . كان يتقدم ماركس وانجلز في السن . وكان ، مثل ماركس ، يهوديا ، لكنه بت مبكرا صلته بأبيه الذي كان رجلا على قدر من الثراء . وكان قد انتمى الى الحركة التحريرية ، وبعد ١٨٣٠ طفق ينادي بضرورة قيام الاتحاد بين الامم المثقفة بغية ضمان الفوز بالحرية السياسية والثقافية . وفي عام ١٨٤٢ كان موسى هس ذاك قد اضحى ، قبل ماركس وانجلز ، وتحت تأثير الحركة الشيوعية الفرنسية ، شيوعيا . ومع بعض من رفاقه ، صار واحدا من المع محرري **الصحيفة الراينية** .

كان ماركس يعيش آنئذ في بون . ولردح من الزمن ، لم يكن الا مراسلا يبعث بانتظام بمقالاته الى الصحيفة . لكنه رويدا رويدا احتل المكانة الاولى في الصحيفة التي كان يوجهها سابقا هس واثنان من رفاقه ، اوبنهايم وروتنبرغ . وكان هذا الاخير صديقا لماركس ، وقد زكاه لدى هيئة التحرير . هكذا نجد ان **الصحيفة الراينية** ، التي كانت تطبع على نفقة البورجوازية الصناعية في المنطقة ، كانت في الوقت نفسه الناطقة بلسان المجموعة البرلينية من الكتاب الشبان والجذريين الذين كان ينتمي اليهم ماركس وانجلز .

في خريف ١٨٤٢ قدم ماركس الى كولن للاستقرار فيها ، وأعطى الجريدة للحال اتجاها جديدا . فخلافا لرأي اصدقائه البرلينيين ولرأي انجلز ، ألح على خوض الكفاح الاكثر جذرية ضد الشروط السياسية والاجتماعية القائمة ، ولكن في شكل لا يتجاوز الحد في صخبه. وهنا تجلى أثر الشروط المختلفة التي تكوّن فيها كل من ماركس وانجلز ، وعلى الاخص واقع ان ماركس لم يعرف الاضطهاد الديني والنير الفكري اللذين عانى منهما انجلز في حداثته . لهذا كان ماركس لا يفيض حماسة وحمية للنضال الديني ولا يرى من ضرورة لتكريس قواه كلها لنقد عنيف معاد للدين . بل كان يفضل ، من هذه الزاوية ، محاجّة تتعمق الى باطن الامور على محاجّة تستسهل السطحية ، مقدرا ان ذلك ضروري للحفاظ على الصحيفة وللابقاء بالتالي عليها كمنبر . اما انجلز ــ وهذه سمة اتسم بها كل ما انتجه في فتوته ــ فكان اقرب الى المجموعة الاخرى التي كانت تبغي أعنف كفاح خارجي ضد الدين . ولنقل بالمناسبة ان ذلك الخلاف في التكتيك بين ماركس وانجلز يشبه الخلاف التكتيكي الذي كان قائما في نهاية ١٩١٧ وبداية ١٩١٨ في وسطنا ، حيث كان بعض الرفاق يطالبون بنضال فوري وفاصل ضد الكنيسة . وكان رفاق آخرون يقدرون، على العكس ، أن ذلك النضال ليس أعجل المهام ، وأن امامنا مهام تفوقه اهمية . وكانت خلافات في وجهات النظر من هذا النوع تقوم بين ماركس وانجلز وسائر الصحفيين الشبان من زملائهما . وقد وجدت مجادلتهم تعبيرها في الرسائل التي كتبها ماركس كمحرر الى رفاقه القدامى في برلين . ويروي واضعو سيرة ماركس ان ماركس وانجلز استقبلا استقبالا فاترا في هيئة تحرير **الصحيفة الراينية** . وقد توجه انجلز ، الذي كان واحدا من مراسلي الصحيفة البرلينيين ، الى كولن قبل رحيله الى انكلترا. ومن المحتمل ان تكون قد دارت يومئذ مصارحة بينه وبين ماركس الذي كان يدافع عن تكتيكه والذي كان قد طرح بدقة ووضوح

مسألة الشغيلة . اذ كان قد وجه لاذع النقد الى القوانين المناوئة لحق الاحتطاب ، مبينا ان تلك القوانين مشبعة بروح الملكية الفردية ، وانها من صنع الملاك العقاريين الذين كانوا يسعون قصارى طاقتهم الى استغلال الفلاحين الصغار باستصدارهم قرارات حكومية تجعل منهم مجرمين . وقد نشر يومئذ في **الصحيفة الراينية** سلسلة من المقالات عن وضع معارفه القدامى، فلاحي الموزيل . وقد اثارت تلك المقالات مجادلة حامية بينه وبين رئيسي اقليم الراينلاند .

عندئذ ضغطت السلطات المحلية على برلين . فأخضعت الصحيفة لرقابة مزدوجة . ولما كان ماركس هو موجهها ، فقد طولب برفته . وكان الرقيب الجديد يعجب أشد الاعجاب بذلك الصحفي اللامع والاريب الذي يحتال بذكاء على الرقابة ، ولكن ذلك لم يمنعه من الوشاية به ، لا الى هيئة التحرير ، وانما الى مجموعة المساهمين الذين كانوا يمولون الصحيفة . وبدأ القلق يأكل هؤلاء الاخيرين : فطالبوا ماركس بأن يكون اكثر حذرا وفطنة وأن يتحاشى المسائل الشائكة . لكن ماركس ابى ذلك . وأثبت لهم ان كل محاولة للاعتدال لن تجدي فتيلا ، وان الحكومة لن يسكن لها روع . وفي خاتمة المطاف قدم استقالته من منصبه كمدير تحرير ، وهجر الصحيفة . لكن ابتعاده لم ينقذ الجريدة التي صدر بعد فترة وجيزة امر باغلاقها نهائيا .

خرج ماركس من الصحيفة وقد تبدل تماما عما كان عليه يوم دخلها . فحين دخلها لم يكن الا ديموقراطيا راديكاليا ، لكن ديموقراطيا يهتم بالوضع الاجتماعي والاقتصادي للفلاحين ، وفي فترة لاحقة بجميع المسائل الاقتصادية الاساسية المرتبطة بوضع اولئك الفلاحين . وبعد ذلك وجد ماركس نفسه مكرها ، وهو الذي لم يشغل نفسه حتى ذلك اليوم الا بالفلسفة وأحكام القضاء ، على الانكباب المتعاظم على المسائل الاقتصادية وعلى مسائل اجتماعية شتى .

وقد دارت يومئذ مجادلة بينه وبين صحيفة محافظة بخصوص مقال لهس الذي كان قد هدى انجلز منذ خريف ١٨٤٢ الى الشيوعية . وكانت خلاصة رده على تلك الصحيفة : لا حق لكم في مهاجمة الشيوعية . انني لا أعرف الشيوعية ، لكن الشيوعية التي تولت الدفاع عن المضطهَدين لا يمكن ان تدان بخفة . ينبغي امتلاك معرفة دقيقة ، تامة ، بذلك التيار قبل ادانته . وحين غادر ماركس **الصحيفة الراينية** لم يكن قد اضحى شيوعيا بعد ، لكنه كان رجلا يهتم بالشيوعية كاتجاه ، كفلسفة خاصة . وتوصل مع صديقه أ. روجه الى الاستنتاج بأنه من رابع المستحيلات خوض غمار الدعاية السياسية والاجتماعية في المانيا . لهذا قر قرار الرجلين على الذهاب الى باريس ونشر مجلة **الحوليات الالمانية ـ الفرنسية** فيها . وكان قصدهما من هذه التسمية ، المعاكسة لميول القوميين الفرنسيين والالمان ، التوكيد على ان واحدا من شروط نجاح النضال ضد الرجعية هو التحالف السياسي الوثيق بين المانيا وفرنسا . وفي تلك **الحوليات الالمانية ـ الفرنسية** صاغ ماركس لاول مرة النقاط الاساسية في فلسفته المستقبلة ، تلك النقاط التي تحول معها من **ديموقراطي راديكالي** الى شيوعي .

المحاضرة الثالثة

[الصلة بين الاشتراكية العلمية والفلسفة ـ المادية ـ كانط ـ فيخته ـ هيغل ـ فيورباخ ـ مادية ماركس الجدلية ـ الرسالة التاريخيـــة للبروليتاريا] .

توقفنا عند الفترة التي هجر فيها ماركس الحرفة الصحفية في المانيا كي يشد الرحال الى الخارج . وسألخص لكم الان ما قلته لكم في المرة السابقة . فقد اخذت على عاتقي ، كما تذكرون، مهمة دراسة حياة ماركس وانجلز على ضوء منهج البحث الذي وضعاه بنفسيهما .

رأينا ان ماركس وانجلز كانا ، على الرغم مـن عبقريتهما ، رجلين منتميين الى عصر محدد . وانكم لتذكرون كيف أدركا سن الوعي، أي كيف خرجا من حقبة الطفولة التي تأتي فيها الانطباعات

والتأثرات الرئيسية من الاسرة ، وكيف سقطا تحت تأثير المرحلة التاريخية التي كان طابعها يتحدد بصورة رئيسية بأثر ثورة تموز على المانيا ، وبتطور العلم والفلسفة ، وبتطور الحركة العمالية ، وبتطور الحركة الثورية في ذلك العصر . وقد اوضحت لكم ان ماركس وانجلز ما كانا من نتاج تلك الحقبة التاريخية المحددة فحسب ، بل كانا ايضا من حيث اصلهما من ابناء منطقة معينة ، الراينلاند الذي كان يومئذ اكثر اقاليم المانيا أمميةوتصنيعا والذي تأثر اكثر من اي اقليم آخر بالثورة الفرنسية . وأبنت لكم أن ماركس تعرض ، في السنوات الاولى من حياته ، لمؤثرات مغايرة لتلك التي تعرض لها انجلز ، وأن أثر الفلسفة الفرنسية في بيته كان قويا للغاية . أما انجلز فقد خضع ، على العكس ، لتأثير الدين في أسرة تكاد ان تكون متزمتة . وعليه ، كانت المسائل المتعلقة بالدين أشد ايلاما على الدوام لانجلز منها لماركس . وفي ختام المطاف ، وصل كل من ماركس وانجلز ، بطريقين مختلفين، واحدهما بسهولة نسبية وثانيهما بصعوبة نسبية ، الى استنتاجات متماثلة .

لقد تركناهما في الفترة التي صارا فيها ممثلي الفكر السياسي والفلسفي الاكثر جذرية في ذلك الزمن . تركناهما في اللحظة التي هم فيها ماركس بالرحيل الى باريس ليصوغ وجهة نظره الجديدة . وحتى ندرك ما الجديد الذي صاغه ماركس حقا وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، سأحاول ان أبين لكم باقتضاب ما كان لاقاه في مضمار الفلسفة .

لقد سبق للرفيق ديبورين ان درس معكم مسائل الوعي والروح والمادة والكينونة الخ ، وأعطاكم في أرجح الظن اسماء بعض الفلاسفة . وسأرجع الى كلمات انجلز في مقدمة كراسته: **تطور الاشتراكية العلمية** ؛ فقد كتب يقول :

«اننا لنفتخر ، نحن الاشتراكيين الالمان ، بأننا نستمد اصلنا لا من سان سيمون وفورييه وأوين فحسب ، بل ايضا من كانط

وفيخته وهيغل» . ولا يأتي انجلز بذكر اسم فيلسوف الماني رابع، فيورباخ الذي كرس له فيما بعد مؤلفا خاصا . وسأعرض عليكم الان الاصل الفلسفي للاشتراكية العلمية .

لست اختصاصيا ، شأن الرفيق ديبورين ، في الفلسفة . لكني بذلت ما بوسعي في الماضي كي أكوّن لنفسي فكرة عن المسائل الفلسفية الاساسية ، نظير ما فعل كل من يهتم بمسألة اصل التطور الانساني .

ان المسألة الرئيسية ، كما كان يطرحها انجلز ، هي ان نعرف هل يوجد مبدأ خلاق سبق العالم ، وبعبارة اخرى ، هل هناك إله كما علمونا في طفولتنا . ان ذلك الخالق ، ذلك الكائن الكلي القدرة ، يمكن ان يتلبس أشكالا مختلفة بحسب الاديان . يمكن ان يتجلى في شكل عاهل سماوي لامحدود القدرة ، تعمل تحت إمرته جحافل لا يحصى لها عد من الملائكة . ويمكنه ان يحول سلطاته الى البابا والاساقفة والكهنة . ويمكنه اخيرا ، بصفته عاهلا صالحا ومستنيرا ، أن يسن لمرة واحدة ونهائية دستورا وقوانين اساسية تنظم شؤون الانسانية قاطبة ، وأن يكتفي ، في حكمته اللامتناهية ، بحب اولاده واحترامهم من دون ان يعود الى التدخل في تصريف أمورهم . بكلمة واحدة ، يمكنه ان يتجلى في الاشكال الاكثر تنوعا ، ولكن الاقرار بوجود هذا الاله يستتبع الاقرار بوجود كائن وجد منذ الازل ، قال للكون ذات يوم : كن ، فكان ، وصارت كلمته للحال واقعا .

اذن ، كانت فكرة خلق هذا العالم ، نية خلقه ، الرغبة في خلقه ، موجودة في مكان ما خارج هذا العالم . اين بالضبط ؟ لا احد يدري . ولم يتمكن اي فيلسوف بعد ، ولا حتى فلاسفتنا الجدد في بتروغراد ، من فك ذلك اللغز .

ان ذلك الكائن الازلي يخلق الوجود كله . وهكذا فان الوعي والفكر يحددان كل ما هو موجود . الفكرة تخلق المادة ، الوعي

يحدد الكينونة . وفي الواقع ، ليس هذا الشكل الجديد من تجلي «المبدأ الاول» ، على الرغم من غلافه الفلسفي ، سوى التصـــور اللاهوتي القديم للعالم .

زبدة القول ، انها مسألة معرفة ما اذا كان من الممكن ان يطرأ شيء ما في الكون الذي نتحرك فيه ، في ما هو موجود ، بدون تدخل كائن مجهول موجود فيما وراء حدود هذا الكون ، كائن يقع خارج ادراكنا ، يدعـــى يهوه ، او **الاب** ، او **الابن** ، او **الروح القدس** ، او حتى **العقل** . بل يمكننا ان نسميه ، كما يفعل انجيل القديس يوحنا ، **الكلمة** . «في البدء كان الكلمة» . وهذه **الكلمة** فطرت الوجود . فطرت العالم .

هذه الفكرة عن **الكلمة** ، مبدأ الاشياء جميعا، كافحها فـــي القرن الثامن عشر الماديون ، ممثلو الفلسفة الجديدة للطبقـــة الجديدة ، البورجوازية الثورية ، وذلك في نطاق نقدهم للنظام الاجتماعي القديم ، النظام الاقطاعي . وكان التصور القديم للعالم يقف عاجزا عن ان يفسر لهم اصل ما جد من جديد في زمانهم ، ما يميز عصرهم عن العصور السابقة .

كان الوعي والفكرة والعقل ، المنظور اليها على انها **واحـــدة وثابتة** ، تشكو في نظرهم من عيب جوهري . وبالفعـــل ، كانت الملاحظة تدلهم على ان كل ما هو ارضي يتغير . فالكائن يتلبس الاشكال الاكثر تنوعا . وكانت التجربة تدلهم (من دون ان نتكلم عن الاسفار والاكتشافات التي كانت تقدم لهم في كل يوم مواد جديدة) على ان هناك اناسا شتى ، ودولا مختلفة ، وأفكـــارا متباينة .

وكان مرامهم ان يعرفوا ما مصدر هذا **التنوع** ، وكيف تظهر الفروق القائمة بين البشر والاشياء .

كان الفلاسفة كلما تبحروا في دراسة الماضي ، وجدوا شعوبا مختلفة . ومن تلك الشعوب من اندثر وباد ، ومنها من واصـــل الاستمرار في الحياة . فالانكليز قد اجتازوا حقبا مختلفة، وكذلك

حال الفرنسيين . فمن اين جاء ذلك الاختلاف في الزمان والمكان ، اذا كانت علة كل شيء تكمن في مبدأ أوحد، في إله فاطر على سبيل المثال ؟ ولم يكن هناك من مخرج الا بالافتراض بأن ذلك الاله يقرر ، من دون ان تكون لدى الانسان القدرة على فهم السبب ، ان توجد اليوم انكلترا ، وغدا المانيا ، وبعد غد فرنسا. وحسبما يعن في باله ، يسود آل ستيوارت اليوم في انكلترا ، وغدا يقطع رأس تشارلز الاول ويتولى كرومويل زمام السلطة .

بدءاً من القرن الثامن عشر ، بل بدءاً من القرن السابع عشر، وطردا مع التبدلات العميقة التي كانت تطرأ على الوجود والعالم الانساني والعلاقات بين البشر تحت تأثير البشر بالذات ، راح وجود الالوهية ، كمصدر لكل شيء ، يثير المزيد فالمزيد من الشك . وبالفعل ، ان ما يفسر كل شيء في تنوعه ، في الزمان وفي المكان ، لا يكون قد فسر شيئا بعد ما دام **اختلاف** الاحداث، لا الجامع المشترك بينها ، يجد تفسيره بكونها طرأت في شروط **مختلفة** ، تحت تأثير علل مختلفة . فكل فارق من هذه الفوارق يجب ان يفسر بالاسباب الخاصة ، بالمؤثرات الخاصة التي أنتجته .

كان الفلاسفة الانكليز ، العائشون في ظل رأسمالية **قيد** التحول السريع والمعايشون لتجربة ثورتين اثنتين ، قد سبق لهم ان تساءلوا هل من وجود فعلا لقوة تدبر كل شيء وتفعل كل شيء ، بصرف النظر عن ارادة البشر . وكانت قد ساورتهم الشكوك ايضا في ان تكون جميع تلك **الافكار** المختلفة التي ظهرت وتصارعت في زمن الثورة الانكليزية افكارا **فطرية** . فتلك الافكار كانت تحمل طابع **الجدة** ، على الرغم من كل الجهود التي بذلت للتوفيق بينها وبين تعاليم **الكتاب المقدس** .

وكان الماديون الفرنسيون ، الذين حدثتكم عنهم ، قد طرحوا المسألة بمزيد من الوضوح . ففي نظرهم لم يكن ثمة من وجود

لتلك القوة التي يقال انها توجد خارج عالمنا ، تلك القوة الالهيـــة التي تهتم على الدوام بأوروبا الجديدة ، تفكر في كل شيء وتتدبر كل شيء . فما الظاهرات طرا ، وما التاريخ قاطبة ، الا نتيجة فعل بني الانسان بالذات .

ما كان الماديون الفرنسيون يعرفون كيف يفسرون ما يحدد أفعال البشر ، لكنهم كانوا يعرفون ان ليست الآلهة ، ليست قوة خارجية ما هي التي تصنع التاريخ ، وانما البشر انفسهم هـــم الذين يصنعون الاحداث . لكن هنا كانوا يقعون في تناقض . فقد كانوا يعلمون ان البشر يختلفون في سلوكهم لان لهم آراء ومصالح مختلفة . لكنهم ما كانوا يعرفون بعد ما يثير تلك الاختلافـــات المصلحية ، ما كانوا يعرفون تأثير الشروط المادية على الانســـان الذي يتكون فيها . بل كانوا يعتقدون ، على العكس ، ان تكوين البشر يتحدد بهذا المشرع او ذاك من المشرعين الذين يتحكمون بهم ويحددون أفعالهم على غرار إله من الآلهة .

كان بعض الماديين الفرنسيين قد طرحوا مسألة اخرى ايضا. فقد كان خصومهم قد ردوا عليهم بالقول : صحيح ان الله لا يمكن ان يكون هو عينه يهوه اليهود الرهيب ، كما لا يمكن ان يكون هو عينه **الاب** او **الابن** او **الروح القدس** في الديانة المسيحية ، لكن يوجد مبدأ روحي وضع في المادة امكانية التفكير بالذات ، وسبق بالتالي الطبيعة وتقدم عليها . فأجاب الماديون الفرنسيون بـــأن ذلك ايضا لا يحتاج الى قوة خارجية ما ، لان القدرة علـــى الاحساس متضمنة من الاساس في المادة بالذات .

كان العلم بوجه عام ، والعلوم الطبيعية بوجه خاص ، لا تزال ناقصة التطور في العصر الذي انصرف فيه الماديون الفرنسيون الى انشاء فلسفتهم ؛ لكن العلوم كانت قد توصلت الى تقرير تلك الفكرة الاساسية .

ان كل من يسمي نفسه ماديا ينكر ان يكون الوعي والفكر ، بالمعنى الذي نفهم به هاتين الكلمتين ، قد سبقا المادة وتقدما على

الطبيعة . فعلى مدى مئات الالوف من السنين وملايين السنين ، لم يوجد على الارض اي كائن حي ، متعضٍ ؛ وبناء عليه لم يوجد ما يسمى بالفكر ، لم يوجد ما يدعى بالوعي . فالكينونة والطبيعة والمادة قد سبقت الوعي والروح والفكر .

لكن لا ينبغي لنا ان نتصور ان المادة هي بالضرورة شيء ما فج ، ثقيل ، قذر ، وان الفكر هي شيء ما رهيف ، خفيف ، طاهر . علما بأن الماديين المبتذلين، او احيانا بعض الماديين الصغار في السن ، يندفعون في حميا النقاش ، او بغية السخرية من فريسيي المثالية الذين لا يتوقف سيل كلامهم عن «العظمة» و«الجمال» والذين يرتاحون كل الارتياح مع ذلك لقذارة عالم البورجوازية ودناءته ، يندفعون الى التوكيد عن قصد وتصميم احيانا بأن المادة شيء ثقيل وفج .

اما اذا تتبعنا ، على العكس من ذلك ، تطور العلوم الفيزيائية في المئة والخمسين سنة الاخيرة ، للاحظنا ان المادة اضحت شيئا أثيريا وحركيا الى حدود لا تتصور . فمنذ ان قلبت الثورة الصناعية قواعد الاقتصاد الطبيعي القديم ، اخذ كل شيء يتحرك . فكل ما كان راقدا استيقظ ، وكل ما كان ساكنا دخل في مدار الحركة . وفي المادة الكتيمة ، الجامدة ، تم ، على ما بدا يومئذ ، اكتشاف قوى كانت لا تزال مجهولة ، وأشكال جديدة من الحركة .

ان الواقعة التالية ستبين لكم مدى النقص الذي كانت عليه معارف الماديين الفرنسيين . فحين كتب هولباخ ، وهو من اكثر الماديين الفرنسيين تماسك منطق، كتابه **نظام الطبيعة**، ما كان يعرف بعد ما يعرفه اليوم كل تلميذ مدرسة مجتهد في السنة الثانية عشرة من العمر . فالهواء كان في نظره شيئا لامنظورا ، واحدا من العناصر الرئيسية المكونة للطبيعة ؛ وبعبارة اخرى ، ما كانت معرفته بالهواء أفضل من معرفة الاغريق به قبل الفي عام . وبعد بضع سنوات من نشر المؤلّف الرئيسي لهولباخ ، اثبتت الكيمياء،

التي طورها على الاخص لافوازيه ، ان الهواء مركب من الآزوت والاوكسجين اللذين يشوبهما بمقادير طفيفة للغاية عدد معين من عناصر اخرى . وبعد مئة سنة ، وفي اواخر االقرن التاسع عشر، اكتشفت الكيمياء بين تلك العناصر الاخرى غازات مثل الارغون والهيليوم ، وهذه الغازات هي بدورها ضرب من المادة ، ولكن بالغة الرهافة .

اليكم مثالا آخر . ان البرق اللاسلكي كثير الاستعمال في روسيا السوفياتية . وقد أدى لنا خدمات جلى اثناء الحصار والحرب الاهلية . ولولاه لكنا تهنا في ديناميس الظلمات . والحال ان البرق اللاسلكي لم يكن له من وجود قبل ٢٦ عاما . ففي سنة ١٨٩٧ او ١٨٩٨ اكتشفت في المادة الفجة ، الخامدة، جواهر لامادية الى أبعد حد ، بحيث لم يكن هناك مفر ، لوضع اسماء لها، من اللجوء الى تسميات مقتبسة من اللاهوت الهندوسي القديم . ان البرق اللاسلكي ينقل الاصوات . ففي مقدورنا ان نسمع هنا في موسكو حفلة موسيقية تقام على بعد آلاف الفراسخ . وقبل زهاء اسبوعين علمنا ان في الامكان ارسال برقية لا تستنسخ توقيعك الخطي فحسب ، بل ايضا صورتك الشخصية . وتحقيقا لذلك يكفي ان يجري تعديل جهاز اخترعه التقني الفرنسي بيلان، وهذا كله يتم لا بمساعدة «الروح» ، وانما بمساعدة مادة بالغة الدقة والرهافة ، تقاس وتوجه من قبلنا .

لقد ضربت لكم تلك الامثلة كي أبين لكم مدى تخلف التصورات المألوفة عن المادية واللامادية . ولقد كانت هذه التصورات أشد تخلفا ايضا في القرن الثامن عشر . ولو كان في متناول ماديي ذلك العصر هذه الوقائع الجديدة كافة ، لكانوا أقل «فجاجة» ولما كان «المرهفون» أشاحوا عنهم .

كان الفلاسفة الالمان المعاصرون لكانط يعتنقون وجهة النظر التقليدية «القويمة» . فكانوا يردون المذهب المادي على انه

زنديق ولاأخلاقي . لكن كانط ما كان يكتفي بحل بمثل تلك البساطة . وكان يدرك حق الادراك كل تهافت الافكار الدينية القديمة . لكن لم يكن يملك لا الجرأة ولا المنطق اللازم ليبت صلته بصورة نهائية بتلك الافكار .

وفي عام ١٧٨١ نشر مؤلّفه الرئيسي **نقد العقل الخالص** . وقد أبان فيه انه لا وجود البتة لاي برهان على وجود الله وعلى خلود النفس وعلى أزلية الافكار ، وان علمنا يقوم على اساس التجربة . على أنه اضاف القول اننا لا نستطيع ان نعرف الاشياء ذاتها ، لا نستطيع ان نعرف ماهيتها بالذات ، وانما فقط الاشكال التي تتجلى بها تلك الاشياء فتؤثر على حواسنا . وماهية الاشياء ، المختفية وراء الظاهرة ، لن تكون ابدا في متناولنا . هكذا يكون كانط قد اقام نوعا من جسر بين المادية والمثالية ، بين العلم والدين . ما كان ينكر تقدم العلم ، وما كان ينكر ان العلم يساعد على فهم الاشياء ، لكنه ترك في الوقت نفسه مخرجا للاهوت بقبوله باطلاق اسم الله على ماهية الاشياء .

بيد ان كانط أوغل الى أبعد من ذلك في محاسبته المزدوجة، في رغبته في التوفيق بين العلم والايمان . فقد كتب مؤلّفا آخر ، **نقد العقل العملي** . وقد أوضح فيه انه اذا كان من الممكن الاستغناء في النظرية عن الله وخلود النفس الخ ، فلا مناص في الممارسة من الاعتراف بتلك المبادىء جميعا ، لانه بدونها يبقى النشاط بالذات مفتقرا الى اساس اخلاقي .

يصف الشاعر الالماني هايني ، الذي سبق لي ان حدثتكم عنه والذي كان الصديق الحميم لماركس وكان له عليه في فترة من الفترات تأثير مرموق ، يصف على نحو ممتع للغاية دوافع موقف كانط ذاك . فقد كان لدى كانط خادم طاعن في السن يدعى لامب، اقام لديه اربعين عاما وكان يحيطه بالرعاية الحنون . وكان لامب يجسد ، في نظر كانط ، العالم العادي الذي لا يستطيع ان يحيا بدون ايمان . وبعد ان يعرض هايني ببراعة كل الاهمية الثورية

لـ **نقد العقل الخالص** بالنسبة الى النضال ضد اللاهوت ، بل حتى ضد الايمان بمبدأ إلهي بحت ، يفسر لماذا احتاج كانط الى **نقد العقل العملي** الذي رمم فيه كل ما كان قد هدمه . اليكم ما كتبه :

«التراجيديا تعقبها الملهاة التهريجية . وعمانوئيل كانط لعب حتى الان دور الفيلسوف المتصلب . فقد انقض يهاجم السماء ، وأرغم حاميتها على وضع سلاحها ؛ سيد العالم ممدد يسبح في دمه؛ لا رحمة بعد اليوم ، ولا عناية أبوية ، ولا مكافأة في الآخرة عن الفضيلة في هذه الدنيا ؛ الخلود يحتضر ؛ هنا أنين وهناك حشرجة . لكن لامب العجوز موجود هنا، المظلة تحت ذراعه ، يتفرج مكروب النفس ، ووجهه يغطيه عرق بارد ، والدموع تنسال منه . عندئذ تدلف الشفقة الى قلب كانط ، فيظهر انه ليس فيلسوفا كبيرا فحسب ، وانما رجل طيب القلب ايضا . فبعد هنيهة من التأمل ، يقول بلهجة شبه متسامحة وشبه ساخرة معا : «لامب العجوز بحاجة الى إله ، والا فلن يعرف للسعادة طعما . والحال ان الانسان يجب ان يكون سعيدا على هذه الارض . هكذا يتكلم العقل العملي . حسنا ! ليكن الامر كذلك : فالعقل العملي يضمن وجود الله» .

لقد لعب كانط دورا عظيما ايضا في تاريخ العلم . فقد اثبت، مع عالم الفلك الفرنسي لابلاس ، ان ارضنا لم يخلقها الله في يوم واحد ، كما يروي لنا ذلك الكتاب المقدس ، وأنها حصيلة تطور طويل الامد ، وأنها تكونت مع جميع الافلاك السماوية عن طريق تركز مادة عادمة الشكل ، ومتخلخلة للغاية .

كان كانط في الواقع توفيقيا بين الفلسفتين القديمة والجديدة ، وقد بقي كذلك في جميع مضامير الحياة العملية . لكنه ان لم يعرف كيف يقطع أواصره بالماضي قطعا جازما ، فقد خطا مع ذلك خطوة هامة الى الامام ، وجاء تلاميذه المتماسكو المنطق ممن فهموا ، نظير هايني ، السبب الحقيقي لمحاسبته المزدوجة ، ليطرحوا جانبا **نقد العقل العملي** وليستخلصوا من **نقد العقل الخالص** الاستنتاجات المتطرفة التي يتضمنها بين طياته .

لن أتوقف عند فيخته الذي اتى انجلز بذكره . فتأثير فيخته كان على لاسال اكثر منه بكثير على ماركس . لكن فلسفته تشتمل على عنصر لم يتعرض له البتة مذهب كانط ، وكان له بالغ الاثر في المثقفين الثوريين الالمان . فلئن كان كانط فيلسوفا مسالما لم يبارح على امتداد عشرات السنوات مدينته العزيزة كونيكسبرغ، فقد كان فيخته رجل عمل وليس مجرد فيلسوف . وعنصر النشاط هذا هو الذي ضمّنه فلسفته . فقد عارض التصور القديم عن قوة خاصة تتحكم بأمر الناس بتصور جديد يجعل من الشخصية الانسانية ونشاطها المصدر الرئيسي لكل نظرية ولكل ممارسة .

لكن الفيلسوف الذي كان له اكبر الاثر على ماركس وانجلز كان هيغل الذي يقوم نظامه كله على اساس نقد مذهبي كانط وفيخته . كان هيغل ، في شبابه ، قد تحمس للثورة الفرنسية، وحين حضرته الوفاة في عام ١٨٣١ كان استاذا جامعيا وموظفا بروسياً تحظى فلسفته باستحسان السلطات .

كيف اصبحت فلسفة هيغل المعين الذي كان ماركس وانجلز ولاسال يروون منه ظمأهم الى المعارف ؟ ماذا كان في تلك الفلسفة لتجتذب لا محالة نخبة الفكر الثوري والاجتماعي ؟

كانت فلسفة كانط ، في قسماتها الاساسية ، قد تكونت قبل الثورة الفرنسية الكبرى . ويوم اندلعت شرارة تلك الثورة ، كان

كانط قد ناهز الخامسة والسبعين . ولئن احس بأثرها ، فانه لم يستخلص منها استنتاجات جذرية . بيد انه تمثل فكرة التطور فيما يتعلق بالطبيعة وبتاريخ كوكبنا ، وان يكن نظامه كله يرتد الى تفسير العالم **كما هو كائن عليه** .

وعلى العكس من ذلك ، سعى هيغل ، الذي كان قد جـــاز تقلبات الحياة الاقتصادية والسياسية في نهاية القرن الثامن‌عشر وبداية القرن التاسع عشر ، الى تفسير العالم **كما يتطور** . فلا شيء ثابت . وعقل العالم وفكرته المطلقة لا يعيشان ولا يتجليان الا في سيرورة الحركة والتطور المتصل . كل شيء يدور ، كـــل شيء يتغير ، كل شيء يندثر . والحركة المتصلة والتطور المتصل للفكرة يحددان تطور عالمنا في الميادين كافة . ولفهم الظاهرات التي تحيط بنا لا يكفي ان ندرسها كما هي موجودة ، بل ينبغي ان نفهم كيف تطورت ، لان كل ما حولنا هو نتيجة تطور سابق . بل اكثر من ذلك : فلئن بدا هذا الشيء او ذاك للوهلة الاولى في حالة سكون وجمود ، فاننا نلحظ ، عند تفحصه بانتباه ، انه يحدث في داخله حركة ، صراع ، وانه توجد فيه مؤثرات وقوى تبقي عليه في المظهر الذي نعرفه عليه ، ومؤثرات اخرى وقوى اخرى تجنح الى تغييره . في كل ظاهرة ، في كل علة ، يحـــدث صراع بين ذينك المبدئين ، الاطروحة والنقيضة . اول هذين المبدئين يثبت ويصون ، وثانيهما يهدم ويدمر . وصراع هذين المبدئين الموجود في كل ظاهرة يفضي الى شيء ما وسيط ، الى اتحادهما .

العقل والفكر والفكرة لا تبقى في نظر هيغل ساكنة ، لا تجمد في حالة واحدة ، لا تستقر في **أطروحة** . بل على العكس ، فهذه الاطروحة ، هذه الفكرة التي تعارض نفسها بنفسها تنقسم الـى فكرتين معاكستين واحدتهما للاخرى : الاثبات والنفي ، النعم واللا . ومن صراع هذين العنصرين المتعاكسين ، المتضمنين فـي **النقيضة** ، تتكون الحركة التي يسميها هيغل بالجدل للتوكيد على

عنصر **الصراع** الموجود فيها . في هذا الصراع ، في هذا الجدل ، يتوازن الضدان ويؤسس كل منهما الآخر . ويتمخض انصهار هاتين الفكرتين المتناقضتين عن فكرة جديدة : **تركيبهما**. وتنقسم هذه الفكرة الجديدة بدورها الى فكرتين متعارضتين ، فتتحول الاطروحة الى نقيضة ، وتذوب كلتاهما بدورهما في تركيب جديد .

كان هيغل يعد اذن كل ظاهرة ، كل شيء ، سيرورة ، شيئا قيد تحول دائم وتطور متصل . فكل ظاهرة ليست نتيجة تبدل سابق فحسب ، بل تحمل في ذاتها جرثومة تبدل جديد . وهي لا تتوقف ابدا عند درجة معينة . بل على العكس ، فما ان ترتفع الى درجة عليا حتى يبدأ بالنسبة اليها صراع تناقضات جديدة . وكما يقول هيغل ويحسن القول ، فان صراع التناقضات هذا هو نفسه مصدر كل تطور .

ذلكم هو كنه العنصر الثوري في فلسفة هيغل . فمع ان هيغل كان مثاليا ، ومع ان المبدأ كان بالنسبة اليه الروح لا الطبيعة ، الفكرة لا المادة ، فقد مارس تأثيرا ضخما على العلوم التاريخية والاجتماعية كافة ، وحتى على العلوم الطبيعية . وقد حث على دراسة الواقع ، ودعا الى البحث عن جميع أشكال تطور الفكرة المطلقة ؛ وكلما كانت تظاهرات هذه الفكرة متنوعة ، كانت متنوعة ايضا الظاهرات والسيرورات التي ينبغي درس تطورها .

وحتى نحسن فهم ما كان يجذب ماركس وانجلز ولاسال ، وكذلك ثوريينا الروس بيلنسكي وهرزن وباكونين وتشيرنيشفسكي ، الى تلك الفلسفة الجافة للغاية في مظهرها الخارجي ، بلغتها الضبابية ، سأقرأ لكم ما قاله عنها تشيرنيشفسكي :

«التغير الابدي للشكل ، التدمير الابدي للشكل

المتولد عن مضمون او توق معين ، بنتيجة اشتداد هذا التوق بالذات ، بنتيجة التطور الاقصى للمضمون عينه ـ ان من فهم هذا القانون الابدي والكوني الاكبر، ومن تعلم ان يطبقه على كل ظاهرة ، يلبث مطمئنا امام المصادفات التي تحتار لها ألباب الآخرين . فهو اذ يردد مع الشاعر : «لقد راهنت بكل ما لديّ على العدم ، والعالم بأسره يخصني» ، لا يتحسر على شيء مما فات أوانه ويقول : «ليكن ما سيكون ، ولكننا نحن الذين سنظفر في خاتمة المطاف» .

لن أتوقف عند الجوانب الاخرى من الفلسفة الهيغلية ، تلك الجوانب التي تبين لماذا كانت تلك الفلسفة بمثابة حافز قوي على دراسة الواقع . لكن كلما كان تلاميذ هيغل يتبحرون في دراسة الواقع على ضوء المنهج الجدلي الذي ابتكره استاذهم وبارشاده وهديه ، كان يتضح لهم العيب الاساسي في تلك الفلسفة : كونها فلسفة مثالية ، لان المبدأ المحرك ، الخالق ، في نظرها ، هو الفكرة المطلقة ، الوعي المحدد للكينونة .

كانت هذه النقطة الضعيفة في نظام هيغل تستدعي النقد . وكان من الممكن القول ان فكرته المطلقة لا تعدو ان تكون في جوهرها طبعة جديدة من الاله المسيحي القديم ، او الاله المصفى، اللامادي ، الذي خلقه فلاسفة من أمثال فولتير لانفسهم او للشعب .

وانما من وجهة النظر تلك تناول واحد من اكثر تلامذة هيغل موهبة ، ل. فيورباخ ، فلسفة معلمه . كان قد فهم حق الفهم واستوعب كل الاستيعاب الجانب الثوري من تلك الفلسفة . لكنه طرح السؤال التالي : هل يمكن لتلك الفكرة المطلقة ان تحدد حقا في تطورها الكينونة كلها ؟ على هذا السؤال ، اجاب فيورباخ

بالنفي . وقد قلب الاطروحة الاساسية لهيغل ، وأوضح ان الكينونة ، على العكس من ذلك ، هي التي تحدد الوعي ، وأنه مر زمن كانت فيه الكينونة موجودة بلا وعي ، وأن الفكر والفكرة هما نتاج تلك الكينونة بالذات . وذهب الى ان الفلسفة الهيغلية هي آخر الانظمة اللاهوتية ، لانها تحل محل الله كائنا، عنه يصدر كل شيء ، **الفكرة المطلقة** . وأوضح فيورباخ ان جميع افكارنا عن الله ومختلف الانظمة الدينية ، بما فيها المسيحية ، هي من نتاج الانسان عينه ، وأن ليس الله هو الذي يخلق الانسان ، وانما الانسان هو الذي يخلق الله على صورته . وحسبنا ان نقشع عالم الاشباح والملائكة والساحرات وسائر تظاهرات الماهية الالهية حتى يظهر العالم الانساني . وعلى هذا ، يكون الانسان المبدأ الاساسي في كل فلسفة فيورباخ . وأسمى شرائع العالم الانساني ليست شريعة الله ، وانما خير الانسان بالذات . وبعبارة اخرى ، عارض فيورباخ المبدأ اللاهوتي الالهي القديم بمبدأ جديد ، المبدأ الانثروبولوجي .

اذا ما قرأتم ناقدَينا وصحفيينا القديمين دوبروليوبوف وتشيرنيشفسكي ، ترون ان تصورهما عن العالم يقوم على اساس ذلك المبدأ الانثروبولوجي ، وأن نقطة الانطلاق بالنسبة اليهما هي الانسان بحاجاته . ولإرساء أسس المجتمع الانساني الحق ، ينبغي الاهتمام لا بالروح وحده ، وانما بالجسد ايضا ، كما ينبغي الانكباب على تلبية جميع حاجات الانسان . ينبغي ان تخلق للحياة شروط يمكن فيها للانسان ان يطور مواهبه كافة . وبفضل فيورباخ تحديدا توصلا الى تلك الاستنتاجات التي توصل اليها ايضا ماركس وانجلز وسائر المثقفين المتقدمين عصرئذ .

انها لظاهرة مثيرة للاهتمام الى اقصى درجة . حسبنا ان نقارن مؤلفات ماركس وانجلز السابقة لعام ١٨٤٥ مع مؤلفات هرزن وبيلنسكي ودوبروليوبوف وتشيرنيشفسكي ، حتى ندرك تشابه الافكار ووجهات النظر المعروضة فيها ، وهو تشابه لا يزداد

الا عمقا بقدر ما يبتعد كتابنا الروس عن هيغل ليقتربوا من فيورباخ . والحال انكم تعلمون انه لا تشيرنيشفسكي ولا دوبروليوبوف ، وكم بالاحرى هرزن ، كانوا ماركسيين او شيوعيين ، وان اعتنقوا مذهب الاشتراكية . لقد توقفوا جميعهم عند طور معين ، بمن فيهم تشيرنيشفسكي نفسه الذي توغل اكثر مما توغل الآخرون في الطريق الذي دفعت به اليه دراسة فيورباخ .

ماركس وحده هو الذي أدخل شيئا جديدا كل الجدة على فلسفة فيورباخ باستخلاصه منها استنتاجات جديدة . لكن حتى نفهم الجديد الذي أدخله ماركس على الفلسفة الالمانية ، ينبغي علينا ان نرجع الى الوراء .

حين حدثتكم عن شباب ماركس ، لفتّ أنظاركم الى واقعة صغيرة لها دلالتها . فقد أوضح ماركس في واحد من مواضيعه الانشائية في المرحلة الثانوية انه توجد ، حتى قبل ولادة كل انسان ، جملة من الشروط التي تحدد تحديدا حتميا مهنته في المستقبل . كان ماركس يعرف اذن ، وهو لا يزال على مقاعد الدراسة الثانوية ، الفكرة التي تفرض نفسها بوصفها النتيجة المنطقية لفلسفة القرن الثامن عشر المادية . الفكرة التي تقول ان الانسان نتاج البيئة والظروف ، ولهذا لا يسعه أن يكون حرا كامل الحرية في اختياره لمهنته ، ولا يمكنه ان يكون صانع سعادته . وليس في هذه الاطروحة ، كما قلت ، شيء جديد ، ليس فيها شيء يعود الى ماركس وحده دون غيره . وكل ما هنالك ان هذا الاخير صاغ صياغة مبتكرة الى حد بعيد ما كان قرأه مرارا وتكرارا في مؤلفات الفلاسفة الذين كان والده مولعا بهم . وحين دخل الى الجامعة ووجد نفسه في ذلك الوسط الفكري الجديد الذي كانت الهيمنة فيه للفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، عارض من فوره مثالية هذه الفلسفة بتصور اكثر مادية . لهذا استخلص بفائق

السرعة من الفلسفة الهيغلية جميع الاستنتاجات الجذرية التي تنطوي عليها وهلل لمؤلف فيورباخ **ماهية المسيحية** . وكان هذا الاخير قد توصل ، في نقده للمسيحية ، الى عين الاستنتاجات التي توصل اليها الماديون المتطرفون في القرن الثامن عشر ، مع فارق واحد وهو ان فيورباخ ، تلميذ هيغل ، رأى في ما لم ير فيه اولئك الماديون سوى خداع وخرافة طورا ضروريا من أطوار الحضارة الانسانية . لكن الانسان بقي لديه ، كما لدى الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، صورة مجردة الى حد بعيد .

كان يكفي المضي قدما الى الامام في تحليل الانسان والبيئة حتى يتضح أن هذا الانسان يشكل بذاته تنوعا بالغا ، وأنه يوجد في أشكال فائقة التنوع ، ويكتسي بملابس شديدة التفاوت . فملك بروسيا ورئيس اقليم الراينلاند كانا انسانين مثلما كان انسانا فلاح الموزيل وعامل المعامل اللذين كان ماركس يتعاطى وإياهما في بلاده . فقد كان لهم جميعا الاعضاء ذاتها ، والرأس ذاتها ، والسيقان ذاتها ، والاذرع ذاتها . لم يكن ثمة فارق اساسي من وجهة النظر الفيزيولوجية والتشريحية بين فلاح الموزيل والنبيل الريفي البروسي ، ولكن كان بينهما مع ذلك فارق هائل من منظور وضعهما الاجتماعي .

لكن الناس يختلفون عن بعضهم بعضا لا في المكان فحسب ، بل في الزمان ايضا . فقد كان اهل القرن السابع عشر يتميزون عن اهل القرن الثاني عشر . فمن اين جاءت تلك الاختلافات اذا كان الانسان ذاته لا يتغير ، واذا لم يكن الا نتاج الطبيعة ؟

في هذا الاتجاه تحديدا شرع ذهن ماركس بالعمل . فلا يكفي ان يقال ان الانسان نتاج البيئة ، وان البيئة تكوّن الانسان . فلتكوين أناس على ذلك القدر من الاختلاف ، لا بد ان تكون البيئة نفسها مختلفة وأن تحتوي على عناصر متناقضة . وبالفعل ، ان هذه البيئة ليست محض محتشد من الناس ، وانما هي وسط اجتماعي يرتبط الناس فيه فيما بينهم بوشائج محددة ، وينتمون

الى فئات اجتماعية مختلفة .

لهذا ما كان يمكن لماركس ان يكتفي بنقد فيورباخ للدين . فقد فسر هذا الاخير ماهية الدين بماهية الانسان ؛ لكن ما ماهيـــة الانسان بشيء مجرد ، بشيء يخص الانسان كفرد . وانما يمثل الانسان بنفسه جملة ، منظومة من علاقات اجتماعية محددة ، ولا وجود لانسان منعزل . لكن الروابط **الطبيعية** القائمة بين الناس تقل اهمية عن الروابط **الاجتماعية** التي تقوم فيما بينهم في مجرى التطور التاريخي . لهذا لم يكن الشعور الديني شيئا طبيعيا؛ وانما هو نتاج **اجتماعي** .

ترتيبا على ما تقدم ، لا يكفي القول بأن الانسان هو نقطـــة الانطلاق لفلسفة جديدة . بل ينبغي ان يضاف القول ان ذلـــك الانسان **الاجتماعي** ، الذي هو نتاج تطور اجتماعـــي محدد ، يتكون ويتطور على أرضية مجتمع محدد ، متمايز تمايزا محددا . وفي حال تعميق التحليل ، نلاحظ ان تمايز الوسط الاجتماعي الى طبقات متباينة ليس شيئا قبليا ، طبيعيا ، وانما نتاج تطـــور تاريخي طويل . ولو درسنا الكيفية التي تم بها ذلـــك التطور ، لرأينا انه كان على الدوام نتيجة صراع تناقضات وتعارضات تبرز الى حيز الوجود في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي .

لم يتوقف ماركس عند هذا الحد ؛ بل أخضع لنقده سائـر أطروحات فيورباخ الفلسفية . وادخل على الفلسفة النظرية ، التأملية المحض ، عنصرا جديدا : النشاط العملي الثوري القائم على اساس نقد الواقع .

كان فيورباخ ، نظير الماديين الفرنسيين ، يقول ان البشر نتاج الظروف والتربية ، نتاج رد فعل الكينونة على الوعي . وكان يظهر للعيان على هذا النحو ان الانسان ، بما هو عليه من حال ، برأسه وذراعيه وساقيه ، ليس ، وان تميز عن سائر العالم الحيواني ، سوى جهاز حسي محدد تعرض لتأثير الطبيعة المحيطة . فأفكاره

جميعا وخطرات ذهنه كافة هي انعكاس تلك الطبيعة . وعليه ، ما الانسان في نظر فيورباخ الا عنصر سلبي يسجل بكل دعة جميع الانطباعات التي يتلقاها من الطبيعة .

وقد عارض ماركس هذا التوكيد بتوكيد آخر : فكل ما يتم في الانسان ، كل تبدلات الانسان بالذات ، ليست نتيجة فعل الطبيعة فيه فحسب ، وانما ايضا ، والى حد بعيد ، نتيجة فعله هو في الطبيعة . ان كل تطور الانسانية انما يكمن في ان الحيوان البدائي ، الانساني الشكل ، لا يكتفي ، في صراعه المتصل من اجل البقاء ، بأن يتعرض سلبا لتأثير الطبيعة ، بل يفعل هو نفسه في الطبيعة ، وبتحويله اياها يحول شروط وجوده ، ويحول **ذاته بذاته** في الوقت نفسه .

على هذا النحو أدخل ماركس على فلسفة فيورباخ السلبية العنصر الثوري ، عنصر العمل والنشاط . وقد قال ، خلافا لفيورباخ ، ان دور الفلسفة ليس **تفسير** هذا العالم فحسب ، بل **تحويله** ايضا . فالنظرية تكتمل بالممارسة ؛ **ونقد** الواقع والعالم المحيط **ونفيهما** يكتملان بالعمل **الايجابي** ، بالنشاط العملي . على هذا النحو أدخل ماركس على الفلسفة المادية المبدأ **الثوري** ؛ على هذا النحو حوّل فلسفة فيورباخ **التأملية** الى فلسفة **للعمل والنشاط** . فعلى الانسان ان يثبت بممارسته كلها ، بعمله كله ، صحة فكره وبرنامجه . وكلما أحسن تطبيق هذا البرنامج في الممارسة ، وكلما جسّده في الواقع على نحو أسرع ، أثبت على نحو أفضل ان هذا الواقع ذاته يحتوي من الاساس على جميع العناصر اللازمة لانجاز المهمة التي اخذها على عاتقه ولتحقيق البرنامج الذي وضعه .

لقد صاغ ماركس في وقت مبكر للغاية نقد فيورباخ هذا في خطوطه الكبرى . ولو تتبعنا بعناية وانتباه مسار فكره ، سهل علينا ان نفهم بأي طريقة وصل الى فكرته الاساسية التي قاده انشاؤها الى الشيوعية العلمية .

كان ماركس ينتمي بأصوله الى الوسط الفكري الالماني ، ومع المثقفين خاض النقاش وأدار دفته ليقنعهم بتهافت مبادئهم القديمة .

قال : اننا جميعا متفقون على الاقرار بأن المانيا الراهنة ، بروسيا التي تعسر فيها الحياة للغاية والتي لا وجود فيها لا لحرية الفكر ولا لحرية التعليم ، متفقون على الاقرار بأن ذلك العالم كله شيء قليل الاغراء والجاذبية . ولا يساورنا ريب في وجوب تغييره اذا كنا لا نريد ان يغرق الشعب الالماني نهائيا في حمأة ذلك المستنقع الكريه .

لكن ــ يتساءل ماركس ــ بأي صورة يمكن تغييره ؟ انه لن يتغير ما لم توجد في المجتمع الالماني مجموعة ، فئة من الناس المعنيين ، بحكم شروط حياتهم بالذات ، بتغييره .

ويحلل ماركس على التوالي جميع الفئات الموجودة في المجتمع الالماني : النبالة ، سلك الموظفين ، البورجوازية . ويصل الى الاستنتاج بأن هذه الاخيرة ، بعكس البورجوازية الفرنسية التي لعبت دورا ثوريا مرموقا ، ليست في حالة تؤهلها للقيام بعبء دور الطبقة المحررة القادرة على تغيير النظام الاجتماعي بأسره .

لكن أي طبقة اخرى تستطيع القيام ، والحالة هذه ، بعبء ذلك الدور ؟ هنا يخلص ماركس ، الذي كان يدرس بعناية يومئذ تاريخ انكلترا وفرنسا ووضعهما ، الى الاستنتاج بأن تلك الطبقة لا يمكن ان تكون غير **البروليتاريا** .

هكذا طرح ماركس منذ ١٨٤٤ هذه الاطروحة الاساسية : ان الطبقة التي تستطيع ويتوجب عليها ان تتولى مهمة تحرير الشعب الالماني قاطبة وتحويل النظام الاجتماعي لا يمكن ان تكون غير البروليتاريا . لماذا ؟ لانها الطبقة التي يتجسد في شروط حياتها كل شر المجتمع البورجوازي المعاصر . فليس ثمة من طبقة

اخرى تحتل في السلم الاجتماعي مرتبة ادنى من تلك التي تحتلها البروليتاريا ، وليس ثمة من طبقة اخرى تتحمل مثلها وطأة كل المجتمع الباقي . وفي حين يقوم وجود سائر الطبقات الاخرى على الملكية الفردية ، تجد البروليتاريا نفسها محرومة من تلك الملكية ولا مصلحة لها البتة في بقاء المجتمع القائم . انها لا تفتقر الا الى وعي رسالتها ، اي الى العلم ، الى الفلسفة . ولسوف تغدو مرتكز الحركة التحريرية قاطبة ومحورها اذا تشبعت بذلك الوعي ، بتلك الفلسفة ، واذا فهمت جميع شروط تحررها ، واذا استوعبت الدور العظيم الذي يؤول اليها .

تلك هي وجهة نظر ماركس الاساسية ، وجهة النظر التي كان هو اول القائلين بها .

كان الطوباويون الكبار : سان سيمون وفورييه وأوين ، وعلى الاخص هذا الاخير ، قد وجهوا اهتمامهم آنفا الى «الطبقة الاكثر تعدادا والاكثر حرمانا» ، الى البروليتاريين ، لكنهم انطلقوا جميعهم من فكرة ان البروليتاريا ليست الا الطبقة الاكثر ادقاعا وبؤسا ، والاشد نصبا وتألما ، وانه من الواجب بالتالي الاهتمام بوضعها ، وأن هذه المهمة تقع على عاتق الطبقات العليا ، الطبقات المستنيرة . في بؤس البروليتاريا لم يروا غير البؤس ، ولم يلحظوا العامل الثوري الذي ينطوي عليه ذلك البؤس ، نتاج تفسخ المجتمع البورجوازي .

كان ماركس اول من اظهر ان البروليتاريا ليست طبقة متألمة فحسب ، بل هي ايضا مصارع فعال ضد المجتمع البورجوازي ، وانها الطبقة التي تتحول حتما ، بحكم شروط وجودها ، الى الطبقة الثورية الوحيدة في المجتمع البورجوازي .

هذه الفكرة ، التي كان قد عرضها لاول مرة في عام ١٨٤٤ ، عاد الى تطويرها في مؤلّف كتبه بالتعاون مع انجلز ، وهذا المؤلّف المعنون باسم **الاسرة المقدسة** ، مكرس لرفيقيه القديمين في السلاح الاخوين باور . ولقد شاخ هذا المؤلّف اليوم (ظهر

في عام ١٨٤٥) ، لكنه لم يشخ اكثر بكثير مما شاخت بعض مؤلفات بليخانوف او حتى لينين . لنأخذ كراسة ما لبليخانوف ظهرت في عام ١٨٨٣ ، او حتى للينين في عام ١٩٠٣ ، ولسوف نرى أن القارىء الشاب لن يفقه منها شيئا البتة تقريبا اذا لم ترفق بشرح وتعليق . ان الشيوخ من أمثالي يتذكرون تماما فترة ١٨٩٠ ، ويعرفون عن ظهر قلب جميع ممثلي التيارات الادبية والثورية ، حتى أقلهم شأنا ، في تلك الحقبة . لكنكم ، أنتم ، تجهلون او تكادون تلك الاسماء كلها ؛ والنضال الذي خاضه الماركسيون الاوائل مجهول منكم تماما ، وانكم لتقرؤون بلامبالاة ، بل بسأم احيانا ، الصفحات التي تهز أوتارنا العميقة .

وانما بهذا المعنى شاخ كتاب **الاسرة المقدسة** الذي كتبه ماركس بصورة رئيسية . لكنه كتاب يتفجر حيوية بالنسبة الى كل من يملك فكرة واضحة عن المانيا في الفترة ما بين ١٨٤٠ و١٨٥٠ وعما دار فيها من صراع مستعر بين مختلف التيارات الفكرية والاجتماعية . وفي ذلك الكتاب يسخر ماركس من جميع محاولات المثقفين الالمان للاشاحة عن البروليتاريا او للاكتفاء بجمعيات البر والاحسان الرامية الى اسعاد تلك البروليتاريا عينها . ويشرح للمثقفين الاهمية الثورية للبروليتاريا التي اظهرت للعيان قبل بضعة اشهر ، في شخص الحاكة السيليزيين ، انها لا تتراجع امام شهر راية العصيان ذودا عن مصالحها الاساسية .

في ذلك المؤلف مهد ماركس السبيل للتطور اللاحق لفلسفته الجديدة . فالبروليتاريا طبقة على حدة ، لان المجتمع الذي تحيا فيه مجتمع طبقات . والبروليتاريا تقابلها البورجوازية ؛ فالعامل يستغله الرأسمالي . وهنا يطرح سؤال جديد نفسه . من اين يأتي الرأسماليون ؟ ما الاسباب التي تمخض عنها ذلك الاستغلال للعمل الاجير من قبل الرأسمال ؟ كانت هناك حاجة الى دراسة هذا المجتمع والقوانين الاساسية لوجوده وتطوره . ومن هذه الزاوية ايضا خلف ماركس بعيدا وراءه فيورباخ الذي ما كان

ابدى اهتماما يذكر بتطور العلاقات الاجتماعية والذي بقي ، في هذا المضمار ، دون مستوى معلمه هيغل بكثير ، اذ ان هذا الاخير كان قد درس بعناية قوانين تطور المجتمع البورجوازي ، وان من وجهة نظر مثالية .

في ذلك الكتاب اشار ماركس الى انه من المستحيل ان يفهم المرء شيئا من تاريخ عصره اذا لم يكن يعرف حالة الصناعة ، والشروط المباشرة للانتاج ، والشروط المادية لحياة **الانسان** ، والعلاقات التي تقوم بين البشر في سيرورة تلبية حاجاتهـــم المادية .

وقد انكب ماركس عندئذ على دراسة تلك المسألة بشغف . وسوف نرى فيما بعد ما سيتوصل اليه من نتائج إبان السنتين التاليتين وقبل ثورة ١٨٤٨ . فقد انصرف الى دراسة الاقتصاد السياسي حتى يفهم فهما افضل أوالية العلاقات الاقتصادية في المجتمع المعاصر .

لكن ماركس لم يكن مجرد فيلسوف يرغب في تفسير العالم، بل كان ثوريا يبغي تغييره . وكان العمل النظري عنـــده يواكب **العمل العملي** .

في المرة القادمة سأعرض عليكم كيف أسس مع انجلز خلال سنتين ونصف سنة ، وعبر صراع فئوي شرس ، منظمة **رابطة الشيوعيين** التي كلفته بكتابة **البيان الشيوعي** .

المحاضرة الرابعة

[نقد وجهات النظر الشائعة عن تاريخ «رابطة الشيوعيين» ـ ماركس منظما ـ الصراع ضد فيتلنغ ـ تأسيس «رابطة الشيوعيين» ـ «البيان الشيوعي» ـ المساجلة مع برودون] .

صاغ ماركس ، كما رأينا ، وجهة نظر جديدة كل الجدة في تاريخ الفكر الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر . وقد استفاد في ذلك من كل علم عصره ومن كل فلسفته . أما عن تأثير الفكر الاشتراكي عليه فلم أتحدث البتة تقريبا ، وهذا لان ذلك التأثير لم يبدأ الا في زمن لاحق . وسوف أعالج اليوم مسألة مغايرة تماما . لقد وعدتكم في المرة الاخيرة بأن أعرض لكم مساهمة ماركس في انشاء **رابطة الشيوعيين** . وكنت قد

وعدتكم سابقا بعرض سيرة حياة ماركس وانجلز بالاعتماد على منهجهما بالذات . وهأنذا أجد نفسي مكرها على ان ألاحظ ، بعد تمحيص جميع المعطيات التي تتضمنها كتابات ماركس وانجلز عن تاريخ رابطة الشيوعيين ، أن هذه المعطيات لا تصمد لنقد جاد . لم يتطرق ماركس الى ذلك التاريخ الا مرة واحدة في حياته ، وذلك في نص لم تكتب له الشهرة وهو **السيد فوغت** الصادر في عام ١٨٦٠ . وقد ارتكب ماركس فيه جملة من الاخطاء . بيد ان نبذة كتبها انجلز في عام ١٨٨٥ هي التي تعتمد عادة للاستعلام عن تاريخ **رابطة الشوعيين** . وإليكم بصورة تقريبية كيف يصور انجلز الامر :

كان ، يا ما كان ، فيلسوفان وسياسيان المانيان ، ماركس وانجلز ، وكانا قد اضطرا الى مبارحة المانيا . عاشا في فرنسا ، وزارا بلجيكا ، وكتبا مؤلفات ذات طابع علمي جذبت انتباه المثقفين ، ووقعت بعد ذلك بين أيدي العمال . وذات يوم من الايام توجه العمال الى ذينك العالمين اللذين كانا ملازمين بكل طمأنينة جدران مكتبهما ، متحاشيين النشاط العملي الفظ ، منتظرين بإباء وأنفة في حجرتهما قدوم العمال للقائهما . والحال ان تلك الساعة المباركة أزفت : فقد قدم العمال ودعوا ماركس وانجلز الى اتحادهم . وأعلن ماركس وانجلز انهما لن يدخلا اليه ما لم يتم اولا قبول برنامجهما . فوافق العمال ، ونظموا **رابطة الشيوعيين** ، وكلفوا للحال ماركس وانجلز بكتابة **بيان الحزب الشيوعي** . كان اولئك العمال ينتمون الى «**اتحاد العادلين**» الذي حدثتكم عنه في محاضرتي الاولى عن تاريخ الحركة العمالية في فرنسا وانكلترا . وكما قلت لكم ، تأسست تلك المنظمة في باريس وعانت من محنة شديدة بعد محاولة البلانكيين الانقلابية الفاشلة في ١٢ ايار ١٨٣٩ . فبعد تلك الهزيمة شد اعضاؤها الرحال الى لندن . وكان في عدادهم شابر الذي نظم في شباط ١٨٤٠ **جمعية التثقيف العمالي** .

حتى تكون لديكم فكرة أوضح عن الكيفية التي يسرد بها ذلك التاريخ عادة ، سأقرأ عليكم مقطعا من كتيب ستكلوف عن ماركس :

«اثناء اقامة ماركس في باريس ، كان على صلات شخصية بقادة **اتحاد العادلين** المؤلف من مهاجرين سياسيين ومن حرفيين ، لكنه لم ينتسب اليه لان برنامج هذا الاتحاد ، وهو برنامج مشبع بالروح المثالية والتهييجية ، ما كان من الممكن ان يلقى في نفسه قبولا . لكن شيئا فشيئا حدث في **الاتحاد** تطور قرّب الشقة بينه وبين ماركس وانجلز اللذين كانا يؤثران بأحاديثهما ورسائلهما ، وعن طريق الصحافة ايضا ، على الآراء السياسية لاعضائه . وفي حالات نادرة كان الصديقان ينقلان آراءهما الى مراسليهما بواسطة نشرات مطبوعة على الحجر . وبعد القطيعة مع المهيج فيتلنغ و«النقد الصارم للمنظّرين المتقلبين» ، تهيأ الجو لدخول ماركس وانجلز الى «**الرابطة**» . وحضر المؤتمر الاول **للرابطة** ، التي تسمت باسم **رابطة الشيوعيين** ، انجلز وفلهلم وولف ؛ وانعقد المؤتمر الثاني في تشرين الثاني ١٨٤٧ بمشاركة ماركس شخصيا . وبعد الاستماع الى الخطاب الذي عرض فيه ماركس فلسفته الاشتراكية الجديدة، كلف المؤتمر هذا الاخير بأن يضع مع انجلز برنامج **الرابطة** . وعلى هذا النحو رأى النور **البيان الشيوعي** الشهير» .

لا يفعل ستكلوف شيئا سوى ترداد ما كتبه مهرينغ الذي يردد هو نفسه ما يرويه لنا انجلز . والحال ، كيف لنا الا نصدق هذا الاخير ؟ وبالفعل ، هل هناك لرواية تاريخ مشروع ما او

قضية ما رواية افضل من ذاك الذي شارك بنفسه في تنظيمه ؟ بيد انه يتوجب علينا مع ذلك ان نخضع للتمحيص النقدي كلمات انجلز ، وكلمات أي مؤرخ آخر ، ولاسيما انه حرر نبذته بعد زهاء اربعين عاما من وقوع الاحداث التي يصفها فيها . ففي مثل هذا الردح الطويل من الزمن يكون من السهل نسيان شيء ما ، ولاسيما اذا كتب المرء ما كتبه في شروط وحالة معنوية مختلفة كل الاختلاف .

ان لدينا وقائع اخرى لا تتفق البتة وتلك الرواية . فماركس وانجلز ما كانا بمنظّرين مجردين كما يصورهما ستكلوف . بل على العكس ، فما ان فهم ماركس ان جميع اولئك الذين يقولون بضرورة تحويل النظام الاجتماعي القائم تحويلا جذريا لا يمكنهم الاعتماد الا على الطبقة العاملة ، على البروليتاريا التي تجد في وجودها بالذات جميع حوافز كفاحها ضد ذلك النظام ، حتى شق طريقه الى الوسط العمالي وسعى مع صديقه الى دخول جميع الاماكن وجميع المنظمات التي كان اولئك العمال يتعرضون فيها لمؤثرات مغايرة . والحال ان أشباه تلك المنظمات كانت قائمة . فلنتفحصها .

في سردي لتاريخ الحركة العمالية ، توقفت عند عام ١٨٤٠ تقريبا . فبعد هزيمة ايار ١٨٣٩ كف **اتحاد العادلين** عن الوجود كتنظيم مركزي . وعلى كل حال ، وابتداء من ١٨٤٠ ، لا نعود نعثر على أثر اوجوده او لنشاطه كتنظيم مركزي . وانما كل ما تبقى منه حلقات منعزلة كان ينظمها الاعضاء القدامى في **اتحاد العادلين** . وقد تكلمنا عن واحدة من تلك الحلقات رأت النور في لندن .

أما الاعضاء الآخرون في **اتحاد العادلين** فقد لاذوا بالفرار الى سويسرا ، وكان أعظمهم نفوذا وتأثيرا فلهلم فيتلنغ .

كان فيتلنغ ، الخياط مهنة واحد اوائل الحرفيين الالمان

الثوريين ، يتنقل شأن الكثير من الحرفيين في ذلك الزمن من مدينة الى اخرى ، وكان قد قدم الى باريس للمرة الاولى في عام ١٨٣٥ ، بيد انه لم يمكث فيها لفترة طويلة من الزمن الا بعد ان قدم اليها للمرة الثانية في عام ١٨٣٧ . وقد انتسب فيها الى **اتحاد العادلين** ودرس نظريات لامينه ، ممثل الاشتراكية المسيحية ، وسان سيمون وفورييه . وفي باريس ايضا التقى ببلانكي واتباعه وتبادل وإياهم أطراف الحديث . وفي أواخر عام ١٨٣٨ كتب ، بناء على طلب من رفاقه ، كراسة **الانسانية كما هي وكما ينبغي ان تكون** ، وقد ذاد في هذه الكراسة عن افكار الشيوعية .

بعد محاولة فاشلة للدعوة في سويسرا الفرنسية ، ثم في سويسرا الالمانية ، بادر مع بعض رفاق له الى تنظيم حلقات في اوساط العمال والمهاجرين الالمان . وفي ١٨٤٢ نشر مؤلفه الرئيسي **ضمانات التآلف والحرية** الذي عرض فيه بإسهاب وجهات النظر التي سبق له التعبير عنها في عام ١٨٣٨ .

لن أعرض عليكم تفاصيل وجهات النظر تلك . انما كان فيتلنغ يتميز عن سائر طوباويي عصره بكونه ما كان يؤمن (تحت تأثير بلانكي جزئيا) بامكانية الوصول الى الشيوعية بالاقناع . والمجتمع الجديد الذي وضع مخططه في جميع تفاصيله لا يمكن ان يتحقق بغير العنف . وكلما تم القضاء على المجتمع القائم بسرعة اكبر ، تحرر بسرعة اكبر ايضا الشعب . وخير وسيلة لذلك هي دفع الفوضى والاختلال الاجتماعي القائم الى اقصى حد ممكن . فكلما تردت الاحوال ، تعاظمت الآمال . وكان أضمن العناصر القادرة على الاطاحة بذلك المجتمع وأكثرها ثورية في نظر فيتلنغ البروليتاريا المتشردة ، اللومبن ــ بروليتاريا ، بله بروليتاريا اللصوص وقطاع الطرق .

في سويسرا التقى باكونين ــ وكان يعتنق بعضا من الافكار

الواردة أعلاه ـ بفيتلنغ وأطلعه على نظرياته ، وحينما اعتقل فيتلنغ في ربيع ١٨٤٣ في زوريخ وفتح ضده وضد أتباعه تحقيق قضائي ، وجد باكونين نفسه متورطا في القضية ، فاضطر الى المهاجرة .

بعد ان امضى فيتلنغ مدة عقوبته ، أعيد في ايار ١٨٤٤ الى المانيا . وبعد طول عناء أفلح في مغادرة هامبورغ الى لندن حيث استقبل بحفاوة عظيمة .

ونظم على شرفه اجتماع حاشد حضره، علاوة على الاشتراكيين والميثاقيين الانكليز ، المهاجرون الفرنسيون والالمان . كان ذلك الاجتماع اول اجتماع أممي كبير في لندن . وقد اتاح لشابر الفرصة كي ينظم ، في تشرين الاول ١٨٤٤ ، جمعية أممية تسمت باسم **جمعية الاصدقاء الديموقراطيين للشعوب كافة** . اما الهدف الذي وضعته نصب عينيها فكان تقريب الشقة بين الثوريين من جميع القوميات ، وتمتين روابط الاخاء بين مختلف الشعوب ، وانتزاع الحقوق الاجتماعية والسياسية . وقد قادها شابر وأصدقاؤه الاقربون .

كان فيتلنغ ، الذي مكث في لندن قرابة عام ونصف عام ، يتمتع في البداية بنفوذ واسع في الجمعية العمالية اللندنية التي كانت تدور فيها مناقشات حامية الوطيس حول مختلف المواضيع المرتبطة بـ «الساعة الراهنة» ، لكنه سرعان ما اصطدم بمعارضة قوية . فقد كان رفاقه القدامى من أمثال شابر وباور ومول قد تآلفوا ، أثناء فراقهم ، مع الحركة العمالية الانكليزية ووجدت مذاهب اوين طريقها الى عقولهم .

لم تكن البروليتاريا ، كما راينا ، طبقة خاصة وذات مصالح خاصة في نظر فيتلنغ . لم تكن سوى شطر من السكان الفقراء، المضطهَدين ، وكان العنصر الاكثر ثورية بين هذه العناصر الفقيرة

اللومبن ــ بروليتاريا (١) . كان فيتلنغ يزعم ان اللصوص وقطاع الطرق يمثلون واحدا من العناصر الاكثر موثوقية في الكفاح ضد المجتمع القائم . ولم يكن يعزو اي اهمية للدعاية . وكان يتصور مجتمع الغد في شكل مجتمع شيوعي تتولى قيادته حفنة قليلة من حكماء الناس . وكان يرى انه من الضروري ، كي يجتذب الجماهير اليه ، ان يستغل الشعور الديني : فجعل من المسيح رائدا للشيوعية ، التي صورها مسيحية مطهرة من كل الشوائب التي شابتها على مر الاجيال .

وحتى نحسن فهم الخلافات التي قامت فيما بعد بينه وبين ماركس وانجلز ، ينبغي ان نتذكر ان فيتلنغ كان عاملا موهوبا جدا ، ثقف نفسه بنفسه ، وكان ذا موهبة ادبية مرموقة ، لكنه كان يشكو من جميع عيوب العصاميين من الناس . وعديدون هم العصاميون في روسيا من أشباه فيتلنغ ، ولا شك في انكم قابلتم منهم الكثيرين .

ان العصامي يتدرب ، بوجه عام ، على استخلاص شيء ما بالغ الجدة من تلافيف دماغه ، يبتكر جهازا ما ينم عن براعة عظيمة ، لكن يتضح عند التجربة انه انفق طاقة وزمنا هائلين كيلا يكتشف في خاتمة المطاف سوى اميركا . وقد يحدث له ان يبحث عن مبدأ دائم ما، ان يبتكر وسيلة لاسعاد الانسان او لتحويله الى عالم بمثل لمح البصر .

والحال ان فيتلنغ كان ينتمي الى تلك الفئة من العصاميين . فقد كان يريد ان يكتشف وسيلة تسمح للبشر بأن يتمثلوا بصورة شبه فورية أي علم كان . وكان يريد ابتكار لغة عالمية . ومن الوقائع التي لها دلالتها ان عصاميا آخر وعاملا ، وهو برودون ، قد شرع بدوره بتنفيذ تلك المهمة . ويصعب احيانا ان نميز ما كان

---

١ ــ البروليتاريا الدون او البروليتاريا الرثة . «م»

فيتلنغ يحبذه ويقدمه في المعزة : اشيوعيته ام لغته العالمية . كان يعد نفسه نبيا حقيقيا ، فما كان يطيق نقدا ، وكان يضمر شكا وريبة تجاه الناس المتعلمين بوجه خاص لانهم لم يحملوا على محمل الجد فكرته الراسخة عن لغة عالمية .

والحال ان فيتلنغ كان في عام ١٨٤٤ واحدا من اشهر الناس واكثرهم شعبية لا في اوساط العمال فحسب ، بل في اوساط المثقفين الالمان ايضا . وقد ترك لنا الشاعر الشهير هايني وصفا بليغ الدلالة للقائه بالخياط الشهير :

«كان اكثر ما جرح كبريائي عدم تهذيب ذلك الغلام تجاهي اثناء محادثتنا . فقد بقي معتمرا قبعته ، وفيما لبثت واقفا جلس على مقعد ورفع ركبته اليمنى الى علو ذقنه ؛ وما توقف عن حك ركبته تلك بيده الطليقة . وقد خيل الي في البداية أن ذلك الوضع اللامحتشم عادة اكتسبها اثناء مزاولته لمهنته كخياط ، لكنه سرعان ما بدد وهمي . فحين سألته لماذا لا يكف عن حك ركبته ، أجابني بلهجة لاأبالية ، وكأن الأمر في منتهى الطبيعية ، انه في مختلف السجون الالمانية التي سجن فيها كان يوضع في الاغلال ؛ لكن نظرا الى ان القيد الحديدي الذي كان يضرب حول ركبته كان في الكثير من الاحيان أضيق مما ينبغي ، فقد أورثه أكلاناً يرغمه على حك ركبته.. وانني لأقر بأنني تراجعت بضع خطوات الى الوراء حين سرد ذلك الخياط على مسامعي ، وهو يرفع الكلفة فيما بيننا على ذلك النحو المنفر ، أشباه تلك القصص عن القيود في السجون ... الا ما أغربها من نقائض في قلب الانسان ! فأنا الذي قبلت ذات يوم بكل خشوع

في مونستر ذخيرة الخياط حنا اللايدني (٢) ، والاغلال التي حملها ، والكلابات التي عذب بها ، انا الـــذي تأججت حماسة لخياط ميت ، أحسست بالمقابـــل باشمئزاز لا دفع له من ذلك الخياط الحي ، من ذلك الرجل الذي كان مع ذلك رسولا وشهيـــدا لنفس القضية التي قاسى من اجلها العذاب حنا اللايدنـــي الماجد» .

وبالرغم من ان هذا الوصف لا يشرف هايني كثيرا ، فانه يظهر للعيان أي انطباع عميق خلفه في ذلك الشاعر الذي كان يعـــزه ويتزلف اليه عدد لا حصر له من المعجبين . ويبدو هايني هنـــا وكأنه رب الفكر والفن الكبير الذي ينظر بفضول ، وان بقدر من الاشمئزاز، الى ذلك النموذج من المكافحين الذي لا عهد له بعد . وبذلك الفضول الباطل عينه كان شعراؤنا القدامى يقلبون النظر في الانسان البلشفي . وعلى العكس من ذلك، كان مثقف كماركس يسلك غير ذلك المسلك حيال فيتلنغ . ففي نظره كان فيتلنـــغ الناطق الموهوب بلسان صبوات تلك البروليتاريا عينها التي قام بصياغة رسالتها التاريخية . اليكم ما كتبه عن فيتلنغ قبل ان يتعرف اليه :

«ما المؤلّف الذي تستطيع البورجوازية [الالمانية] ، بمن فيها فلاسفتها وأدباؤها ، أن تعارض به كتـــاب فيتلنغ **ضمانات التآلف والحرية** بصدد مسألة انعتاقها السياسي ؟ ألا فلنقارن بين التفاهة الجافة والرعديدة

---

٢ ــ حنا بوكلز الملقب باللايدني : زعيم اللامعمدانيين الالمان في مونستر ، ولد في لايدن وقضى تحت وطأة عذابات رهيبة (١٥٠٩ ــ ١٥٣٦) . «م»

للادب السياسي الالماني وبيّن تلك البداية الباهـــرة للعمال الالمان ، لنقارن بين هذه الجزمة التي بطـــول سبعة فراسخ (٣) للبروليتاريا الطفلة وبين النعـــال الضيقة للبورجوازية ، فنكشف في البروليتاريا التـي تنوء بآلامها جبار الغد بجثته الهائلة» .

كان من المحتم بالطبع أن يسعى كل من ماركس وانجلز الـى التعرف الى فيتلنغ . وكان الصديقان ، كما رأينا ، قد تعرفـا اثناء اقامتهما القصيرة في انكلترا في عام ١٨٤٥ الـــى ميثاقيين انكليز والى المهاجرين الالمان . فهل التقيا بفيتلنغ الذي كان يعيش آنئذ في لندن ؟ هذا ما لا يمكن الجزم به . ولم تقم بينهما وبينه علاقات وثيقة الا في مستهل ١٨٤٦ حين قدم فيتلنغ الى بروكسيل حيث كان المقام قد استقر بماركس منذ عام ١٨٤٥ على اثر ابعاده من فرنسا .

كان ماركس قد غطس منذ ذلك الحين في العمل التنظيمي ، وكانت بروكسيل تقدم تسهيلات كبيرة من هذه الزاوية . فقـد كانت بلجيكا أشبه بمحطة وسيطة بين فرنسا والمانيا . وكـــان العمال والمثقفون الالمان المتوجهون الى باريس يمضون عادة بضعة ايام في بروكسيل ، ومن هناك كان الادب اللامشروع يسرب الى جميع انحاء المانيا . وكان بين العمال الذين اختاروا الاقامـــة المؤقتة في بروكسيل عدد لا يستهـــان به من اصحاب المواهب الاكيدة .

لهذا سرعان ما طرح ماركس فكـــرة دعوة مؤتمر لجميـــع

---

٣ ـ تعبير مجازي من قصص الاطفال التي يدور موضوعها في الغالب عن العمالقة والاقزام . «م»

الشيوعيين بغية انشاء اول تنظيم شيوعي عام . وكان من المفروض ان ينعقد ذلك المؤتمر في فيرفييه ، وهي مدينة تقع على الحدود الالمانية ، بحيث يسهل على الشيوعيين الالمان الحضور اليها . وما امكنني ان اتأكد بشكل قاطع مما اذا كان ذلك المؤتمر قد انعقد فعلا ، لكن جميع الاستعدادات له كانت قد تمت على يدي ماركس قبل فترة طويلة من قدوم مندوبي **اتحاد العادلين** من لندن لدعوته الى الانتساب اليه .

صحيح ان ماركس وانجلز كانا يريان انه من الاهمية بمكان الوصول الى الحلقات الواقعة تحت نفوذ فيتلنغ، ولهذا بذلا جهودا كثيرة للاتفاق معها على برنامج اساسي مشترك. بيد ان محاولاتهما لم تتمخض الا عن قطيعة . وقد روى لنا قصة تلك القطيعة واحد من مواطنينا ، وكان قد توقف في بروكسيل يومئذ في طريقه الى فرنسا . اقصد به الناقد الروسي ب. انينكوف الذي كان لحين من الزمن من المعجبين بماركس ، قبل ان يقلع بعد ذلك عن اعتناق قضية الثورة .

لقد ترك لنا وصفا مثيرا للاهتمام عن اقامته في بروكسيل في ربيع ١٨٤٦ ، وصفا ينطوي على قدر لا بأس به من الاكاذيب ، ولكن على قسط من الحقيقة ايضا. وقد ترك لنا فيما ترك تقريرا عن جلسة دار فيها نقاش حاد بين ماركس وفيتلنغ .

ضرب ماركس بقبضته على الطاولة وصاح بفيتلنغ : «الجهل لم يساعد احدا قط وما أجدى نفعا قط» . وكلمات ماركس هذه تبدو مشاكلة للواقع . وبالفعل ، كان فيتلنغ يعارض ، شأن باكونين ، العمل الدعائي التحضيري بحجة ان الفقراء يقفون على الدوام على أهبة الثورة ، وان هذه الثورة يمكن بالتالي ان تتم في اي لحظة شرط ان يتوفر لها قادة يملكون العزم والتصميم .

وبموجب فحوى رسالة لفيتلنغ نفسه نادى ماركس في ذلك الاجتماع بضرورة تطهير صفوف الشيوعيين ونقد جميع المنظّرين المتقلبين ؛ وقد اعلن وجوب نفض اليد من كل اشتراكية تعتمد

على طيب الارادة لا غير ، وصرح بأنه من الضروري ان تسبق تحقيق الشيوعية حقبة تمسك البورجوازية اثناءها بزمام السلطة .

هكذا نرى ان الخلافات في وجهات النظر بين ماركس وانجلز من جهة وبين فيتلنغ من الجهة الثانية كانت مماثلة تقريبا للخلافات التي برزت في صفوف الثوريين الروس بعد اربعين عاما.

في ايار ١٨٤٦ وقعت القطيعة النهائية . وعلى الاثر سافر فيتلنغ الى لندن ، ومنها الى اميركا التي اقام فيها الى حين اندلاع ثورة ١٨٤٨ .

تابع ماركس وانجلز ، بمساعدة رفاق آخرين وطدا الاواصر معهم عصرئذ ، عملهما التنظيمي . وفي بروكسيل انشآ **جمعية التثقيف العمالي** التي القى فيها ماركس على العمال محاضرات في الاقتصاد السياسي . وكان في بروكسيل ، علاوة على عدد معين من المثقفين الذين كان من أبرزهم ف. وولف (الذي أهداه ماركس فيما بعد الكتاب الاول من **الرأسمال**) وويدماير ، عمال من أمثال اسطفان بورن وفالو وسيلر وآخرون .

سعى ماركس وانجلز ، بالاعتماد على ذلك التنظيم وبمساعدة من رجل من رفاقهما من بروكسيل ، الى عقد الاواصر مع حلقات المانيا ولندن وباريس وسويسرا . وروبدا رويدا ، راح يتزايد عدد أتباع ماركس وانجلز . ووضع ماركس يومئذ الخطة التالية بغية تجميع العناصر الشيوعية قاطبة . فقد فكر بتحويل ذلك التنظيم القومي الالماني الصرف الى تنظيم اممي . وكان لا بد في البداية من ان تنشأ في بروكسيل وباريس ولندن مجموعة او نواة من الشيوعيين المتفاهمين فيما بينهم أكمل التفاهم . ثم كان على تلك المجموعات ان تعين لجانا مكلفة بعقد الصلات مع المنظمات الشيوعية الاخرى . وعلى هذا النحو تكون قد قامت روابط أوثق مع الاقطار الاخرى ، ويكون قد مهد السبيل امام اجتماع أممي

لتلك اللجان . وبناء على اقتراح ماركس ، سميت اللجان الاخيرة بلجان التراسل الشيوعي .

لما كان تاريخ الاشتراكية الالمانية والحركة العمالية قد كتبه أدباء وصحفيون لهم باع طويلة في مضمار التراسل او كانوا اعضاء في مكاتب المراسلة والصحافة ، فقد تصور اولئك المؤرخون ان **لجان التراسل** لم تكن سوى مكاتب عادية للمراسلة.

وزبدة القول ، خيل اليهم ان ماركس وانجلز قد عقدا العزم على تأسيس مكتب مراسلة في بروكسيل ليرسلا منه رسائل مطبوعة على الحجر ، او كما كتب مهرينغ في آخر مؤلفاته عن ماركس :

«نظرا الى افتقار ماركس ورفاقه الىجريدة خاصة بهم ، فقد سعوا جهدهم بقدر المستطاع الى سد تلك الثغرة بنشرات مطبوعة طباعة عادية او حجرية . وفي الوقت نفسه سعوا الى تأمين مراسلين نظاميين لهم في المراكز الكبرى التي يحيا فيها الشيوعيون . وكانت أشباه مكاتب المراسلين تلك موجودة في بروكسيل ولندن ، وقد اتجهت النيات نحو تأسيس مكتب في باريس . وقد كتب ماركس الى برودون يسأله **تعاونه** » .

والحال انه يكفينا ان نقرأ بعناية وانتباه جواب برودون كي ندرك ان الهدف كان مؤسسة لا تشبه الا أقل الشبه مكتبا عاديا للمراسلة . ولو تذكرنا ان تبادل الرسائل ذاك قد تم في صيف ١٨٤٦ ، لما وجدنا مناصا من الاستنتاج بأنه قبل زمن طويل من وصول مندوب من لندن ليقترح على ماركس الانتساب الى **اتحاد العادلين** ، الذي كان قد زال من الوجود اساسا ، كانت توجد في لندن وبروكسيل وباريس منظمات تعود بادرة انشائها الى ماركس

بلا مراء .

تذكروا ما قلته لكم عن جمعية التراسل اللندنية التي نظمها في ١٧٩٢ توماس هاردي . وكانت لجان التراسل التي نظمهـــا نادي اليعاقبة حين حظر عليه تنظيم فروع مرتبطة به في الاقاليم تمثل تنظيما مشابها لتنظيم ماركس . وبعد دراسة تلك الوقائع والمقارنة فيما بينها خلصت الى الاستنتاج ، قبـــل زهاء عشر سنوات ، بأن ماركس ، عند تأسيسه جمعياته ، كان عاقدا النية بالضبط على ان يجعل منها لجان مراسلين .

وبالفعل ، وجدت في بروكسيل في النصف الثاني من سنة ١٨٤٦ لجنة مراسلين مكتملة التنظيم ، تلعب دور الصحيفـــة المركزية واليها ترسل التقارير . وقد ضمت عددا لا يستهان به من الاعضاء ، وفي عدادهم عمال كثيرون . ووجدت في باريس لجنة نظمها انجلز ، وكانت تقـوم بدعاية مكثفـــة في اوساط الحرفيين الالمان ، كما وجدت في لندن لجنة يقودها شابر وباور ومول (وهو مول عينه الذي قيل انه قدم بعد ستة شهور الـــى بروكسيل ليدعو ماركس الى الانتساب الى **اتحاد العادلين**) . وكما يتضح من رسالة مؤرخة في ٢٠ كانون الثاني ١٨٤٧ نقلها الـــي مهرينغ، قدم مول الى بروكسيل لا بصفته مندوب **اتحاد العادلين**، وانما بصفته مندوب لجنة المراسلين الشيوعيين في لندن ، ليقدم تقريرا عن الوضع في الجمعية اللندنية .

هكذا توصلت الى الاقتناع بأن قصة تأسيس **رابطة الشيوعيين**، كما رواها انجلز وكما تناقلتها فيما بعد مؤلفات شتى ، ما هي الا قصة خرافية لا تصمد للنقد . فالعمل التحضيري الضخم الذي قام به بصورة رئيسية ماركس يذكرنا الى حد كبير بالعمـــل التحضيري الذي أنجزه الاشتراكيون ـ الديموقراطيـون الروس الاوائل بعد زهاء خمسين سنة حين سعوا الى توحيد المنظمـات القائمة . كل ما هنالك ان تنظيم **الايسكرا** هو الذي ناب منـــاب

لجان المراسلين ، كما ان مختلف الجمعيات العمالية التي كان ينشط فيها عملاء الشيوعيين قد نابت منابها لجان واتحادات كان عملاء **المركز** يبذلون قصارى جهدهم للتغلغل فيها ولاكتسابها لقضيتهم .

لم يتنبه المؤرخون لذلك العمل التنظيمي الذي أنجزه ماركس، لانهم ما كانوا يرون في هذا الاخير سوى مفكر من وراء مكتب . وعلى هذا النحو لم يروا دور ماركس كمنظم ، لم يروا واحدا من أكثر جوانب شخصيته اثارة للاهتمام . واذا لم نفهم الدور الذي كان يؤديه ماركس (أشدد فأقول : ماركس وليس انجلز) في عامي ١٨٤٦ — ١٨٤٧ كموجه وملهم لكل ذلك العمل التنظيمي ، يتعذر علينا ان ندرك الدور الكبير الذي أداه فيما بعد كمنظم في عامي ١٨٤٨ — ١٨٤٩ وفي عهد **الاممية الاولى** .

وانما بعد سفر مول الى بروكسيل ، وحين اقتنع ماركس بأن معظم اللندنيين قد انعتقوا من تأثير فيتلنغ ، تقرر ، بمبادرة من لجنة بروكسيل في أرجح الظن ، دعوة المؤتمر الى الانعقاد في لندن باعتبارها المدينة التي يتوفر فيها القدر الاكبر من التسهيلات . وعندئذ بدأ نقاش وصراع بين الميول المتباينة . وفي باريس بوجه خاص ، حيث كان يعمل انجلز ، كان ذلك الصراع بالغ الحدة . وحين نقرأ رسائله ، يساورنا الظن بأننا قد انتقلنا الى أوساطنا الروسية لبضع سنوات خلت . فصراع الاجنحة الذي يصفه يذكرنا الى حد يبعث على الدهشة بمناقشاتنا حول مختلف البرامج . فثمة تيار يمثله غرون الذي كان يذود عن الشيوعية الالمانية او الشيوعية «الحقة» التي نجد وصفا ساخرا لها في **البيان الشيوعي** . وكان انجلز يتبنى برنامجا اساسيا آخر . وطبيعي ان كل واحد من الخصوم كان يسعى الى اكتساب **تأييد اكبر عدد** ممكن من الاصوات . وكثيرا ما كان يخيل لانجلز انه انتزع النصر لا لانه أفلح في اقناع المترددين فحسب ، كما كتب يبلغ لجنة بروكسيل ، بل ايضا لانه كان أشد مكرا من

خصومه او لانه احرجهم وجعل الامر يسقط في أيديهم .

في صيف ١٨٤٧ انعقد المؤتمر في لندن ولم يحضره ماركس. وكان ممثل بروكسيل ف. وولف . وكان انجلز يمثل شيوعيي باريس . وما كان عدد المندوبين بالكبير ، لكن لم ينفعل احد لذلك اكثر من اللزوم . وفي عام ١٨٩٨ ايضا ، حين تأسس الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي العمالي الروسي ، لم يضم مؤتمر مينسك سوى ثمانية او تسعة اشخاص يمثلون ثلاث او اربع منظمات .

وقر قرار المؤتمرين على التجمع في اطار «**رابطة الشيوعيين**». وتم اقرار نظام اساسي صاغت فقرته الاولى بوضوح ودقة الفكرة الجوهرية للشيوعية الثورية :

«هدف **الرابطة** هو الاطاحة بالبورجوازية ، وسيطرة البروليتاريا ، وإلغاء المجتمع البورجوازي القديم ، القائم على اساس تطاحن الطبقات ، وتأسيس مجتمع جديد بلا طبقات ولا ملكية فردية» .

وتم اقرار دستور تنظيمي بشرط اخضاعه للدراسة من قبل اللجان المختلفة ، على ان يتم تبنيه نهائيا في المؤتمر التالي مع التعديلات التي يكون قد قر الرأي على ضرورة ادخالها عليه .

كان مبدأ «المركزية الديموقراطية» في اساس التنظيم . كان على كل عضو من الاعضاء ان يجاهر باعتناقه للشيوعية وأن يحيا حياة تتفق وأهداف **الرابطة** . وكانت مجموعة محددة من الاعضاء تشكل النواة الاساسية للتنظيم . وكان اسمها **المتحد** . وكان هناك لجان اقليمية. وكانت شتى اقاليم القطر الواحد تتحد تحت قيادة مركز تشمل سلطاته القطر بأسره . وكانت تلك المراكز مسؤولة امام اللجنة المركزية .

غدا ذلك التنظيم فيما بعد نموذجا يحتذى بالنسبة الى جميع الاحزاب الشيوعية للطبقة العاملة في مستهل تطورها . لكن كانت له ميزة خاصة ما لبثت ان اختفت في زمن لاحق ، وان يكن في الامكان العثور عليها لدى الالمان حتى عام ١٨٦٠ . فاللجنة المركزية لـ «**رابطة الشيوعيين**» لم تكن تنتخب شخصيا في المؤتمر . وكانت سلطاتها المطلقة كمركز قائد تنقل الى اللجنة الاقليمية للمدينة التي يقع عليها اختيار المؤتمر كمكان اقامة للجنة المركزية . وعلى هذا النحو ، اذا وقع اختيار المؤتمر على لندن ، فان تنظيم هذه المنطقة ينتخب لجنة مركزية من خمسة اعضاء على الاقل . وكان ذلك هو السبيل لتأمين اتصالها الوثيق مع التنظيم القومي الكبير . وهذا النمط التنظيمي هو الذي نلتقيه فيما بعد لدى الالمان في المانيا ذاتها وفي سويسرا . فلجنتهم المركزية كانت ترتبط على الدوام بمدينة محددة يسميها المؤتمر وتحمل اسم المدينة الطليعية .

في المؤتمر ، قر الرأي ايضا على وضع مشروع لـ «قانون ايمان» شيوعي يكون بمثابة اول برنامج لـ «**الرابطة**» . وكان على مختلف الاقاليم ان تقدم برنامجها الى المؤتمر التالي . وتقرر ، فضلا عن ذلك ، المباشرة بطبع مجلة شعبية . وتلك هي اول مجلة عمالية أمكن لنا ان نعرف بوجودها ، وقد حملت ، كما ترون (٤) ، جهارا اسم **الشيوعي** . وفي الصفحة الاولى من تلك المجلة ، التي صدرت قبل سنة واحدة من نشر **البيان الشيوعي** ، يمثل الشعار القائل : «يا بروليتاريي جميع الاقطار ، اتحدوا !» .

ان تلك المجلة تحفة نادرة للغاية من تحف المكتبات . ولست أعرف لها الا نسخا ثلاثا . وقد عثرت في عام ١٩١٢ على النسخة

---

٤ ــ وأنا اقول ذلك ، عرضت على أنظار المستمعين نسخة هي الان ملك لمعهد ماركس وانجلز .

التي هي بين يدي الان ، ووصفتها في مقال يرجع الى عام ١٩١٤ . وقد تم فيما بعد العثور على نسخة ثانية في محفوظات الشرطة البرلينية ، وماير هو الذي عثر عليها ووصفها في عام ١٩١٩ . ووجد مؤخرا الاستاذ غرونبرغ نسخة ثالثة ونشرها في كراسة خاصة .

لم تصدر المجلة الا مرة واحدة يتيمة . وقد كتب مقالات العدد الاول واليتيم ممثلو **رابطة الشيوعيين** المقيمة في لندن بصورة رئيسية ، وتولوا بأنفسهم تنضيدها طباعيا . وقد كتبت الافتتاحية بأسلوب شعبي جدا . وبلغة بسيطة عرضت الخصائص التي تميز التنظيم الشيوعي الجديد عن تنظيم فيتلنغ والتنظيمات الفرنسية . ولم ترد فيها كلمة واحدة عن **اتحاد العادلين** . وأفرد مقال خاص للشيوعي الفرنسي كابيه ، مؤلف اليوتوبيا المشهورة **رحلة الى ايكاريا** . وكان هذا الاخير قد قام في ١٨٤٧ بدعاية مكثفة بغية تجميع الناس العاقدي العزم على الهجرة الى اميركا وانشاء مستوطنة شيوعية في الارض البكر على طراز المستوطنة التي وصفها في روايته **ايكاريا** . بل انه قصد لندن خصيصا ليكسب فيها تأييد شيوعيي تلك المدينة لقضيته . وقد أخضع المقال الآنف الذكر تلك الخطة لنقد مفصل وأوصى العمال بألا يغادروا القارة الاوروبية لان الشيوعية لن تقوم لها قائمة الا في اوروبا . وضمت المجلة ايضا مقالا طويلا كتبه ، في رأيي ، انجلز. وتنتهي المجلة بعرض سياسي واجتماعي كان واضعه بلا مراء مندوب لجنة بروكسيل الى المؤتمر ، ف. وولف .

في نهاية تشرين الثاني ١٨٤٧ ، انعقد المؤتمر الثاني في لندن ، وحضره هذه المرة ماركس . وقبل انعقاد ذلك المؤتمر ، كتب اليه انجلز من باريس يبلغه انه وضع مشروعا أوليا لتعليم ديني او قانون ايمان شيوعي ، ولكنه يرتئي انه من الاقرب الى المنطق عنونته باسم **البيان الشيوعي** . وأرجح الظن ان ماركس

حمل بدوره الى المؤتمر الاطروحات التي كان قد صاغها . والشيء الجدير بالذكر ان الامور هناك لم تسر على ما يرام كما يصور لنا ستكلوف . فقد كان المؤتمر مسرحا لمناقشات حامية . ودامت المداولات عدة ايام ، ووجد ماركس مشقة كبيرة في اقناع الغالبية بصحة البرنامج الجديد . وقد تم تبني هذا البرنامج في معالمه الاساسية ، وكلف المؤتمر ماركس بصورة خاصة بأن يكتب باسم **رابطة الشيوعيين** لا قانون ايمان بل بيانا كما كان اقترح انجلز . وصحيح ان ماركس ، وقد سماه المؤتمر لانشاء البيان ، قد استفاد من المشروع الذي وضعه انجلز ، لكنه هو وحده الذي تحمل المسؤولية السياسية للبيان امام **الرابطة** . واذا كان البيان يعطي انطباعا قويا بوحدته ، فذلك يرجع على وجه التحديد الى ان ماركس كتبه بمفرده . صحيح انه يحتوي افكارا صاغها ماركس وانجلز صياغة مشتركة ، لكن فكرته الاساسية ، كما نوه بذلك على الدوام انجلز نفسه ، ترجع الى ماركس وحده :

«ان الفكرة الاساسية في **البيان** ، واعني ان الانتاج الاقتصادي والبنية الاجتماعية المتحددة بـه جبريا يشكلان اساس التاريخ السياسي والفكري لحقبة تاريخية بعينها ، وأن التاريخ كله بالتالي ، منذ انحلال المشاعة القروية البدائية ، كان تاريخ الصراع الطبقي، اي الصراع بين المستغَلين والمستغِلين ، بين الجماهير الخاضعة والطبقات السائدة في شتى درجات التطور الاجتماعي، وأن ذلك الصراع قد بلغ الان درجة لا يمكن معها للطبقة المستغَلة والمضطهدة [البروليتاريا] أن تنعتق من نير الطبقة التي تستغلها وتضطهدها [البورجوازية] من دون ان تحرر في الوقت نفسه والى الابد المجتمع قاطبة من الاستغلال ، اقول : ان تلك الفكرة الاساسية ترجع الى ماركس وحده دون غيره».

لقد أكدت على هذه النقطة حتى تعرفوا ، كما كان يعرف انجلز و«**رابطة الشيوعيين**» ، ان وضع البرنامج الجديد كان الى حد كبير من صنع ماركس ، وان هذا الاخير هو الذي عهد اليه بمهمة انشاء البيان . وبحوزتنا رسالة هامة تؤكد تلك الحقيقة كما لا يؤكدها اي شيء آخر . وفضلا عن ذلك ، تلقي تلك الرسالة ضوءا مثيرا للاهتمام على العلاقات بين ماركس والتنظيم العمالي الخالص الذي كان يميل الى اعتبار «المثقف» رجلا يصلح فقط لان يصوغ ادبيا ما يفكر ويشعر به العامل . وحتى نحسن فهم مدلول تلك الرسالة ، سأضيف القول ان المؤتمر سمى ، بموجب النظام الاساسي ، لندن كمكان لاقامة اللجنة المركزية ، وأن هذه اللجنة المركزية انتخبت من قبل تنظيم لندن .

ان الرسالة التي سأقرأها عليكم قد أرسلت في ٢٦ آذار من قبل اللجنة المركزية الى لجنة بروكسيل الاقليمية كي تنقلها الى ماركس . وهي تشتمل على القرار الذي اتخذته في ٢٤ كانون الثاني اللجنة المركزية .

«ان اللجنة المركزية تكلف ، بموجبه طيا ، لجنة بروكسيل الاقليمية بأن تبلغ المواطن ماركس بأنه اذا لم يصل بيان الحزب الشيوعي الذي تعهد بانشائه في المؤتمر الاخير الى لندن قبل الاول من شباط من السنة الجارية ، فان اجراءات ستتخذ بحقه حسب المقتضى . وفي حال عدم انجاز المواطن ماركس لعمله، ستطلب اللجنة المركزية الاعادة الفورية للوثائق الموضوعة تحت تصرف ماركس .

باسم اللجنة المركزية
وبتفويض منها :
شابر ، باور ، مول» .

كما يتضح من هذه الرسالة ذات اللهجة الآمرة ، لم يكن ماركس في نهاية كانون الثاني قد انجز بعد العمل الذي كلف به في كانون الاول . وهذه واحدة من السمات المميزة لماركس : فعلى الرغم من كل موهبته الادبية ، كان يفتقر الى السهولة واليسر في العمل . كان يشتغل على الدوام مطولا في نصوصه ، ولاسيما اذا تعلق الامر بوثيقة هامة . وكان يريد أن تحرر هذه الوثيقة بصورة مثلى حتى تقاوم هجمة الزمن . وبحوزتنا صفحة من واحدة من مسوداته تظهر مدى عنايته بكل جملة من جمله .

ولم تضطر اللجنة المركزية الى اتخاذ اجراءات معاقبة . فقد نجح ماركس في انجاز عمله في مطلع شباط . وهذا تاريخ ينبغي التنويه به . فقد صدر «البيان» في النصف الثاني من شباط ، أي قبل بضعة ايام من ثورة شباط . وعليه ، ما امكن له بذاته ان يلعب أي دور في التحضير لتلك الثورة ؛ ونظرا الى ان النسخ الاولى لم تصل الى المانيا قبل ايار ــ حزيران ١٨٤٨ ، يترتب على ذلك انه لم يكن له ايضا من تأثير كبير على الثورة الالمانية . ففي ذلك الزمن لم يعرفه ولم يستوعبه سوى مجموعة صغيرة من الشيوعيين البروكسيليين واللندنيين .

دعوني أحدثكم الان قليلا عن مضمون **البيان** . انه برنامج **رابطة الشيوعيين الاممية** . وبحوزتنا اليوم بعض معلومات عن تركيب تلك **الرابطة** . فقد كانت تضم بلجيكيين ، وبعض الميثاقيين الانكليز الميالين الى الشيوعية ، وكذلك وعلى الاخص المانا . وقد كان على **البيان** ان يأخذ باعتباره لا قطرا واحدا دون غيره ، وانما العالم البورجوازي بأسره الذي يعرض عليه الشيوعيون ، لاول مرة ، اهدافهم جهرا وعلانية .

يزودنا الفصل الاول بصورة باهرة وواضحة ودقيقة عن المجتمع الرأسمالي البورجوازي ، عن صراع الطبقات الذي أوجده والذي يواصل تطوره على اساس ذلك المجتمع . وفي تلك الصورة نرى كيف تكونت البورجوازية جبريا في رحم النظام الاقطاعي

القديم ، وكيف تغيرت شروط وجودها تدريجيا غب تحـــول العلاقات الاقتصادية ، وما الدور الثوري الذي لعبته في كفاحها ضد الاقطاع ، والى اي درجة منقطعة النظير طورت قوى المجتمع الانتاجية ، وكيف أوجدت للمرة الاولى في التاريخ امكانيـــة الانعتاق المادي للبشرية قاطبة .

تلي ذلك لمحة تاريخية عن تطور البروليتاريا . وفيها نرى ان البروليتاريا تتطور وفق قوانين جبرية، شأنها شأن البورجوازية، وانها تقفو في تطورها اثر هذه البورجوازية وكأنها ظلها . ونرى فيها ايضا كيف تتكون البروليتاريا تدريجيا في طبقة خاصة ، وكيف وبأي أشكال تخوض نضالها ضد البورجوازية الى ان تخلق تنظيمها الطبقي الخاص بها .

ثم يعرض **«البيان»** بعد ذلك ويدحض جميع الاعتراضات التي يشهرها الايديولوجيون البورجوازيون ضد الشيوعية . ولـــن أتوقف عند هذه النقطة ، لانكم جميعكم ، أنا متيقن من ذلك ، قد قرأتم او ستقرؤون عما قريب **البيان** .

ثم يعرض ماركس بعد ذلك ، بالاستناد الى انجلز ، وان على نطاق أضيق مما كان يسود الاعتقاد آنفا ، تكتيـــك الشيوعيين قياسا الى سائر الاحزاب العمالية الاخرى . وهنا يخلق بنا ان نلحظ سمة خاصة مثيرة للاهتمام . يقول **البيان** ان الشيوعيين لا يمثلون حزبا خاصا يقف موقف المعارضة من الاحزاب العمالية الاخرى ، وانهم يتميزون عن هذه الاحزاب بكونهم فقط يمثلون طليعة العمال ، الطليعة التي تمتاز على سواد البروليتاريا بفهمها لشروط الحركة العمالية ومسارها ونتائجها العامة .

سيكون من الايسر عليكم من الان فصاعدا ، وقد بتـــم تعرفون التاريخ الحقيقي لـ **«رابطة الشيوعيين»** ، ان تفهمـــوا سبب تلك الصياغة لمهام الشيوعيين . فقد أملاها وضع الحركة العمالية عصرئذ ، وبخاصة في انكلترا . فالقلائل من الميثاقيين

الذين دخلوا الى **الرابطة** لم يقبلوا بفعل ذلك الا بشرط حفاظهم على ارتباطهم بحزبهم . ولم يلتزموا الا بتنظيم ضرب من نواة شيوعية في قلب الحركة الميثاقية بهدف نشر برنامج الشيوعيين واهدافهم فيها .

يحلل «البيان» التيارات العديدة التي كانت تناضل يومئذ في سبيل ترجيح كفتها في اوساط الاشتراكيين والشيوعيين . وينتقدها بعنف ويردها ردا قاسيا ، ما خلا الطوباويين الكبار سان سيمون وفورييه وأوين الذين كان ماركس وانجلز قد قبلا الى حد ما بمذاهبهم ، ولاسيما مذاهب الاثنين الاخيرين منهم ، واعادا سبكها ثانية . لكن بينما يتبنى **البيان** انتقاداتهم الموجهة الى النظام البورجوازي ، يعارض الاشتراكية المسالمة ، الطوباوية، المتحاشية للكفاح السياسي ، بالبرنامج الثوري للشيوعية النقدية البروليتارية الجديدة .

في الختام ، يمحص **البيان** تكتيك الشيوعيين إبان الثورة ، وبخاصة حيال الاحزاب البورجوازية . فقواعد هذا التكتيك تختلف من بلد الى آخر بدالة الشروط التاريخية . فحيثما تكن البورجوازية قد أمست هي الطبقة السائدة ، توجه البروليتاريا كفاحها كله ضدها . أما في الاقطار التي لا تزال البورجوازية فيها طبقة تصبو الى السلطة السياسية ، كما في المانيا ، فان الحزب الشيوعي يسندها في نضالها الثوري ضد النظام الملكي والنبالة .

بيد ان الشيوعيين لا يتهاونون لحظة واحدة في بث الوعي الصافي بتعارض المصالح الطبقية بين البورجوازية والبروليتاريا وفي ترسيخه في أذهان العمال . وهم يعطون على الدوام مكانة الصدارة لمسألة الملكية الفردية بوصفها المسألة الاساسية للحركة كلها . تلك هي القواعد التكتيكية التي صاغها ماركس وانجلز عشية ثورة شباط ـ آذار ١٨٤٨ . وسوف نرى ، في المحاضرة التالية ، كيف طبقها واضعاها في الممارسة ، وما التعديلات التي

أدخلتها عليها تجربة الثورة .

لقد عرضت عليكم الخطوط الكبرى لـ «**البيان**» . وهـذه الوثيقة تحوي جميع نتائج النشاط العلمي الذي أنجزه ماركس وانجلز ، وبخاصة الاول ، بين ١٨٤٥ و١٨٤٧ . ففي إبان ذلك ، كان انجلز قد هيأ المواد التي جمعها في انكلترا عن **وضع الطبقة العاملة في انكلترا** ؛ أما ماركس فقد انكب على تاريخ المذاهب السياسية والاقتصادية . **فالتصور المادي للتاريخ** ، الذي اتاح لهما امكانية التحليل السديد للعلاقات المادية ولشروط الانتاج والتوزيع التي تتحدد بها العلاقات الاجتماعية كافة ، قد تمت صياغتهما له في إبان تينك السنتين في معرض كفاحهما ضد شتى المذاهب المثالية .

كان ماركس ، حتى قبل **البيان** ، قد عرض المذهب الجديد في أكمل شكل وأبهره في محاجّة له ضد **برودون** . وهذا مع ان ماركس كان لا يزال يدلل في مؤلفه **الاسرة المقدسة** على تقدير كبير لبرودون . ففيمَ يكمن سبب القطيعة بين الحليفين السابقين ؟

كان برودون عاملا في أصله وعصاميا نظير فيتلنغ ، لكنه اكثر موهبة حتى من هذا الاخير ، وكان واحدا من ألمع الصحفيين الفرنسيين . وفي مؤلفه «ما الملكية ؟» ، الصادر في عام ١٨٤١ ، يوجه نقدا عنيفا الى الملكية البورجوازية ويخلص الى الاستنتاج الجريء بأن الملكية ان هي في ختام التحليل الا سرقة . لكن سرعان ما اتضح أن برودون ، بإدانته الملكية ، لم يكن يضع نصب عينيه سوى واحد من أشكالها فقط ، الملكية الرأسمالية الخاصة القائمة على استغلال الرأسمالي للمنتج الصغير . وفي الوقت الذي كان برودون يطالب فيه بالغاء الملكية الرأسمالية الخاصة ، كان يخاصم الشيوعية . وكان يرى في صيانة الملكية الخاصة للفلاح والحرفي وتعزيزها الضمانة الوحيدة لازدهار أحوال هذين

الاخيرين . وكان يعتقد ان وضع العامل يمكن ان يتحسن لا بواسطة الاضرابات ، لا بواسطة النضال الاقتصادي ، وانما عن طريق تحويل العامل الى مالك . وقد تبنى برودون بصورة نهائية وجهة النظر تلك في ١٨٤٥ – ١٨٤٦ ، وهي الفترة التي تخيل فيها المخطط الذي يمكن بموجبه، على حد زعمه، وقاية الحرفيين من شر الافلاس وتحويل العمال الى منتجين مستقلين .

سبق ان حدثتكم عن الدور الذي كان انجلز يلعبه في باريس عهدئذ . قلت ان خصمه الرئيسي في النقاش الدائر يومئذ حول مختلف البرامج الاساسية كان كارل غرون ، ممثل «الاشتراكية الحقة» . كان كارل غرون على صلة وثيقة ببرودون ، وقد عرض نظرياته على العمال الالمان المقيمين في باريس . وقبل ان ينشر برودون مؤلفه الجديد الذي اراد ان يزيح فيه القناع عن جميع «التطاحنات الاقتصادية» في المجتمع المعاصر وأن يفسر من اين يأتي البؤس وأن ينشىء فلسفة البؤس ، نقل مخططه لغرون ، فسارع هذا الى استعماله في محاجّته ضد الشيوعيين . وبادر انجلز من فوره الى نقل ذلك المخطط الى لجنة بروكسيل ، حسب ما جاء في قول غرون نفسه . وقد كتب يقول :

«ماذا نرى فيه ؟ لا اكثر ولا أقل من «بازارات العمل» المعروفة منذ عهد بعيد في انكلترا ، جمعيات الحرفيين من مختلف المهن ، الجمعيات التي أثبتت سابقا فشلها مرارا وتكرارا ، ومستودع كبير ؛ وجميع المنتجات المقدمة الى اعضاء الجمعيات تقدر حسب كلفة المادة الاولية ومجموع العمل المنفق في صنعها ، وتدفع قيمتها بمنتجات اخرى مثمّنة بالطريقة نفسها. وكل كمية المنتجات المجاوزة لحاجات الجمعية والمباعة في السوق يذهب ايرادها لصالح المنتجين . على هذا

النحو يخيل للماكر برودون انه مستطيع الغاء الربح الذي يحققه الوسيط التجاري» .

في رسالة اخرى ، ينقل انجلز تفاصيل جديدة عن مخطط برودون ، ويعرب عن سخطه من ان العمال لا تزال تجتذبهم الاوهام القائلة على سبيل المثال بتحويل العمال الى ملاكين عن طريق شرائهم المشاغل بمدخراتهم .

لهذا ما ان ظهر كتاب برودون ، حتى انكب ماركس على العمل ورد على **فلسفة البؤس** بمؤلّف جعل عنوانه **بؤس الفلسفة**، وفيه يدحض افكار برودون واحدة واحدة . لكنه لا يكتفي بالنقد: فهو يعارض نظرات برودون بأسس الشيوعية النقدية التي سبق له صوغها .

كان ذلك المؤلف ، بلمعان القريحة ودقة الفكر ووضوحه فيه، بمثابة مدخل لائق الى **البيان الشيوعي** ، وهو لا يقل وزنا عن آخر مقال لماركس ضد برودون ، وقد كتب بعد ثلاثين عاما ، في ١٨٧٤ ، برسم العمال الطليان . ان ذلك المقال المعنون بـ «**اللامبالاة السياسية**» (نشرته بالروسية في ١٩١٣ في **بروسفيبيستتشينيه**) لا يختلف البتة عن **بؤس الفلسفة** ــ مما يظهر ان صياغة وجهة نظر ماركس كانت قد اكتملت نهائيا منذ عام ١٨٤٧ .

اكرر فأقول ان ماركس كان قد صاغ وجهة نظره في عام ١٨٤٥ ، ولكن في شكل أقل وضوحا . وقد اقتضته كتابة **بؤس الفلسفة** سنتين من العمل المكثف . وبدراسته شروط تكوين البروليتاريا وتطورها في المجتمع البورجوازي ، كان يتبحر اكثر فأكثر في دراسة قوانين النظام الرأسمالي ، القوانين التي تحكم انتاج المجتمع الرأسمالي وتوزيعه . وقد محص مذاهب الاقتصاديين البورجوازيين على ضوء المنهج الجدلي ، وأبان ان جميع المقولات الاساسية وجميع الظاهرات في المجتمع البورجوازي ، من البضاعة الى القيمة الى المال الى الرأسمال ،

تمثل شيئا ما عابرا . وفي **بؤس الفلسفة** يحاول ، لاول مرة ، ان يحدد المراحل الرئيسية لتطور الانتاج الرأسمالي . صحيح انه لم يتعد في ذلك المعالم الاولى والعريضة ، لكن ذلك الكتاب يظهر ان ماركس هو في الطريق الصحيح ، وأنه امتلك المنهج الموثوق ، بوصلة أمينة لا تخطىء يتوجه بواسطتها في متاهة الاقتصاد البورجوازي . بيد ان ذلك المؤلف يظهر للعيان ايضا انه لا يكفي امتلاك المنهج الامين ، وأنه لا يجوز الاكتفاء باستنتاجات عامة ، وانه من الضروري دراسة الرأسمالية بدقة وعناية لمعرفة جميع خفايا تلك الاواليـة المعقدة . وكان لا يزال على ماركس ان ينجز عملا هائلا كي يحول الى صرح عظيم ونظام متكامل ذلك الرسم الاولي العبقري المتمثل بـ «**بؤس الفلسفة**» فيما يتعلق بدراسة المسائل الاقتصادية الرئيسية . وقبل ان يحوز ماركس، على عظيم الاسف من جانبه، على امكانية انجاز تلك المهمة ـ وان يكن الثمن الضروري لذلك امتناعه عن الاهتمام بالنشاط العملي ـ كان عليه اولا ان يمر بثورة ١٨٤٨ التي كان هو وانجلز ينتظرانها بفارغ الصبر، والتي كانا قد تنبآ بها، والتي كانا يستعدان لها ويتهيئان، والتي صاغا برسمها الاطروحات الاساسية المعروضة في **البيان الشيوعي** .

المحاضرة الخامسة

[ثورة ١٨٤٨ الالمانية ـ ماركس وانجلز في الراينلاند ـ انشاء « الصحيفة الراينية الجديدة » ـ غوتشالك وفيليش ـ اتحاد كولن العمالي ـ سياسة «الصحيفةالراينية الجديدة» وتكتيكها ـ ايتيين بورن ـ انعطاف في تكتيك ماركس ـ هزيمة الثورة وخلافات في الآراء في «رابطة الشيوعيين» ـ الانشقاق] .

ها نحنذا وصلنا الان الى ثورة شباط . وكنا قد بيّنا ان **البيان الشيوعي** طبع قبل بضعة ايام من ثورة شباط . ولم يكن تنظيم **رابطة الشيوعيين** قد اكتمل الا في تشرين الثاني ١٨٤٧ . وكان هذا التنظيم يضم الحلقات الاجنبية في باريس وبروكسيل ولندن ، ولم يكن على صلة الا ببضع مجموعات المانية صغيرة .

كانت القوى المنظمة التي يمكن للفرع الالماني من **رابطة الشيوعيين** ان يعتمد عليها غير ذات وزن كبير اذن . والحال ان الثورة اندلعت منذ ٢٤ شباط ١٨٤٨ في باريس ، وسرعان ما امتدت الى المانيا . ففي ٣ آذار، في كولن ، كبرى مدن الراينلاند، حدث ضرب من ثورة شعبية. واضطر القيّمون على شؤون المدينة ان يوجهوا عريضة الى ملك بروسيا يسألونه فيها أن يحسب حساب الفليان الشعبي وأن يقدم بعض تنازلات . وكان ذلك الفليان ، او اذا شئتم ذلك التمرد الشعبي الذي حدث في ٣ آذار ١٨٤٨ في كولن ، يقوده رجلان : غوتشالك ، وهو طبيب ذو شعبية واسعة في اوساط العمال وفقراء سكان كولن ، وفيليش، وهو ضابط سابق . ولم تندلع الثورة في فيينا، عاصمة النمسا، الا بعد عشرة ايام . وفي ١٨ آذار ، انتقلت شرارتها الى برلين ، عاصمة بروسيا .

كان ماركس آنئذ في بروكسيل . وقد سددت الحكومة البلجيكية ، تحاشيا منها لمصير الحكم الملكي الفرنسي ، ضرباتها الى المهاجرين المقيمين في بروكسيل ، واعتقلت ماركس وطردته من بلجيكا . وتوجه ماركس الى باريس حيث كانت الدعوة قد وجهت اليه للقدوم اليها . وقد بعث واحد من اعضاء الحكومة المؤقتة ، فلوكون ، وهو مدير تحرير صحيفة كان انجلز يتعاون معها ، برسالة فورية الى ماركس يعلن فيها ان جميع قرارات الحكومة السابقة قد باتت لاغية المفعول على مجمل الارض الفرنسية الحرة .

وبادرت اللجنة الاقليمية البروكسيلية ، التي كانت لجنة لندن قد نقلت اليها كامل صلاحياتها غب انفجار الثورة في البر الاوروبي ، الى نقل هذه الصلاحيات بدورها الى ماركس . وقد برزت في اوساط العمال الالمان ، الذين تجمعوا يومئذ بأعداد كبيرة في باريس ، خلافات وحدثت انشقاقات وتنظمت مجموعات متباينة . وقد انتسب الى واحدة من تلك المجموعات ابن بلدنا

باكونين الذي وضع ، مع الشاعر الالماني هرفيغ ، مشروع تشكيل تنظيم مسلح واقتحام المانيا .

بذل ماركس ما بوسعه لصرفهم عن خطتهم ، واقترح عليهم التوجه فرادى الى المانيا والمشاركة في الاحداث الثورية فيها . وأصر باكونين وهرفيغ على مشروعهما . ونظم هرفيغ فرقة ثورية، ونصب نفسه قائدا عليها ، وتوجه نحو الحدود الالمانية حيث دحر . وأفلح ماركس ورفاق آخرون في العبور الى المانيا حيث اقاموا في اماكن شتى . واستقر المطاف بماركس وانجلز في الراينلاند .

كان على ماركس وانجلز ان يأخذا في اعتبارهما ان الفرع الالماني من **رابطة الشيوعيين** يفتقر الى أي تنظيم . ولم يكن له الا مناصرون قلائل . فماذا كان على ماركس وانجلز ورفاقهما الاقربين ان يفعلوا ؟ لقد حاول انجلز ، بعد تصرم زهاء اربعين عاما ، ان يشرح التكتيك الذي سارا عليه هو وماركس في عام ١٨٤٨ في المانيا . فردا على سؤال وجهه اليه رفاق صغار السن، اعطى جوابا واضحا . سئل لماذا آثر مع ماركس البقاء في الراينلاند ، في كولن ، على الذهاب الى برلين . فقال : وقع اختيارنا على الراينلاند لانه كان الاقليم الاكثر تطورا من الناحية الصناعية ، ولأن قانون نابليون ، إرث الثورة الفرنسية ، كان لا يزال ساري المفعول فيه ، ولانه كان بوسعنا بالتالي الاعتماد على هامش اكبر من حرية العمل والتحريض . وفضلا عن ذلك ، كان الراينلاند يضم بروليتاريا كثيرة التعداد . صحيح ان كولن لم تكن المدينة الاكثر تطورا من وجهة النظر الصناعية ، لكنها كانت مقر السلطة الادارية ومركز الراينلاند . كذلك كانت كولن ، بتعداد سكانها ، من اهم مدن الراينلاند ، مع ان عدد قاطنيها ما كان يتجاوز يومئذ ٨٠٠٠٠ نسمة . وكان سكانها من البروليتاريين كثيري التعداد ، وان تكن نسبة العمال المستخدمين في الصناعة

الكبيرة ضئيلة . وكانت المعامل الرئيسية تتمثل يومئذ بالمصافي. فقد كانت كولن مشهورة عصرئذ بانتاج ماء الكولونيا ، لكن لم يكن فيها وجود لصناعة آلية كبيرة . وكان تطور الصناعة النسيجية فيها أوهى شأنا بكثير من تطورها في ايبرفيلد وبارمن . وعلى كل حال ، كان لماركس وانجلز اسباب وجيهة لاختيار كولن مكانا لاقامتهما . فقد كانا يرغبان في التأثير على المانيا كلها ، وفي تأسيس صحيفة كبيرة تكون منبرا للبلاد قاطبة ، وكانت كولن في نظرهما أنسب الاماكن لذلك . وبالفعل ، كانت اول جريدة سياسية كبيرة للبورجوازية الالمانية قد طبعت في كولن في عام ١٨٤٢ . وفي وقت وصولهما كانت الاستعدادات لاصدار جريدة قد قطعت شوطا بعيدا ، بحيث أفلحا في وضع اليد عليها فورا.

لكن تلك الجريدة كانت جريدة الديموقراطية . هاكم كيف حاول انجلز ان يفسر لماذا اختارا تسميتها بـ «جريدة الديموقراطية» . يقول انه لم يكن ثمة وجود يومئذ لاي تنظيم بروليتاري وانه لم يكن من سبيل للاختيار الا بين طريقين : إما الشروع من الايام الاولى بتنظيم حزب شيوعي ، وإما استخدام المنظمات الديموقراطية القائمة وتجميعها في تنظيم واحد والقيام في اطار هذا التنظيم بالدعاية الضرورية واجتذاب مختلف الجمعيات العمالية اليه . وقد اختار ماركس وانجلز الطريق الثاني : فقد عزفا عن تشكيل منظمات بروليتارية خاصة في الراينلاند ودخلا الى الاتحاد الديموقراطي الذي كان قائما في كولن . وعلى هذا النحو وجدا نفسيهما من البداية في وضع مغلوط الى حد ما ازاء اتحاد كولن العمالي الذي كان غوتشالك وفيليبش قد أسساه بعد ٣ آذار مباشرة .

كان غوتشالك ، كما اخبرتكم ، طبيبا ، وواسع الشعبية في اوساط الطبقة الاشد املاقا في كولن . لم يكن ، بنظرياته ، شيوعيا . وكان ، قبل تأسيس **رابطة الشيوعيين** ، قريبا في افكاره من فيتلنغ وأنصاره . كان ثوريا جيدا ، لكنه كان يتأثر

بسهولة بالتيارات المختلفة . كان بشخصه رجلا لا يؤخذ عليه مأخذ ؛ لم يكن لديه برنامج راسخ ، لكنه كان يدرك جيدا ما كنه الديموقراطية لانه صرح من اول مداخلة له في المجلس البلدي : «انني لا أتكلم باسم الشعب ، لان جميع هؤلاء المستشارين البلديين ينتمون ايضا الى الشعب ؛ كلا ، انما أخاطبكم باسم الطبقة العاملة فحسب» . كان يميز اذن الطبقة العاملة، الشغيلة، عن الامة بوجه عام . وكان يحبذ الاجراءات الثورية ، لكنه كان يطالب في الوقت نفسه، وهو الجمهوري، باتحاد بين الجمهوريات الالمانية . وقد كانت هذه ، كما سنرى ، واحدة من النقاط الاساسية لخلافه مع ماركس . وسرعان ما ضمت الجمعية التي اسسها ، **اتحاد كولن العمالي** ، جميع العناصر البروليتارية في المدينة تقريبا . وقد بلغ عدد هؤلاء ٧٠٠٠ عضو ، وهذا رقم كبير بالنسبة الى مدينة من ٨٠٠٠٠ نسمة .

وسرعان ما نشب نزاع بين هذه الجمعية العمالية وبين التنظيم الذي كان ماركس وانجلز ينتسبان اليه . وقد كانت تضم ايضا عناصر لا تشاطر غوتشالك وجهات نظره . وكان مول ، الذي ارسلته كما تذكرون اللجنة الشيوعية اللندنية الى لجنة بروكسيل للمداولة في امر تنظيم المؤتمر ، واحدا من الاعضاء الرئيسيين في الاتحاد العمالي ، وكان بالطبع على صلة وثيقة بماركس وانجلز. وكان ينتسب الى ذلك الاتحاد ايضا شابر الذي يساهم في الحركة العمالية منذ عام ١٨٣٠ . وعلى هذا النحو ، لم يلبث ان تنظم جناحان داخل الاتحاد العمالي الذي كانت تنشط في مواجهته الجمعية الديموقراطية التي ينتسب اليها كل من ماركس وانجلز .

تلك كانت نتيجة الخطة التي عرضها انجلز ، بعد انقضاء حقبة مديدة ، في مقاله عن **الصحيفة الراينية الجديدة** . كان ماركس وانجلز يأملان ان تصير جريدتهما ، التي شرعت بالصدور في

كولن في الاول من حزيران ١٨٤٨ ، مركزا للالتقاء والتجمع يضم، في مجرى الكفاح الثوري ، جميع التنظيمات الشيوعية المقبلة . ولا يجوز لاحد ان يتصور ان ماركس وانجلز دخلا الى جريدة الديموقراطية تلك بصفتهما ديموقراطيين ، وانما دخلا اليها بصفتهما شيوعيين يصنفان نفسيهما الى اقصى يسار الديموقراطية . وما توانا عن توجيه أعنف النقد لا الى اخطاء الحزب الليبيرالي الالماني فحسب ، بل ايضا الى أخطاء الديموقراطية ، بحيث انهما خسرا ، من الاشهر الاولى ، جميع المساهمين في جريدتهما . وقد انتقد ماركس الديموقراطية بقسوة ، في اول مقال صدّره في **الصحيفة الراينية الجديدة** . وحين ورد نبأ سحق البروليتاريا الباريسية في ايام حزيران ، والمجزرة التي تسبب فيها كافينياك بمساندة الاحزاب البورجوازية كافة والتي قضى فيها عدة آلاف من البروليتاريين الباريسيين ، نشرت **الصحيفة الراينية الجديدة** ، جريدة الديموقراطية ، مقالا مشبوب العاطفة نددت فيه بالجلادين البورجوازيين وبمشايعيهم من الديموقراطيين . وهاكم مقطعا قصيرا من ذلك المقال :

«لقد **سحق** العمال الباريسيون من قبل عدو متفوق بالقوة ، لكنهم **لم يبيدوا** . لقد **دحروا** ، لكن اعداءهم **هزموا** . لقد بدد الانتصار المؤقت للقوة الوحشية جميع أوهام ثورة شباط ؛ أظهر للعيان انحلال كل الحزب الجمهوري القديم وانقسام الامة الفرنسية الى قسمين : أمة المالكين وأمة العمال . ومن الان فصاعدا لم يبق للجمهورية المثلثة الالوان سوى **لون واحد** ، لون المهزومين ، **لون الدم** . لقد اصبحت **الجمهورية الحمراء** .

«لقد كانت ثورة شباط ثورة عظيمة ، ثورة التعاطف العام ، اذ ان التناقضات التي برزت فيها

فيما بعد كانت لا تزال في حالة الكمـــون ، كما ان الصراع الاجتماعي الذي كان في اساسها لم يكن بعد الا لفظيا . أما ثورة حزيران فقد كانت ، على العكس، ثورة مثيرة للنفور ، لان الفعل حل محل القول ، ولان الجمهورية ذاتها كشفت رأس المسخ بنزعها عنه التاج الذي كان يحجبه .

«هل يجوز لنا ، نحن الديموقراطيين ، ان ننخدع بالهوة العميقة التي تفغر فاها امام أعيننا، وأن نحسب ان النضال في سبيل أشكال الدولة وهمي لا يفضـي الى نتيجة ؟

«ان النفوس الضعيفة ، الرعديدة ، هي وحدهـا التي يمكن ان تطرح ذلك السؤال . انه لمن واجبنـــا الانتصار بالنضال في الصراعات التي تنشأ عن شروط المجتمع البورجوازي بالذات ، والتي لا سبيل الـــى تسويتها بالتوهمات الخيالية . فأفضل شكل للدولة هو الشكل الذي لا تستتر فيه التطاحنات الاجتماعية، ولا تضغط بالقوة ، اي بصورة مصطنعة وسطحية. ان أفضل شكل للدولة هو الشكل الذي تتصادم فيه تلك التطاحنات بحرية في مجرى الصراع ، وتجد بالتالي عن هذا السبيل حلها .

«لكن قد يسألنا سائل : ألن نذرف دمعة واحدة ، ألن نزفر زفرة واحدة ، ألن ننبس ببنت شفة مـــن اجل ضحايا الحنق الشعبي ، من اجل الحـــــرس القومي ، والدرك ، والحرس الجمهوري ، والقـــوات المقاتلة ؟

«ستهتم الدولة بأراملهم وأيتامهم ، وسترفعهم الى الاوج مراسيم ، وستقـــام لهم جنازات عظيمـــة ،

وستطوبهم الصحافة الرسمية من الخالدين ، ومن الشرق الى الغرب ستمجد الرجعية الاوروبية اسماءهم .

«لكن عامة الشعب ، الذين عضهم الجوع بنابه ، وغشتهم الصحافة ، وهجرهم الاطباء ، ونعتهم **المواطنون** «الشرفاء» باللصوص ومضرمي الحرائق والاشقياء ؛ ونساؤهم وأولادهم الذين قضي عليهم بالبؤس الاسود ؛ وممثلوهم الناجون من المذبحة والمنفيون الى ما وراء البحار ... انه لامتياز للصحافة الديموقراطية وحق لها ان تضفر حول جباههم القاتمة اكليل الغار» .

لقد كتب هذا المقال في ٢٨ حزيران ١٨٤٨ . ومن غير الممكن ان يكون قد كتب بريشة ديموقراطي . ان شيوعيا ، ولا احد غير الشيوعي ، يمكن ان يكون مؤلفه ، وما كان لماركس وانجلز ان يخدعا احدا بتكتيكهما . فتوقفت صحيفتهما عن تلقي اي عون مالي من البورجوازية الديموقراطية ، وصارت حقا وفعلا جريدة عمال كولن ، جريدة العمال الالمان .

في اثناء ذلك ، كان الاعضاء الآخرون في **رابطة الشيوعيين** ، المشتتون في جميع انحاء المانيا ، يوالون عملهم . ويخيل الي انه يتوجب عليّ أن أخص بالذكر واحدا منهم : ايتيين بورن ، عامل الطباعة . يصدر انجلز عليه حكما في غير صالحه في مقدمة لكراسة لماركس . فقد اختار بورن تكتيكا آخر . فمنذ وصوله الى المانيا استقر في برلين ، المركز العمالي الهام ، وجعل هدفه تأسيس تنظيم عمالي كبير . وبمساعدة بعض رفاق له ، أسس صحيفة صغيرة **الاخاء العمالي** ، وقام بتحريض منظم بين مختلف فئات العمال . ولم يكتف ، كما فعل غوتشالك وفيليبش في كولن ، بتنظيم جمعية عمالية محض سياسية . وانما شرع بتنظيم

جمعيات شتى بغية الدفاع عن المصالح الاقتصادية للعمال ، وانصرف بكل طاقته الى العمل والنشاط ، فاذا بتنظيمه يمتد الى جملة من المدن المجاورة والى مناطق اخرى من المانيا . لكن هذا التنظيم كان يشكو من ثغرة . فقد كان عماليا صرفا ، وكان يلح، شأن «الاقتصادوية» الروسية فيما بعد ، إلحاحا مجاوز الحد على المهام الاقتصادية الصرف للطبقة العاملة . وهكذا ، وفيما كان بعض اعضاء **رابطة الشيوعيين** من أمثال بورن ، وهو رجل موهوب ، ينشئون تلك التنظيمات العمالية الصرف ، كان غيرهم ، ومن ضمنهم ماركس ، يبذلون كل ما بمستطاعهم ، في جنوب المانيا ، لتحويل الحزب الديموقراطي بحيث تكون الطبقة العاملة نواته وبحيث يكون على اقصى حد من الديموقراطية . وفي هذا الاتجاه كان ماركس يوالي عمله . وكانت **الصحيفة الراينية الجديدة** تعالج المسائل الهامة قاطبة ، وهي تبقى الى اليوم نموذجا للجريدة الثورية . وما من جريدة روسية او اوروبية وصلت الى مستوى **الصحيفة الراينية الجديدة** . وعلى الرغم من مضي ما يناهز خمسة وسبعين عاما على كتابة مقالاتها ، فان هذه المقالات لم تفقد شيئا من نضارتها ، من حميتها الثورية ، ومن نفاذ تحليلها للاحداث . وعند قراءتها ، وعلى الاخص مقالات ماركس منها ، يخيل للمرء انه يسمع تاريخ الثورة الالمانية والثورة الفرنسية يسرد نفسه من تلقاء نفسه ، وذلك لما في أسلوبها من حيوية ، وفي مضمونها من عمق .

ماذا كانت النقطة المركزية في السياسة الداخلية والخارجية **للصحيفة الراينية الجديدة** ؟ قبل الانتقال الى هذا السؤال ، بودي ان ألفت انتباهكم الى ان ماركس وانجلز ما كانت لهما من تجربة بالثورة غير تجربة الثورة الفرنسية الكبرى . فقد درس ماركس تاريخها بعناية ، وبذل ما بمستطاعه كي يستخلص منها المبادىء التكتيكية الواجب اتباعها في زمن الثورة المقبلة التي

تنبأ بها ، بخلاف برودون ، بسداد وصواب . والحال ، ماذا تعلمنا تجربة الثورة الفرنسية ؟ لقد اندلعت تلك الثورة في ١٧٨٩ . وقد دامت عقدا كاملا من الزمن ، من ١٧٨٩ الى ١٧٩٩ ، اي الى عام قيام نابليون بانقلابه . وكانت تجربة الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر تشير ايضا الى ان الثورة المقبلة ستكون بدورها طويلة الامد على الارجح . كانت الثورة قد اندلعت شرارتها الاولى وسط الفرح والحماسة العامة، وكانت البورجوازية قد ترأست الشعب الرازح تحت نير الاضطهاد ، وأطاحت بالحكم المطلق، وانما بعد انتصارها فحسب تطور صراعها ، وفي إبان هذا الصراع ، هذه الثورة الاكثر جذرية ، انتقلت السلطة اكثر فأكثر الى الاحزاب المتطرفة . وعلى مدى ثلاث سنين دارت رحى ذلك الصراع حتى إستولى اليعاقبة في خاتمة المطاف على مقاليد السلطة . وقد خيل لماركس ، الذي درس بعناية تنظيم حزب اليعاقبة السياسي ، انه انما اثناء التطور الطويل الامد للثورة يتم التوصل الى تنظيم قوة تكون قد تكونت تدريجيا في إبان العمل والنشاط

هذه المقدمة النظرية هي التي تفسر خطأه . وقد تمسك بذلك الرأي ردحا طويلا من الزمن ، ولم يقلع عنه الا بعد تعاقب أحداث عديدة . وقد كانت الهزيمة الحزيرانية للبروليتاريا الباريسية أول ضربة تسدد الى الثورة في الغرب. وقد اتاحت فورا للرجعية ان ترفع رأسها في بروسيا والنمسا . والحال انه كانت تقف خلف بروسيا والنمسا روسيا وقيصرها نيقولا الاول الذي عرض، منذ البداية ، مساعدته على ملك بروسيا . وفي بادىء الامر ردت بروسيا عرضه فيما يتعلق بالقوة المسلحة ، لكنها قبلت المال . وكان نيقولا الاول يملك يومئذ اعظم احتياطي للذهب في اوروبا . ووضع المال تحت تصرف الحكومة البروسية . وعرض نيقولا الاول كتائب روسية على الحكومة النمسوية التي كانت هنغاريا قد شهرت راية العصيان ضدها . وتم قبول الاقتراح .

بالاستناد مجددا الى تجربة الثورة الفرنسية، قالت **الصحيفة الراينية الجديدة** بالتكتيك التالي . ان الحرب ضد روسيا هي وسيلة الخلاص الوحيدة لثورة اوروبا الغربية التي آذاها اندحار البروليتاريا الباريسية . ويظهر تاريخ الثورة الفرنسية للعيان ان هجوم الائتلاف الرجعي على فرنسا قد اعطى الحركة الثورية دفعا جديدا . فالاحزاب المعتدلة وجدت نفسها وقد نحيت جانبا . وتولت قيادة الحركة الاحزاب التي عرفت كيف ترد بأصلب عزم العدوان الخارجي . وقد أدى هجوم الائتلاف على فرنسا الى اعلان قيام الجمهورية في ١٠ آب ١٧٩٢ . وكان ماركس وانجلز يأملان ان تتمخض حرب الرجعية على الثورة الجديدة عن النتائج عينها . لهذا كانت **الصحيفة الراينية الجديدة** تنتقد روسيا بعنف ؛ فتصورها قوة تقف دائما على أهبة الاستعداد لمساندة الرجعية النمسوية والالمانية . وكان كل مقال يبين ان الحرب ضد روسيا هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ الثورة . وكانت الصحيفة تسعى جهدها الى تهيئة الديموقراطية لتلك الحرب بوصفها المخرج المعقول الوحيد . وكان ماركس وانجلز ، أكرر ذلك ، مثابرين بكل ما اوتيا من جهد ليثبتا ان الحرب ضد روسيا ستعطي الثورة دفعا جديدا ، وستعزز الصبوات الثورية لدى الشعب الالماني . لهذا كانا يدافعان في جريدتهما عن كل حركة معارضة موجهة ضد النظام القائم . فكانا المدافعين الاكثر حماسة عن الثورة المجرية ؛ وأيدا البولونيين الذين كانوا قد قاموا قبل مدة وجيزة بمحاولة تمرد جديد . وكانا يطالبان بإحياء بولونيا المستقلة ، ويطالبان بأن تعيد المانيا والنمسا الى بولونيا جميع الاقاليم التي انتزعتاها منها ، وبأن تحذو روسيا حذوهما . ولما كانا يحبذان اتحاد المانيا برمتها في جمهورية واحدة ، فقد طالبا الدانمرك باعادة بعض المناطق الالمانية ، خلا الاجزاء التي يغلب عليها العنصر الدانمركي من تلك المناطق . وبكلمة واحدة ، لبثا

وفيين في كل مكان للاطروحة الاساسية في «**البيان الشيوعي**» ، ومحضا تأييدهما لكل حركة ثورية تعارض النظام القائم . بيد اننا لا نستطيع ان نكتم عن انفسنا (وستلاحظون ذلك بأنفسكم حين ستتاح لكم ، بعد بضعة اشهر ، امكانية قراءة المقالات التي نشرها ماركس وانجلز في **الصحيفة الراينية الجديدة** بالروسية) أن الجانب السياسي هو الغالب في تلك المقالات الباهرة . ففيها يوجه النقد بصورة متواصلة الى الافعال السياسية للبورجوازية وللبيروقراطية . وتكرس **الصحيفة الراينية الجديدة** مكانا قليلا نسبيا للمسألة العمالية . ومن المفيد ، من هذه الزاوية ، أن نقارن بين جريدتي ماركس وبورن . فجريدة هذا الاخير تشبه صحيفة حرفية تعاونية . وأكبر اهتمامها توليه للمسألة العمالية. وليس كذلك حال **الصحيفة الراينية الجديدة** . فهي لا تكاد تتعرض لهذه المسألة . انها تنتقد بعنف بيان الحقوق الاساسية للشعب الالماني . وتنتقد كل التشريع المتشرب بروح النزعة الليبيرالية القومية . وتذود بقوة عن حياض الفلاحين . وتبرهن للبورجوازية ان عليها ان تطالب بتحرير الفلاحين . لكنها قليلة للغاية المقالات المكرسة لمطالب الطبقة العاملة حتى نهاية ١٨٤٨ . ولا نقع على أثر لهذه المطالب في أي موضع من **الصحيفة الراينية الجديدة** التي كانت غارقة بتمامها تقريبا في مهمتها السياسية الاساسية ، أي في شحذ الاهواء السياسية وتأجيجها والدعوة الى تكوين قوى ثورية ديموقراطية قادرة على تحرير المانيا دفعة واحدة من جميع مخلفات العهد الاقطاعي .

لكن في أواخر ١٨٤٨ تغير الوضع . فالرجعية ، التي كانت قد بدأت تعزز مواقعها بعد هزيمة البروليتاريا الباريسية في حزيران ، شمخت بأنفها اكثر في تشرين الاول ١٨٤٨ . وساهم سحق البروليتاريا المجرية بمساعدة الروس في دحر الحركة في برلين . واستعادت الحكومة البروسية رباطة جأشها وشجاعتها : ففي كانون الاول ١٨٤٨ حلت الجمعية الوطنية وفرضت على البلاد

دستورا تولت وضعه بنفسها. والحال ان البورجوازية البروسية، بدلا من ان تقابل في ذلك الحين السلطة الملكية بمقاومة صلبة ، بذلت قصارى جهدها لتحقيق الاتفاق بين هذه السلطة وبين الشعب .

اما ماركس فكان يبرهن ، على العكس ، أن السلطة الملكية قد كابدت من هزيمة في آذار ١٨٤٨ وأنه لا مجال لاتفاق معها . وانما يتوجب على الشعب ان يضع لنفسه دستوره من دون أن يقيم وزنا للسلطة الملكية ، وأن يعلن المانيا جمهورية واحدة وغير قابلة للقسمة . لكن الجمعية الوطنية ، التي كانت الغلبة فيها للبورجوازية الليبيرالية الديموقراطية ، كانت تتوجس خيفة من قطيعة نهائية بينها وبين الحكم الملكي . ولهذا واصلت انتهاج سياستها التوفيقية الى ان جرى حلها .

وأمسى واضحا عندئذ لماركس انه من المستحيل الاعتماد حتى على القسم الاكثر راديكالية من البورجوازية الالمانية . فالشطر الديموقراطي من البورجوازية ، الذي كان من الممكن عقد الآمال على قدرته على انتزاع حريات سياسية تفسح في المجال امام تطور الطبقة العاملة ، أثبت عجزه عن انجاز تلك المهمة . وإليكم وصف ماركس لتلك البورجوازية في كانون الاول ١٨٤٨ بعد التجربة المحزنة لجمعيتي برلين وفرانكفورت :

«لئن تباهت ثورتا ١٦٤٨ و١٧٨٩ بأنهما قادتا عملا ابداعيا ، فان برلينيي ١٨٤٨ قد راهنوا بشرفهم على ان يكونوا من آبدات التاريخ . كان نورهم أشبه بنور النجوم الواصل الى سكان الارض بعد عشرة آلاف سنة من انطفاء الكوكب الذي صدر عنه . ولقد كانت الثورة **البروسية في آذار** صورة مصغرة لكوكب من ذلك النوع بالنسبة الى اوروبا . وكان نورها نور جثة

اجتماعية مر عهد طويل على تحللها .

«لقد تطورت البورجوازية الالمانية برخاوة وخوف وبطء بالغ الى حد انها رأت نفسها ، لحظة انتصابها ضد الاقطاع والحكم المطلق ، تقف موقف العداء من البروليتاريا ومن جميع شرائح السكان المدينيين الذين تتفق مصالحهم وأفكارهم مع مصالح البروليتاريا وأفكارها . لقد رأت انها تواجه عدوا لا في طبقة **وراءها** فحسب ، وانما في اوروبا كلها **امامها** . وبعكس البورجوازية الفرنسية في ١٧٨٩ ، لم تكن هي الطبقة التي تذود عن المجتمع الحديث قاطبة ضد ممثلي المجتمع القديم والملكية والنبالة . لقد انحطت الى مستوى فئة اجتماعية معارضة للملكية والشعب معا ، مترددة ازاء كل خصم من خصومها ، اذ انها كانت تجدهم على الدوام في مرمى نظرها إما امامها واما وراءها ؛ ومن البداية كانت تميل الى خيانة الشعب والى عقد تسوية مع الممثل المتوج للمجتمع القديم ، لانها تنتمي هي نفسها الى ذلك المجتمع القديم ؛ فهي لا تمثل مصالح المجتمع الجديد ضد القديم ، وانما تمثل مصالح متجددة في داخل مجتمع شائخ ؛ ولئن امسكت بدفة الثورة فليس لان الشعب يقف وراءها ، وانما لان الشعب كان يدفع بها امامه ؛ وقفت على الراس لا لانها تمثل مبادرة عصر اجتماعي جديد ؛ فهي شريحة من الدولة القديمة ، شريحة لم تشق لنفسها الطريق ؛ لكنها دفعت بقوة الانقلاب الى سطح الدولة الجديدة ؛ لا ثقة لها في نفسها ولا ايمان لها بالشعب ، تدمدم ضد الكبار ، ترتعد امام الصغار ، انانية تجاه هؤلاء وأولئك وواعية لانانيتها ، ثورية قياسا الى المحافظين ومحافظة قياسا الى الثوريين ، لا

ثقة لها في شعاراتها بالذات ، عندها جمل بدلا من افكار ، مذعورة من العاصفة العالمية ومستغلة لهذه العاصفة ، لا حول لها ولا قوة وتلجأ الى الانتحال في جميع الاتجاهات ، لا تدلل على ابتكار الا بدناوتها ، لا ثقة لها في ذاتها ولا ايمان لها بالشعب ، بلا دعوة تاريخية عالمية ، عجوز مقعد ، ملعون من الجميع ويرى نفسه في شيخوخته مكرها على توجيه الصبوات الفتوية لشعب قوي وعلى تنحيتها جانبا، عجوز اعمى، أصم ، أدرد (١) : تلك هي البورجوازية البروسية كما وجدت نفسها ، بعد ثورة آذار ، عندما تسلمت دفة قيادة الدولة» . .

هذا وصف سديد للغاية لبورجوازية ١٨٤٨ . وهو ينطبق ، كما ترون ، على البورجوازية الروسية حرفيا .

لقد رأى ماركس البورجوازية وهي تعمل . والآمال التي كان علقها في **البيان** ، وان بتحفظ كبير ، على البورجوازية التقدمية لم تتحقق . وعليه ، وابتداء من خريف ١٨٤٨ ، عدل ماركس وانجلز تكتيكهما في كولن بالذات وفي **الصحيفة الراينية الجديدة** . فقد نقل ماركس مركز ثقل عمله الى الاوساط البروليتارية ، وهذا من دون ان يمتنع عن تأييد الديموقراطية البورجوازية ، ومن دون ان يبت صلته عضويا بالحزب الديموقراطي . وبالتعاون مع مول وشابر ، عزز الدعاية في جمعية كولن العمالية التي كان لها ممثلها ايضا في **اللجنة الاقليمية للجمعيات الديموقراطية** . وبعد اعتقال غوتشالك ، انتخب مول رئيسا للجمعية العمالية ، مما

---

١ ــ الأدرد : من لا أسنان له . «م»

يظهر للعيان تعزز مواقع الشيوعيين . وآل التيار الاتحادي، الذي كان يتزعمه غوتشالك ، رويدا رويدا الى أقلية . وحين اضطر مول الى الهرب بصورة مؤقتة من كولن ، انتخب ماركس مكانه رغما عن رفضه المتكرر . وفي شباط ، في موعد انتخابات البرلمان الجديد ، وقعت خلافات في وجهات النظر . فقد ألح ماركس ومجموعته على ان يصوت العمال للديموقراطيين ، حيثما يعجزون عن انجاح مرشحيهم ، وهذا ما احتجت عليه الاقلية .

لكن الخلافات في وجهات النظر ، في آذار ونيسان ، بين العمال والديموقراطيين ، المتحدين في **اللجنة الاقليمية للجمعيات الديموقراطية** ، اخذت حدة بالغة لم يعد معها من الانشقاق مفر . وخرج ماركس ورفاقه من **اللجنة** . وسحبت الجمعية العمالية ممثلها وسعت الى الارتباط بالجمعيات العمالية التي نظمها بورن في شرق المانيا . ثم أعيد تنظيمها وحولت الى نادٍ مركزي له تسعة فروع او نواد عمالية . وفي آخر نيسان ، نشر ماركس وشابر نداء دعوا فيه جميع الجمعيات العمالية في الراينلاند ووستفاليا الى مؤتمر اقليمي كيما تنظم نفسها وتنتخب نوابا الى المؤتمر العمالي العام الذي يفترض فيه ان ينعقد في حزيران في لايبزغ .

لكن فيما انصرف ماركس ورفاقه الى تنظيم حزب الطبقة العاملة ، سددت ضربة جديدة الى الثورة . فقد قررت الحكومة البروسية ، التي كانت اقدمت على حل الجمعية الوطنية البروسية، ان تتخلص ايضا من الجمعية الوطنية الالمانية. ويومئذ بدأ ، في جنوب المانيا ، ما سمي بالنضال في سبيل دستور الامبراطورية .

كان على ماركس في كولن ان يلزم جانب الحذر الشديد بسبب وضعه . صحيح انه لم يكن مكرها على العمل سرا ، لكن كان من الممكن طرده من كولن بمحض أمر حكومي . وبالفعل ، كان ماركس قد حزم أمره ، تحت ضغط الملاحقات المتواصلة من قبل

الحكومة البروسية ، وبعد إبعاده عن باريس بناء على طلب هذه الاخيرة ، وتحسبا من ابعاده عن بلجيكا ايضا ، على ان يتخلى عن جنسيته البروسية ، ولكن من دون ان يتجنس بجنسية اخرى. وعليه ، حين عاد أدراجه الى كولن ، اعترفت به السلطات المحلية مواطنا في الراينلاند ، لكنهـــا طلبت موافقة سلطـــات برلين البروسية التي قررت ان ماركس خسر الحقوق المترتبة على صفة المواطنية البروسية . لهذا اضطر ماركس ، في الوقت الذي كان يبذل فيه مساعي عدة كي يستعيد حقوقه كمواطن بروسي ، الى تجنب المداخلات العامة في النصف الثاني من عام ١٨٤٨ . فحين كان المد الثوري يرتفع ، والوضع يتحسن ، كان يقوم بمداخلاته علنا ، لكن ما أن كانت كفة الرجعية ترجح وتتصاعد موجة القمع في كولن ، حتى كان يتوارى عن الانظار ، ويقصر عمله على الادب، أي على توجيه **الصحيفة الراينية الجديدة** . لهذا لم يقبـــل الا مكرها برئاسة جمعية كولن العمالية .

ترتبت على تعديل التكتيك تغيرات في **الصحيفة الراينيـــة الجديدة** . وانما بعد ذلك التعديل ظهرت المقالات الاولى عـــن **العمل المأجور والرأسمال** . وقد قدم ماركس لمقالاته بمدخل طويل شرح فيه لماذا لم تتطرق **الصحيفة الراينية الجديدة** بعد الـــى مسألة تناحر العمل والرأسمال . وينطوي ذلك المدخل على فائدة كبرى لانه يشير الى تغير في التكتيك ، لكن هذا التغير ، أكـــرر القول ، جاء بعد فوات الاوان . فقد حصل في شباط ؛ وفي ايار كانت الثورة الالمانية قد سحقت بصورة نهائية . وارسلت الحكومة البروسية قواتها الى جنوب شرقي المانيا . وكانت **الصحيفـــة الراينية الجديدة** أولى الضحايا . ففي ١٩ ايار صدر الامـــر بإغلاقها. وبين يدي العدد الاخير من تلك الصحيفة، العدد ٣٠١ ، ذلك العدد الاحمر المشهور الذي يبدأ بقصيدة شعر لفريليغراث ، يعقبها بيان جديد يحذر فيه ماركس العمال ويطالبهم بألا ينساقوا

وراء الاستفزاز . وغادر ماركس بعد ذلك الراينلاند . واضطر ، بصفته اجنبيا، الى مغادرة المانيا ؛ أما سائر المحررين فقد تبعثروا شتاتا واقاموا في اماكن مختلفة . وتوجه انجلز ومول وفيليش نحو متمردي الجنوب .

بعد بضعة اسابيع من مقاومة بطولية ، لكن رديئة التنظيم ، للقوات البروسية ، اضطر المتمردون الى الالتجاء الى سويسرا . وانتقل الاعضاء السابقون في هيئة تحرير **الصحيفة الراينية الجديدة** وجمعية كولن العمالية بسكناهم الى باريس ، لكنهم لوحقوا بعد مظاهرة ١٣ حزيران ١٨٤٩ المجهضة ، واضطروا الى مغادرة فرنسا . وفي مطلع ١٨٥٠ كان جميع أفراد الرعيل الاول من **رابطة الشيوعيين** تقريبا قد اجتمعوا من جديد في لندن . وكان مول قد لقي مصرعه اثناء التمرد في جنوب المانيا . وقدم كل من ماركس وانجلز وشابر وفيليش وولف الى لندن .

في بادىء الامر لم يقطع ماركس وانجلز ، كما نتبين من مقالاتهما ، حبل الرجاء : فقد كانا يحسبان ان الحركة أصابها توقف عارض ولا مفر من ان تعقبه اندفاعة ثورية جديدة . وحتى لا تفاجئهما الاحداث على حين غرة ، سعيا الى تعزيز تنظيمهما والى ربطه بألمانيا بأوثق الروابط الممكنة . وأعيد تنظيم **رابطة الشيوعيين** القديمة : فضمت الاعضاء القدامى وعناصر جديدة جرى تجنيدها من سيليزيا وفروكلاف والراينلاند .

بيد انه لم تتصرم أشهر قليلة حتى برزت خلافات في وجهات النظر في «**الرابطة**» بين الشيوعيين اليساريين والشيوعيين اليمينيين . وسوف أعرض عليكم موضوع الخلاف .

في مطلع ١٨٥٠ كان ماركس وانجلز يؤمنان بأنه لن يطول بهما انتظار انطلاقة جديدة للثورة . وفي ذلك الزمن وجهت **رابطة الشيوعيين** نشرتيها المشهورتين اللتين كتبهما ماركس بصورة رئيسية . ولينين يحفظهما عن ظهر قلب ، اذا جاز القول ،

ويستشهد بهما باستمرار .

حتى نفهم تينك النشرتين حق الفهم ، يجب أن نتذكر الاخطاء التي ارتكبها ماركس وانجلز اثناء ثورة ١٨٤٨ . تظهر النشرتان للعيان انه من الواجب توجيه الانتقاد الصارم لا الى الليبيرالية البورجوازية فحسب ، بل ايضا الى الديموقراطية . ومن الواجب تركيز الجهود كافة لمعارضة التنظيم الديموقراطي بتنظيم عمالي؛ ومن الواجب في المقام الاول انشاء حزب عمالي . ولا يجوز التوقف عن ضرب ظهور الديموقراطيين بالسياط . فكل مطلب من مطالبهم ينبغي الرد عليه بمطلب اكثر جذرية. يطالب الديموقراطيون بيوم عمل للعمال من تسع ساعات ؛ فنطالب بيوم عمل من ثماني ساعات . يطالبون بمصادرة الملكية العقارية الكبيرة مع تعويض ؛ فنطالب بمصادرتها بلا قيد ولا شرط . يتوجب علينا ، بجميع الوسائل ، أن ندفع بالثورة الى الامام ، أن نجعلها دائمة ، أن نطرحها باستمرار على جدول الاعمال . وليس لنا ان ننام على أمجادنا ، وأن نكتفي بالانتصارات التي يتم انتزاعها . فكل مكسب يجب ان يكون مرقاة الى مكسب تالٍ . والاعلان عن انتهاء الثورة يعني خيانتها . ومن الواجب العمل على نحو يتقوض معه النظام الاجتماعي والسياسي من جوانبه كافة ، ويتفتت شيئا فشيئا ، وذلك ما دمنا لما نظهره بعد من جميع مخلفات التطاحن الطبقي القديم .

بصدد تقييم «الموقف الراهن» بدأت الخلافات . فماركس ، الوفي لمنهجه ، كان ينطلق ، بعكس خصومه الذين يقودهم شابر وفيليبش، من واقع ان كل ثورة سياسية هي نتيجة بعض الشروط الاقتصادية ، نتيجة ثورة اقتصادية معينة . فثورة ١٨٤٨ قد سبقتها ازمة ١٨٤٤ التي طالت اوروبا بأسرها تقريبا ، غدا أمصار الشرق النائية . والحال ان ماركس ، عند تحليله في لندن الموقف الاقتصادي الجديد ووضع السوق العالمية ، اقتنع بأن

الموقف ليس موائما لانفجار ثوري ، وأن غياب ذلك النهـــوض الثوري الذي كان ينتظره مع رفاق آخرين لا يكمن تفسيره الاوحد في انعدام المبادرة ونقص العزم والاقتدار لدى الثوريين . وفي نهاية ١٨٥٠ قاده التحليل المفصل للموقف الآني الى الاستنتـــاج بأن كل محاولة لاعتناق الثورة والتعجيل بها وتنظيم انتفاضة ثورية ستنتهي ، بحكم الازدهار الاقتصادي السائد يومئذ ، الى هزيمة محتمة بقدر ما هي لامجدية . فقد كان الرأسمال الاوروبـــي يومئذ في شروط تطور مناسبة للغاية . وكان قد تم اكتشاف مناجم ذهب فائقة الغنى في كاليفورنيا وأوستراليا حيث كـــان العمال يتدفقون بأعداد كبيرة . وعلت في ١٨٥٠ موجة الهجـرة الاوروبية التي كانت قد بدأت في النصف الثاني من عام ١٨٤٨ .

ان تحليل الشروط الاقتصادية هو الذي أفهم ماركس اذن ان الثورة في تراجع وتقهقر ، وأنه لا بد من انتظار ازمة اقتصادية جديدة تخلق شروطا مناسبة لتجديد الحركة الثورية . لكـــن اعضاء **رابطة الشيوعيين** ما كانوا جميعهم يشاطرون ماركس وجهة نظره تلك . وكان اكثر من يماري فيها العناصر التي لم يكن لديها ثقافة ماركس وعلمه الاقتصادي ، والتي كانت تعزو اهميـــة مسرفة الى المبادهة الثورية لبعض الشخصيات القوية الشكيمة . وتضافر فيليش ، الذي كان قد أشعل مع غوتشالك في ٣ آذار شرارة الثورة في كولن ولعب دورا كبيرا في انتفاضة جنـــوب المانيا ، تضافر مع شابر وعدد من اعضاء **رابطـــة الشيوعيين** المنتسبين الى اتحاد كولن العمالي والمحازبين القدامى لفيتلنغ ، ودعوا الى تنظيم انتفاضة . وكان يكفي في رأيهم توفير الكمية اللازمة من المال وحشد بعض الرجال من أهل العزم والتصميم حتى يشتعل فتيل انتفاضة في المانيا . وصبوا جهودهم يومئذ على تدبر المال . وحاولوا الحصول على قرض من اميركا لإضرام نار الثورة في المانيا . ورفض ماركس وانجلز وبعض من رفاقهما

الاقربين المشاركة في تلك الحملة . وفي نهاية الامر وقع انشقاق ، فانقسمت **رابطة الشيوعيين** الى قسمين : جماعة ماركس وانجلز وجماعة فيليش وشابر .

في تلك الفترة ، مني الفرع الالماني من «**رابطة الشيوعيين**» بفشل . وكان ماركس وانجلز قد حاولا منذ ١٨٥٠ ، وفي اثناء اعادة تنظيم **رابطة الشيوعيين** في لندن ، ان يعيدا تنظيم تلك **الرابطة** في المانيا وأن يعززاها ويقوياها . وقد جرى ارسال عدد من العملاء الى ذلك القطر ليتبادلوا الرأي مع الشيوعيين الالمان . وتم اعتقال واحد منهم . ووجدت معه اوراق سمحت للامن العام البروسي ، بقيادة ستايبر المشهور ، بأن يكتشف رفاقه . وأوقف عدد كبير من الشيوعيين . وحتى تظهر الحكومة البروسية للبورجوازية البروسية انه ليس لها ان تتباكى وتتحسر على الحريات القليلة التي كانت قد جردت منها في عام ١٨٥٠ ، عقدت العزم على تنظيم محاكمة كبرى للشيوعيين في كولن . وحكم على العديد من الشيوعيين ، وبينهم لسنر وبيكر ، بعقوبات سجن طويلة الامد . وأماطت المحاكمة اللثام عن مشاركة عدد من الجواسيس في المشروع ، وأتاحت الفرصة لاكتشاف ما لجأ اليه ستايبر وعملاؤه من تزوير لمحاضر ضبط الجلسات وشتى ضروب شهادات الزور . وبناء على قرار مجموعة الشيوعيين الذين بقوا مع ماركس ، كتب هذا الاخير حول موضوع محاكمة **رابطة الشيوعيين** كراسة فضح فيها شتى أحابيل الشرطة البروسية ومكائدها . لكن المحكومين لم يجنوا كبير فائدة من ذلك . ولما انتهت المحاكمة خلص ماركس وانجلز ورفاقهما الى الاستنتاج بأن **رابطة الشيوعيين** عاجزة ، نظرا الى الوضع والى انقطاع كل صلة بألمانيا ، عن إتيان أي عمل كان ، وأنه لا مناص من انتظار زمن أنسب ، وفي نهاية ١٨٥٢ أعلنوا رسميا حل تلك **الرابطة** . اما القسم الآخر من **رابطة الشيوعيين**، أعني مجموعة شابر وفيليش، فقد بقي على قيد الحياة الخاملة عاما آخر من الزمن . ورحل

بعض من اعضائه الى اميركا . وبقي شابر في لندن . وبعد بضع سنوات فهم انه اقترف غلطة في ١٨٥٢ ، وتصالح مع ماركس وانجلز . وسأعرض عليكم في المرة القادمة ما فعله ماركس وانجلز اثناء الفترة التي حرما فيها من امكانية العمل الثوري المباشر .

المحاضرة السادسة

[الردة مـــــن عام ١٨٥٢ الى ١٨٦٢ ـ «تريبيون» النيويوركية ـ حرب القرم ـ آراء ماركس وانجلز ـ المسألة الايطالية ـ مناقشة ماركس وانجلز مع لاسال ـ المناظرة مع فوغت ـ موقف ماركس من لاسال] .

قلت لكم في المرة السابقة ان تصفية **رابطة الشيوعيين** في ١٨٥٢ أدت بماركس وانجلز الى وقف كل نشاط سياسي مباشر طوال سنوات عديدة . وسأحاول الان ان أسلط الضوء علـــى الحقبة المتصرمة من عام ١٨٥٢ الى حين تأسيس **الاممية الاولى** ، وأن أشرح لكم لماذا لم يكن امام ماركس وانجلز من خيار ، اثناء تلك الحقبة ، غير الامتناع عن العمل والنشاط .

ان الردة ، التي بدأت في ١٨٤٩ ، والت تعزيز مواقعها .

وأدركت أوجها في عام ١٨٥٤ . فقد ألغيت الحريات السياسية قاطبة . وحظرت الاتحادات العمالية جميعا . وكانت حرية الصحافة قد ألغيت في النصف الثاني من عام ١٨٤٩ . وحافظت بروسيا على مجلس للنواب ، لكنه كان مجلسا مغرقا في رجعيته.

كان على ماركس وانجلز آنئذ ان يتدبرا حلا لمسألة شائكة للغاية هي مسألة حياتهما المادية ؛ كان واجبا عليهما ان يتدبرا خبزهما اليومي ، لان العبقري النابغة بحاجة ، نظير اي انسان آخر ، الى ان يأكل . ومن الصعب ان نتصور كم كان وضعهما يومئذ عسيرا . كان انجلز ، ابن صناعي غني صاحب معامل في المانيا وانكلترا ، قد اختلف اختلافا عنيفا مع والده ، وما كان يريد ان يذهب ليتذلل اليه . وقد سعى هو وماركس الى تدبر عمل فكري ما، لكن الابواب في المانيا كانت مسدودة فيوجهيهما. وما كان متاحا لهما ، في اميركا ، ان يعملا الا في جرائد عمالية ، لكن التعاون مع أشباه تلك الجرائد ما كان يدر شيئا .

عندئذ كتب ماركس لحساب مجلة اميركية أثره التاريخي الاكثر نبوغا : **١٨ برومير لويس بونابرت** . انه تاريخ ثورة شباط. وفيه يبيّن ماركس كيف حدد صراع الطبقات مصير تلك الثورة ، وكيف خانت شتى احزاب البورجوازية ، بما فيها طرفها الاكثر ديموقراطية ، عن طواعية واغتباط ، او بدون ارادتها وهي تذرف العبرات ، كيف خانت جميعها البروليتاريا وأباحتها للجنرالات والجلادين ، وكيف تهيأت تدريجيا الشروط التي اتاحت لرجل عادم الاهلية مثل نابليون الثالث ان يستولي على السلطة .

كان وضع ماركس المادي قد زاد سوءاً على سوء . وأثناء السنوات الاولى من اقامته في لندن ، فقد اثنين من اولاده ، ابنا وبنتا . وحين قضت هذه الاخيرة نحبها ، ما كان عنده مال حتى لدفنها .

وقرر انجلز عندئذ مكرها ان يعود الى «مهنته الخسيسة» ، كما كان يسمي التجارة ، وأن يقبل بوظيفة مستخدم في الفرع

الانكليزي من معمل والده . فقصد مانشستر . وفي البدء ، لم يكن الا مستخدما بسيطا . وكان عليه ان يكسب ثقة والده وثقة ادارة الفرع ، وان يظهر انه يعرف كيف يكون تاجرا جيدا .

لبث ماركس في لندن . ولم يكن قد بقي من **رابطة الشيوعيين** سوى عدد صغير من العمال المتجمعين حول **جمعية التثقيف الشيوعي** والمتعيشين من مزاولة مهنهم كخياطين وعمال طباعة . وفي أواخر ١٨٥١ أتيحت لماركس ، على نحو لامتوقع ، امكانية العمل في صحيفة اميركية ، **تريبيون** النيويوركية التي كانت عهدئذ واحدة من اوسع الصحف نفوذا . وقد سأله واحد من محرريها ان يكتب سلسلة من المقالات عن المانيا . وكان ذلك المحرر، ويدعى تشارلز دانا ، قد قدم الى المانيا اثناء ثورة ١٨٤٨ وتعرف فيها الى ماركس . وكان قد اقام في كولن وعرف مواهب ماركس الصحفية . ولما كانت هجرة الالمان الى اميركا قد تزايدت نسبتها كثيرا في إبان الثورة ، فقد ارتأى انه من الضروري توسيع الباب المخصص لشؤون اوروبا الغربية برسم تلك الفئة من القراء . وقد سبب عرض التعاون الذي عرضه على ماركس حرجا كثيرا لهذا الاخير ، اذ كان يومئذ عاجزا عن الكتابة بالانكليزية . وقصد ماركس انجلز ، وقام عندئذ بينهما تعاون غريب للغاية . كما ذكرت لكم ، كان ماركس قد كتب بمفرده تقريبا **البيان الشيوعي** ؛ بيد ان «البيان» مهر بإمضاء ماركس وانجلز ، بالرغم من ان هذا الاخير لم يشارك في انشائه اكثر مما شارك في انشاء **الاسرة المقدسة** . على ان انجلز قام عهدئذ بعمل كبير . وقد نسبت مقالاته ، التي جمعت فيما بعد في مجلد واحد بعنوان **الثورة والثورة المضادة في المانيا** ، الى ماركس . لكننا نعرف اليوم ، من مراسلات ماركس مع انجلز، انها من وضع هذا الاخير. بيد انه ينبغي لنا ان نحذر المغالاة . فهي في الواقع من تأليف ماركس وانجلز المشترك ، لكن انجلز هو الذي حررها اعتمادا على

ارشادات عدة من ماركس ، وكذلك على مختلف المقالات التي نشرها هو وصديقه في **الصحيفة الراينية الجديدة** . وعلى ذلك بدأ تعاون ماركس مع **تريبيون** النيويوركية . وبعد زهاء عام من الزمن كان ماركس قد استوعب الانكليزية الى حد مكنه من الشروع بكتابة مقالاته مباشرة بتلك اللغة .

في عام ١٨٥٣ اذن ، بات في متناول ماركس منبر للتعبير عن آرائه . ومن سوء الحظ ان ذلك المنبر لم يكن في اوروبا ، وانما في اميركا . وكان قراء الصحيفة يبحثون فيه عن جواب لاسئلتهم . وكانت اميركا تولي يومئذ اهتماما كبيرا لاحداث اوروبا الغربية ، ولكن فقط بقدر ما تؤثر على أحداث اميركا . كانت المسألة الجوهرية بالنسبة الى الولايات المتحدة يومئذ هي مسألة تحرير الزنوج وإلغاء الرق . وكان لا يزال بين ولايات الشمال وولايات الجنوب مسألة اخرى مختلف عليها ، هي مسألة حرية التجارة .

في مسألة الرق ، كانت **تريبيون** النيويوركية التي يكتب فيها ماركس تقف الى اقصى اليسار . وكانت تؤيد الغاء الرق . أما في مسألة حرية التجارة ، فكانت تأخذ بوجهة نظر أنصار مذهب الحماية. وبديهي ان ماركس كان متفقا معها بصدد النقطة الاولى، لكن ليس بصدد النقطة الثانية . ومن حسن الحظ ان اوروبا كانت تقدم مواد كافية لمواضيع اخرى .

في ربيع ١٨٥٣ تسارعت الاحداث في اوروبا ، لكن ما ينبغي ان نلاحظه ان ذلك التسارع لم يكن بنتيجة ضغط الجماهير الشعبية . كانت عدة دول كبرى ، من أمثال روسيا وفرنسا وانكلترا ، وجميعها معنية على قدر سواء باستتباب النظام ، قد طفقت على حين بغتة تتخاصم . وتلك هي السمة المميزة للطبقات السائدة والامم السائدة : فما ان تنعتق من خوف الحركة الثورية حتى تنشب الخلافات فيما بينها . وهكذا انفجر من جديد التنافس الذي كان قائما بين انكلترا وفرنسا وروسيا قبل ثورة

١٨٤٨ ، والذي كان قد أخلى مكانه ، انحنـــاء امام الضرورة ، لتحالف مناهض للثورة . فقد بدا وكأن روسيا ، التي ساهمت في استتباب «النظام» في اوروبا الغربية ، تطالب بمكافأة على تلك الخدمة . وقد ارتأت انه آن الاوان لتنشب مخالبها فـــي شبه جزيرة البلقان ، ولتجرد تركيا من قسم من أملاكها. وتدعمت مواقع حزب الحرب في بلاد نيقولا الاول . وكان معقد رجائه ان فرنسا لن تكون في حالة تؤهلها لابداء مقاومة ما ، وان انكلترا بحكومتها المحافظة لن تنقض الاتفاق الودي القائـــم بينها وبين روسيا . ونشب في بادىء الامر خلاف حول مفاتيح قبر السيد المسيح ، وفي الواقع حول السيطرة على مضائق الدردنيل .

تصرمت بضعة شهور . وتفاقم الموقف الى درجة رأت معها فرنسا وانكلترا نفسيهما مضطرتين الى اعلان الحرب على روسيا، بالرغم من رغبتهما في تجنب مواجهة مسلحة تدركان انها لـــن تجدي فتيلا . وطرحت حرب القرم المسألـة الشرقية بكـــل وساعتها . وأتيحت عندئذ لماركس وانجلز ، وان في اميركا وليس في اوروبا ، امكانية العمل في المادة المهمة التي تقدمها لهما احداث الساعة . وتجدر الاشارة الى اغتباطهما كليهما بتلـــك الحرب . وبالفعل ، كانت الدول الرئيسية الثلاث في اوروبا وحصن الثورة المضادة فيها في سبيلها الى التقاتل والتمازق ؛ والحال انه عندما يتصارع اللصوص فيما بينهم فلن يكون الكاسب الا الشرفاء من الناس . من هذا المنظور كان ماركس وانجلز يريان الى تلـــك الحرب . وكان عليهما بعد ذلك ان يحددا الموقف الواجب اتخاذه من كل بلد من البلدان المتحاربة على حدة .

ارى ضرورة للتوقف عند هذه النقطة، لاننا رجعنا على الدوام في مسائل التكتيك تجاه الاطراف المتحاربة ، تلك المسائل التي لعبت دورا بالغ الاهمية اثناء ثورتينا الاثنتين ، وبخاصة اثنـــاء الاخيرة منهما ، الى التكتيك الذي انتهجه ماركس وانجلز فـــي

١٨٥٣ . ولقد كان يسود الاعتقاد في اوساطنا بشكل عام ان ماركس وانجلز انحازا فورا في حرب القرم الى جانب تركيا ضد روسيا . وبالفعل ، كان ماركس وانجلز يعزوان اهمية ضخمة الى القيصرية الروسية ، عماد الرجعية الاوروبية ؛ يعزوان اهمية كبرى الى الحرب ضد روسيا لانهما كانا يريان في حرب كتلك عاملا قمينا بتطوير الطاقة الثورية في المانيا بالذات . لهذا كان من المحتم ان يصفقا لحرب ضد روسيا . وفي المقالات التي كتباها معا متقاسمين العمل (تولى انجلز كتابة المقالات العسكرية بوجه خاص ، وماركس المقالات الدبلوماسية والاقتصادية) ، نالت روسيا نصيبا موفورا من نقد عديم الشفقة .

هل يترتب على ذلك ان ماركس وانجلز اخذا بناصر المدنية والانوار والتقدم ضد روسيا ، وأنهما ثارا على هذه الاخيرة كي يصطفا الى جانب الانكليز والفرنسيين المستنيرين والمتمدينين ؟ خطأ فادح أن نتصور ذلك . فالصديقان انتقدا في مقالاتهما فرنسا وانكلترا بقدر ما انتقدا روسيا . وفضحا بلا شفقة جميع محاولات نابليون وبالمرستون لتصوير تلك الحرب وكأنها حرب المدنية والتقدم ضد الهمجية الآسيوية . أما فيما يتعلق بتركيا ، التي لم تكن الا ذريعة تلك الحرب ، فمن الخطأ الاعتقاد ، كما يفعل غالبية الناس ، ان ماركس كان من أنصار تركيا . فلا ماركس ولا انجلز نسيا ان تركيا بلد أشد همجية وأكثر آسيوية حتى من روسيا . والحق ان انتقاداتهما لم توفر احدا من المتحاربين . وفي نظرهما لم يكن هناك سوى معيار واحد . فقد كانا يقلبان النظر في كل حدث بدالّة تأثيره على تسارع الثورة وعلى اشتداد ساعد الاندفاعة الثورية . ومن وجهة النظر هذه انتقدا مسلك انكلترا وفرنسا اللتين خاضتا غمار الحرب على كره منهما كما سبق ان ذكرت لكم ، اذ غصبهما عليها عناد نيقولا الاول الذي أشاح بلا اخذ ولا رد عن كل تسوية . وقد كان لتخوف الطبقات الحاكمة ما يبرره ؛ فالحرب طال أمدها اكثر مما

كان متوقعا . فقد بدأت في ١٨٥٣ ولم تنته الا في ١٨٥٦ بعقد صلح باريس . وقد اثارت في انكلترا وفرنسا غليانا شديدا بين الجماهير العمالية والفلاحية . وارغمت نابليون والحكام الانكليز على بذل جملة من الوعود والتنازلات . وانتهت الحرب بانتصار فرنسا وانكلترا وتركيا . اما بالنسبة الى روسيا فكانت بمثابة حافز على تحقيق «الاصلاحات الكبرى» . فقد اظهرت للعيان مدى عدم أهلية بلد يسوده نظام القنانة لمقارعة بلدان راسمالية. وصار من الواجب أن تطرح مسألة تحرير الفلاحين على جدول الاعمال .

لكن كانت لا تزال هناك حاجة الى صدمة كي تخرج اوروبا الهاجعة بعد الانفجار الثوري في ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ من سباتها خروجا نهائيا . فحين انفصل ماركس وانجلز عن جماعة فيليش وشابر ، كانا قد أعلنا ان ثورة جديدة لا يمكن ان تكون الا نتيجة انقلاب اقتصادي جديد عنيف ، وأنه كما كانت ثورة ١٨٤٨ نتيجة ازمة ١٨٤٧ فلا مناص من أن تكون الثورة الجديدة حصيلة ازمة اقتصادية جديدة . وكان الازدهار الاقتصادي ، الذي بدأ في ١٨٤٩ ، قد تقدم بقوة فائقة في السنوات التاليات حتى أن حرب القرم نفسها عجزت عن تسديد ضربة محسوسة اليه .

بل كانت الظواهر تشير الى ان الازدهار سيدوم الى ما لانهاية . وهذا مع ان ماركس وانجلز كانا راسخي اليقين في عام ١٨٥١ بأن الازمة التالية ستقع في ١٨٥٣ على أبعد تقدير . وكانت أبحاثهما القديمة (وبخاصة أبحاث انجلز) قد أدخلت في ذهنيهما ان الازمات ، تلك الطفرات ، تلك الانقطاعات الدورية في تطور الانتاج الراسمالي ، تتكرر كل ٥ ـ ٧ سنوات . وعلى اساس هذا الحساب كان من المفروض بالازمة التالية لأزمة ١٨٤٧ ان تحدث في ١٨٥٣ . لكن ماركس وانجلز أخطآ . فمرحلة التطور المتواصل للانتاج الراسمالي ، مقرونة بذبذبات صعود

وهبوط غير ذات شأن ، دامت حتى ١٨٥٧ . وفي ذلك العام فقط انفجرت الازمة . لكنها كانت ازمة ذات أبعاد منقطعة النظير قوة واتساعا .

استقبل ماركس بحماسة تلك الازمة ، بالرغم من انه ترتبت عليها عواقب مزعجة للغاية بالنسبة اليه . لم يكن كسبه من تعاونه مع **تريبيون** النيويوركية مرتفعا . فقد كان يتقاضى في البداية عن كل مقال ما يعادل عشرة روبلات ذهبية ، وهي تعرفة رفعت فيما بعد الى ١٥ روبلا . بيد ان هذا الكسب كان يسمح له بأن يعيش ، ولو عيشة الكفاف ، في السنوات الاولى من حياته كمهاجر الى لندن ، وهذا بمساعدة انجلز الذي كان يتولى العبء الاكبر من العمل لحساب الصحف الاميركية . فضلا عن ذلك ، كان ماركس يعمل بمثابرة في مؤلفه الاقتصادي الكبير ويجد الوقت ايضا للكتابة مجانا للصحيفة الميثاقية المركزية ، **الصحيفة الشعبية** .

بعد ازمة ١٨٥٧ تردى الوضع من جديد . فقد كانت الولايات المتحدة من اكثر الدول تأثرا بالازمة ، واضطرت **تريبيون** النيويوركية الى ضغط نفقاتها ، وفعلت ذلك على حساب مراسليها الاجانب . وغرق ماركس من جديد في الديون، واضطر الى البحث عن اي عمل ظرفي . ولبث على هذا الوضع المحرج حتى عام ١٨٥٩ . ثم عاد الى التعاون مع **تريبيون** النيويوركية التي لم يتركها نهائيا الا في عام ١٨٦٢ .

لكن لئن عانى ماركس في حياته الشخصية من مضايقات كثيرة ، فانه أحس ابتداء من عام ١٨٥٧ بالسعادة كثوري . وكما توقع ، كانت الازمة الجديدة العلة الرئيسية لسلسلة من حركات ثورية في عدد كبير من الاقطار . ففي اميركا انطرحت مسألة الغاء الرق بصورة ملحة ؛ وفي روسيا بات الغاء القنانة مطروحا على جدول الاعمال ؛ واضطرت انكلترا البورجوازية الى تعبئة قواها كافة لمواجهة انتفاضة واسعة النطاق في الهند الشرقية ؛

كذلك أمست اوروبا الغربية في حالة غليان .

كانت ثورة ١٨٤٨ قد تركت جملة من المسائل بلا حل . فإيطاليا بقيت مقسمة . وكانت اقاليمها الشمالية تقع تحت سلطان النمسا . وكانت المجر قد سحقت بمساعدة القوات الروسية ، وربطت من جديد بالنمسا . وكانت المانيا ، كما في السابق ، حشدا من إمارات ودول شديدة التفاوت فيما بينها ، وكانت تتقدمها جميعا بروسيا والنمسا الطامحة كل واحدة منهما الى فرض هيمنتها على الاتحاد الكونفدرالي الالماني .

منذ عام ١٨٥٨ برزت في جميع دول اوروبا الغربية حركة معارضة ثورية طرحت على جدول الاعمال من جديد المسائل القديمة المعلقة . ففي المانيا اشتد ساعد التيار المؤيد للتوحيد . واحتدم الصراع بين الحزب الوحدوي الجرماني الطامح الى وحدة المانيا قاطبة وبين الحزب الالماني المعتدل الذي يبوىء بروسيا مكانة الزعامة ويرى انه يتوجب على جميع الدول الالمانية، باستثناء النمسا ، ان تتحد حولها .

في ايطاليا ايضا تيقظت الصبوات القومية . اما في فرنسا ، حيث أدت ازمة ١٨٥٧ الى انهيار مشاريع عديدة وجرت أوخم عواقبها على الصناعة النسيجية ، فقد نمت وتطورت المعارضة البورجوازية الصغيرة وبدر عن المنظمات الثورية السرية، وبخاصة الجماعات البلانكية ، نشاط جديد . ودبت الحياة ثانية في أوصال الحركة العمالية ، وبخاصة في مجال البناء والنجارة ، بعد ان كانت خمدت تماما عقب هزيمة حزيران . وفي روسيا اخيرا حصلت سلسلة من افلاسات البيوتات التجارية ، وطرقت الحكومة رويدا رويدا باب الاصلاحات الليبيرالية .

سعت الحكومات الاوروبية ، وفي المقام الاول الحكومة الفرنسية ، الى تحويل انتباه الشعب نحو السياسة الخارجية تملصا من المصاعب الداخلية . واضطر نابليون ، الذي ذكرته

محاولة اغتياله على يد الثوري الايطالي اورسيني في كانون الثاني ١٨٥٨ ان شرطته ليست كلية القدرة والقوة ، اضطر الى ان يقيم اعتبارا للغليان المتعاظم . والتفافا منه حول تذمر الجماهير العمالية ، رفع شعار تحرير ايطاليا من النير النمسوي . وفي تلك السنة نفسها عقد اتفاقا سريا مع كافور ، وزير ملك سردينيا. فكما كانت بروسيا هي الدولة الاقوى بين دول المانيا المقسمة ، كذلك كانت مملكة سردينيا هي الاقوى في ايطاليا ، وقد غدت المحور الذي توحدت حوله البلاد قاطبة .

كانت الصحافة الرسمية تنادي علنا وجهارا بضرورة توحيد ايطاليا ، لكن الاتفاق الذي كان نابليون وعد بموجبه سردينيا بمساعدته كان له في الواقع مرمى مغاير تماما . فلم يكن بيت القصيد توحيد ايطاليا ، وانما توسيع ممتلكات سردينيا التي وعدت بمقاطعتي لومبارديا وفينيسيا. ومقابل ذلك يتلقى نابليون، فضلا عن الوعد بعدم المساس بممتلكات البابا ، مقاطعتي نيس والسافوا . والواقع ان نابليون ، الذي كان يتخبط بين المعارضة اليسارية والحزب الاكليريكي ، ما كانت له رغبة في خصام البابا ، ولهذا كان ضد التوحيد الحقيقي لايطاليا . ومن جهة اخرى كان يؤمّل ، عن طريق وضع اليد على اقليمين جديدين ، أن ينال رضى الوطنيين الفرنسيين .

على هذا النحو برزت الى حيز الوجود مسألة سياسية هي من أهم المسائل اطلاقا ، مسألة كانت تهتز لها اوروبا قاطبة ، وينفعل لها بخاصة الثوريون في شتى الاقطار . فما الموقف الذي كان يتوجب على الثوريين والاشتراكيين اتخاذه ؟ هل ينبغي عليهم ان يصطفوا الى جانب نابليون الذي كان يلعب تقريبا دور الثوري باطلاقه شعار حق ايطاليا في تقرير مصيرها بنفسها ، ام الى جانب النمسا التي كانت تمثل الاستبداد وتضطهد ايطاليا والمجر ؟ انها ، كما نرى ، مسألة بالغة الاهمية وتستدعي تكتيكا محددا ، وتعيد الى أذهاننا الوضع في ١٩١٤ . لهذا سأعرض

عليكم تكتيك ماركس وانجلز وموقفهما ، وكذلك تكتيك لاسال وموقفه .

لم اجد حتى الان داعيا للكلام عن لاسال ، مع انه كان واحدا من أوائل أتباع ماركس وشارك في أحداث ١٨٤٨ . لن أتوقف عند سيرة حياته ، لان ذلك يشط بنا عن موضوعنا . فبعد فترة اعتقال قصيرة مكث لاسال في المانيا حيث صرف اهتمامه الى أبحاث علمية ، وثابر على اتصاله بماركس وانجلز . وتسببت المسألة الايطالية في مجادلة بالغة الاهمية بينه وبين ماركس وانجلز ، لان الخلاف انما كان ، والحق يقال ، خلافا بين طرفين في حزب واحد . فإلامَ يرتد الاختلاف في وجهات النظر بينهم ؟ هذا ما سنراه الان .

كان نابليون الثالث ومحازبوه يعرفون حق المعرفة كيف يتلاعبون بالرأي العام . فكما في اثناء حرب القرم، أغرقت فرنسا في ١٨٥٨ ــ ١٨٥٩ في بحر من الكراسات والاهاجي التي ترمي، بجميع الوسائل الممكنة وبكل الاساليب الممكن تخيلها ، الى اثبات ليبيرالية نابليون وعدالة قضية ايطاليا . وقد شارك في تلك الحملة عدد غفير من الصحفيين المتطوعين او المرشوين من قبل الحكومة . وكان الصحفيون المتطوعون يمثلهم بصورة رئيسية المهاجرون المجريون والبولونيون . فكما كان هؤلاء المهاجرون قد رأوا في حرب القرم قبل بضع سنوات حربا للتقدم والمدنية على الاستبداد الآسيوي ، وجندوا لحساب نابليون وبالمرستون فرقا من المتطوعين ، كذلك راحوا يتهافتون الان على إثبات أن نابليون يقاتل في سبيل التقدم وحق الشعوب في تقرير مصائرها بنفسها وعلى وجوب قيام الجميع لنجدته وتقديم العون له . وانخرط اولئك المهاجرون ، الذين ما كان بعضهم يتأبى عن مال نابليون ، في سلك الجيش الايطالي ــ الفرنسي .

بيد ان النمسا لم تمكث هي الاخرى مكتوفة اليدين . فقد

كانت تمول صحفيين لا هم لهم غير أن يثبتوا انها تذود في تلك الحرب عن مصالح المانيا قاطبة ، وأنه اذا انتصر نابليون على النمسا فسيستولي ايضا على الراين ، وأن الامر بالتالي ليس أمر ايطاليا وانما أمر المانيا ، وان النمسا بابقائها ايطاليا الشمالية تحت سلطانها تذود في الواقع عن حياض المانيا. وكانوا يقولون : لحماية الراين لا مناص من السيطرة على البو (نهر في لومبارديا) .

هذا ما كانه التياران الرئيسيان في الصحافة الاوروبية عهدئذ . وفي المانيا بالذات ، كانت المسألة تزداد تعقيدا بحكم الخلاف الناشب بين الحزب الجرماني الوحدوي والحزب الالماني المعتدل . وطبيعي ان الجرمانيين الوحدويين، الذين كانوا يريدون اتحاد المانيا جمعاء بما فيها النمسا ، كانوا يقفون بجانب هذه الاخيرة . أما المعتدلون ، الذين كانوا يرنون بأبصارهم الى بروسيا ، فكانوا يعلنون على العكس انه ينبغي ان تترك النمسا تتدبر شأنها بمفردها . صحيح انه كان بين ذينك النقيضين فروق وتلاوين شتى ، لكن ذلك ما كان يغير اللوحة العامة .

ما الموقف الذي تبناه في هذه المسألة ماركس وانجلز من جهة ، ولاسال من الجهة الاخرى ؟ كان ثلاثتهم يقفون على أرضية **البيان الشيوعي** ، وكان ثلاثتهم قد كافحوا اثناء ثورة ١٨٤٨ في سبيل تكوين جمهورية المانية تضم المناطق الالمانية من النمسا . وعليه ، ما كان يبدو انه من الممكن ان ينشب بينهم أي خلاف في وجهات النظر . أما في الواقع فقد كانت اختلافاتهم لا تقل عمقا عن تلك التي قسمت ، في بداية الحرب الامبريالية ، صفوف الاشتراكيين ــ الديموقراطيين الذين كانوا متحدين حول الراية الماركسية .

أظهر ماركس وانجلز في مقالاتهما وكراساتهما ان المانيا لا تحتاج الى ايطاليا الشمالية للدفاع عن الراين ، وانها تستطيع ، اكثر من ذلك ، ان تقبل بلا خطر بأن تعيد النمسا الى ايطاليا

الموحدة جميع اقاليمها الايطالية ؛ وأعلنا ان كل محاولة للاخذ بناصر النمسا بحجة الذود عن صالح المانيا ان هي الا تواطؤ مع الاستبداد النمسوي .

لكن ماركس وانجلز انتقدا من جانب آخر ـ وهذه واحدة من السمات المميزة لموقفهما ـ نابليون بمثل العنف الذي انتقدا به الرجعية النمسوية والبروسية . كان خطر انتصار كامل لنابليون يبدو لهما أوهى شأنا من خطر انتصار تنتزعه النمسا . وقد أبان انجلز ان نابليون سيهاجم ولا بد المانيا بعد انتصاره على النمسا؛ ولهذا قال بالاطروحة التالية : على ايطاليا والمانيا ان تحققا اتحادهما بقواهما الذاتية . وبناء عليه ، لا يجوز للثوريين ان يأخذوا لا بناصر نابليون ولا بناصر النمسا في المسألة الايطالية . والشيء الوحيد الذي يجب ان يضعوه نصب أعينهم هو صالح الثورة البروليتارية . ولا يجوز لهم ان ينسوا أن ثمة عاملا آخر له ما له من الاهمية . وقد نوه انجلز بسداد بأن نابليون ما كان ليجرؤ على اعلان الحرب على النمسا لو لم يطمئن الى موافقة روسيا الضمنية ، ولو لم يتيقن من ان هذه الاخيرة لن تهب لمساعدة النمسا . وكان يقدر انه من المحتمل للغاية ان يكون هناك وجود لاتفاق ما بهذا الخصوص بين فرنسا وروسيا . ففي إبان حرب القرم ردت النمسا ، كما كان يعلن ابناء جلدتنا ، بجحود منكر على جميل روسيا التي كانت قد ساعدتها ، بتفانٍ وتجرد منقطعي النظير على ما يقولون ، على سحق الثورة المجرية. وما كان لروسيا ، كما تدل الظواهر ، الا ان تغتبط بمشاهدة النمسا وهي تنال عقابها على يد نابليون . واذا كان هناك فعلا اتفاق بين فرنسا وروسيا ، واذا هبت هذه الاخيرة لمعونة فرنسا ، فعلى المانيا جمعاء في هذه الحال ان تهب لنجدة النمسا، لكن المانيا هذه ستكون المانيا ثورية . وعندئذ يتحقق الوضع الذي كان ماركس وانجلز يعقدان عليه الرجاء في ايام ثورة ١٨٤٨ .

انها ستكون حرب الثورة ضد الرجعية ، حربا تحل فيها بالتعاقب محل جميع الاحزاب البورجوازية التي ستعجز عن اكتساب تأييد الطبقات الدنيا احزاب اكثر فأكثر جذرية ، وتمهد السبيل بالتالي لانتصار الحزب الاكثر تطرفا ، الاكثر ثورية ، حزب البروليتاريا .

تلك هي وجهة نظر ماركس وانجلز . ومغايرة لها كانت وجهة نظر لاسال . واختلاف آرائهم يجد بعض تفسيره في تباين الشروط الموضوعية التي كانوا يحيون في ظلها . فلاسال ، الذي كان يعيش في بروسيا ، كان مرتبطا ومشدودا بعرى وثيقة الى الوسط البروسي . أما ماركس وانجلز فكانا يقطنان انكلترا ؛ فكاناً ، لتحررهما من التأثير المباشر للوسط الالماني ، يحاكمان الاحداث الاوروبية من منظور مصالح الثورة الاممية ، وليس فقط من منظور المصالح الالمانية او البروسية .

كان أخطر اعداء المانيا في نظر لاسال عدوها الداخلي ، النمسا . فهذه الاخيرة كانت ادهى خطرا من فرنسا الليبيرالية او روسيا التي كانت قد طفقت تسير على طريق الاصلاحات . وكانت هي العلة الرئيسية للردة القاسية التي أثقلت بوطأتها على المانيا . اما نابليون فانه ، وان يكن غاصبا تسنم سدة السلطة عن طريق انقلاب ، ممثل الليبيرالية والتقدم والمدنية . لهذا كانت مهمة الديموقراطية البروسية في الحرب التي كانت تدور رحاها ان تترك النمسا لمصيرها وأن تتمنى اندحارها .

حين نقرأ كراسات لاسال الذي يكيل المديح لنابليون وروسيا ويحابي الحكومة البروسية ، ينبغي حتى نفهم موقفه ان نتذكر انه كان يجهد للتكلم بصفة ديموقراطي بروسي يسعى الى البرهان للطبقات السائدة ، اي لليونكر (١) ، انه لا يناسبها ان تهب

---

١ ـ أعيان الريف الالمان . «م»

لمعاونة النمسا . لكن لاسال كان يعبر في دوره ذاك عن افكار تتناقض جوهري التناقض مع افكار ماركس وانجلز . وقد برز منذ ذلك الحين بين اولئك الرجال خلاف اخذ فيما بعد شكلا اكثر حدة . ومنذ ذلك الحين ايضا انجر لاسال وراء رغبته في الحصول فورا على نجاح ملموس وتطلعه الى ان يكون «سياسيا واقعيا» لا متمذهبا ، فأباح لنفسه حججا تلزمه بالوقوف الى جانب الحزب الحاكم وتقوده الى ان يحيط بهالة مناسبة اولئك الذين يسعى الى اقناعهم بألا يهبوا لمعاونة النمسا . وقد كان من الممكن عند الاقتضاء اعتبار الشتائم الموجهة الى النمسا والموقف المتساهل حيال الحكومتين البروسية والروسية مجرد تعبير عن آراء صحفي لا ينطق باسم الحزب ذاته . لكن التكتيك الذي دعا الى انتهاجه في النضال العملي المباشر للحزب كان ، كما أثبت ذلك نشاط لاسال فيما بعد ، محشوا بالاغلاط والاخطاء .

انتهت الحرب بين فرنسا والنمسا بغير النهاية التي كان يتوقعها الطرفان المتعاديان . ففي البدء سجلت النمسا انتصارات اذ كانت لا تواجه سوى الطليان وحدهم ؛ بيد انها هزمت فيما بعد امام القوات الايطالية والفرنسية المتحالفة . لكن ما ان شرعت الحرب تتحول الى حرب شعبية ، وما ان ادرك نابليون ان ايطاليا جمعاء ستحقق وحدتها الثورية ، وأن الدول التابعة لسلطان الحبر الاعظم ستضم الى باقي ايطاليا ، حتى تراجع القهقرى وأسرع يستغل تحكيم روسيا لكي ينهي الحرب . واضطرت سردينيا الى الاكتفاء بلومبارديا ؛ اما فينيسيا فبقيت بين يدي النمسا . ووضع نابليون يده ، تعويضا عن خسائره بالرجال والمال ، على مقاطعة السافوا بكاملها ، وطن ملوك ساردينيا ؛ وحتى يبين بحسب ظاهر الحق للثوري الايطالي الشهير غاريبالدي ان عليه في المستقبل ان يرتاب في وعود الملوك ضم مسقط رأس غاريبالدي بالذات ، مدينة نيس مع

الاراضي المحيطة بها . على هذا النحو ذاد نابليون عن حقـــوق ايطاليا وسط تهليل الليبيراليين الاغبياء والثوريين المخدوعين به وتصفيقهم ، ولم يجد لاسال نفسه مناصا من الاقتناع بـــأن نابليون ليس أقل شرا من النمسويين . وبقيت ايطاليا مقسمة كما في السابق . وسردينيا هي وحدها التي زادت ممتلكاتها الواسعة اتساعا . لكن حدثت عندئذ ظاهرة «غريبة ولامفهومة» ، كما يقول دوبروليوبوف ، لامفهومة بالنسبة الى اولئك الذين يؤمنون بأن مصير الشعب يتقرر على الطاولة التي يجلس اليها الدبلوماسيون. فقد أثارت الخيبة والنقمة اللتان نجمتا عن سياسة نابليون فـي ايطاليا حركة ثورية واسعة . وقاد تلك الحركـــة غاريبالدي ، الثوري السخي الكريم ، لكن السياسي الرديء للغاية ؛ وفي عام ١٨٦١ كانت ايطاليا بكاملها ، خلا فينيسيا ، قد اتحـــدت تحت صولجان ملك سردينيا . وتولى بعدئذ مغامرون بورجوازيـــون وجاحدون للفاريبالدية التحقيق النهائي لوحدة ايطاليا .

ارغمت الحرب الفرنسية ــ النمسوية ماركس على الخوض مرة اخرى في مناظرة . فكما قلت لكم ، كانت الديموقراطيـــة الالمانية برمتها قد اخذت موقفا محددا في النزاع بين نابليـــون والنمسا . وكان أبرز الديموقراطيين الالمان وأوسعهم نفوذا هو كارل فوغت ، الثوري القديم ، الذي كان اضطر في عام ١٨٤٩ الى الهجرة الى سويسرا . لم يكن فوغت رجلا سياسيا فحسب، بل كان ايضا عالما ذائع الشهرة في جميع أرجاء اوروبا . كـــان واحدا من الممثلين الرئيسيين للمادية الطبيعية التي غالبا مـــا يخلط العلماء البورجوازيون بينها وبين مادية ماركس وانجلز . وكان واسع الشعبية في روسيا في حوالي العام ١٨٦٠ ، وكان له تأثير مرموق على التطور الفلسفي للعديد من المفكرين الروس . كان الصديق الحميم لهرزن الذي وصفه بأنه أشرف الرجـــال وأصدقهم وأكثرهم استقامة .

وبالفعل كان فوغت يحظى بنفوذ هائل لا بين الديموقراطيين

الالمان فحسب، بل ايضا في اوساط المهاجرين الثوريين الاميين، وعلى الاخص في الجاليات البولونية والايطالية والمجرية . وكان بيته في جنيف مقرا سياسيا حقيقيا . وكان من الاهمية بمكان بالنسبة الى نابليون ان يكسب لقضيته تأييد ذلك العالِم الشهير الذي كان في الوقت نفسه زعيم الديموقراطيين الالمان . وبفضل زهو الاستاذ السابق وخيلائه ، اصاب نابليون نجاحا سهلا في غرضه . وكان فوغت على صلة وثيقة بشقيق نابليون ، المعروف باسم الامير بلون ــ بلون ، الذي كان يتظاهر بالليبيرالية وينصب نفسه حاميا للعلم . ومنه تلقى فوغت المال كي يوزعه على ممثلي مختلف جاليات المهاجرين .

حين تدخل فوغت بعزم وقوة لصالح نابليون وايطاليا ، أحدثت فعلته في اوساط المهاجرين الثوريين أثرا قويا شبيها بذاك الذي احدثه فيما بعد تدخل بليخانوف لصالح **الحلفاء**. وكما يحدث دوما في مثل هذه الحال ، كان يوجد بين المهاجرين المرتبطين بوثيق العرى بماركس وانجلز رجال لهم اتصال بالاوساط المهجرية الجمهورية . وصرح واحد من ممثلي هذه الاوساط ، كارل بليند ، على مسمع من بعض الشيوعيين ان فوغت تلقى مالا من نابليون . .ونشر هذا الاتهام في صحيفة تصدر في لندن . وحين نقل فلهلم ليبكنخت ، مراسل **صحيفة اوسبورغ** ، نبأ تلك الشائعة الى صحيفته التي بادرت الى نشره ، ادعى فوغت انه وقع ضحية افتراء ورفع القضية الى المحاكم وكسب الدعوى ، لعجز الخصم عن تقديم اي دليل .

ونشر فوغت عندئذ ، تحيط به هالة الظفر ، كراسة خاصة عن تلك الدعوى ، واقتناعا منه بأن ليبكنخت لا يأتي امرا ولا يكتب سطرا واحدا بدون توجيهات من ماركس ، سدد ضرباته جميعا ضد هذا الاخير . وعلى اساس معطيات ثابتة ، كما زعم ، اتهم ذلك الرجل «الشريف» ماركس بالوقوف على رأس عصابة من

المصادرين ومزيفي النقود الذين لا يتراجعون امـــام اي شيء ولا يردعهم رادع . ووجه أقذع الافتراءات ضد الشيوعيين . واتهم فوغت ، المعروف بحبه لرغد العيش ، اتهم ماركس بأنه يحيا حياة ترف على حساب العمال .

أثارت كراسة فوغت ، بفضل اسم مؤلفها وشهرة مـــن تهاجمه (كان ماركس قد نشر الطبعة الاولى من **نقد الاقتصـــاد السياسي**) ، ضجة كبيرة ، ولاقت كما هو متوقع ترحيبا عظيما من قبل الصحافة . واغتبط جميـع الصحفيين البورجوازيين ، وبخاصة جاحدو الاشتراكية الذين عرفوا ماركس معرفةشخصية، واهتبلوا الفرصة ، وصبوا دفقا من الشتائم على خصمهم .

كان ماركس يقدر شخصيا انه يحق للصحافة ان تهاجـم وتشتم كل رجل سياسة . فمن امتياز كل من يتعاطى النشـاط العام ، من ساسة وبرلمانيين وممثلين وسواهم ، كما كتب يقول ، ان يكال لهم المديح او الاستهجان . واذا رموك بحجارة او بطاطا فاسدة ، فما عليك الا ان تذود عن حياضك وترد بالمثل . وما كان ماركس يرد على الاهانات الشخصية التي كان سيلها ينهال عليه بصورة متواصلة . لكن حين كانت مصالح الحزب ، مصالـــح القضية ، هي التي تتعرض للخطر ، كان يرد ، وكان رده يأتي في هذه الحال عنيفا شرسا .

حين ظهرت أهجية فوغت ، تساءل المتسائلون عما اذا كان من المناسب الرد عليها . وارتأى لاسال وبعض من اصدقائـــه وجوب التزام الصمت ، لا تصديقا منهم لاي كلمة كتبها فوغت ، وانما لانهم كانوا يرون بأم أعينهم هالة الحظوة الكبيرة التـــي احاطت بفوغت بنتيجة الدعوى التي كسبها . وكـــان رأيهم ان ليبكنخت طعن عن طيش وعدم روية الديموقراطي الكبير فـــي الصميم ، فسقط هذا الاخير بدوره ، وهو يحامي عن شرفه ، في شرك التطرف والمغالاة . وأي دعوى جديدة ستكون في هذه الحال بمثابة تأكيد لانتصاره ، اذ لا وجود لاي دليل ضده. وعليه،

فان العقل والحكمة يقضيان بأن يترك الرأي العام يهدأ ويسكن .

ما كان لحجج مبتذلة كهذه ان تؤثر ، بالتأكيد ، على ماركس وأصدقائه . فمن الممكن ان تترك بلا رد التهجمات الموجهة ضد ماركس ، ولكن ليس الافتراءات الموجهة ضد الحزب . بيد ان ماركس وأصدقاءه الاقربين كانوا في موقف محرج ، على الرغم من يقينهم بأن فوغت مأجور ، وذلك لان بليند ومهاجرا آخر سحبا يومئذ كلامهما وظهر ف. ليبكنخت بمظهر المفتري الدنيء .

وفي آخر المطاف قر الرأي على وجوب الرد . ونظرا الى فشل المحاولة التي بذلت لسوق فوغت امام المحاكم بحكم تحيز القضاء البروسي ، لم يكن هناك مفر من الرد بمنشور مكتوب. وأخذ ماركس على عاتقه تلك المهمة الصعبة . وهنا نتطرق الى نقطة لا أتفق البتة بصددها مع المرحوم مهرينغ . فقد ذهب هذا الاخير الى انه كان في وسع ماركس ان يحرر نفسه بسهولة من الجهود والمتاعب التي لا يحصى لها عد وأن يتحاشى اضاعة وقت ثمين من دون اي نفع للقضية ، لو ابى ، لا اكثر ، التدخل في الخصومة بين ليبكنخت وفوغت . لكن ذلك كان يعدل مطالبة ماركس بألا يكون ماركس .

تكمن علة خطأ مهرينغ في كونه لم يشارك قط في العمل السري ولم يتصل بعض الاتصال بالنضال الثوري المباشر الا في السنوات الاخيرة من حياته . ولقد كان تقييمه لحادث فوغت تقييم رجل ادب . وقد قال : هل كان ثمة من داعٍ لاضاعة كل ذلك الوقت في مناظرة مع فوغت الذي ما كان يتمتع عهدئذ (أي في الوقت الذي كان فيه مهرينغ قد بدأ حياته الادبية) بأي نفوذ سياسي ؟ أضف الى ذلك ان الظروف كانت تقضي بطبع الكتاب الموجه ضد فوغت في الخارج ، فما وصلت منه الى المانيا الا كمية زهيدة من النسخ .

بيد ان كمية النسخ ليست الجانب الاهم في القضية . ولو

اخذنا بهذا الاعتبار لتوجب ان نقول انه لم يكن من المجدي ان يطبع بليخانوف مؤلفه **خلافاتنا في وجهات النظر** الذي لم تصل منه الى روسيا في الاعوام الاولى سوى حوالي عشر نسخ على أبعد تقدير .

لقد ترك مهرينغ النقاش الاساسي الذي كان يدور في اوساط المهاجرين يمر من دون ان يراه . فلم يلحظ ان ذلك الحادث ، الشخصي زعما ، يخفي وراءه خلافات تكتيكية عميقة نشبت بين الحزب البروليتاري وبين سائر الاحزاب البورجوازية الاخرى ، وان تقلبات خطرة ظهرت ، كما يبين ذلك مثال لاسال، في صفوف الحزب البروليتاري نفسه . كذلك لم يلحظ ان الكراسة الموجهة ضد فوغت انتقدت ايضا جميع حجج لاسال وأصدقائه .

ان الكتاب مقتضب : فهو يتألف من خمس عشرة ملزمة فقط. وهو من وجهة النظر الادبية خير ما كتبه ماركس اطلاقا في ادب المناظرات . وليس في الادب العالمي كله نظير لذلك المؤلّف . وثمة أهجية مشهورة لباسكال ضد اليسوعيين . ولدينا في القرن الثامن عشر أهاجي ليسنغ ضد خصومه في الادب ، لكن تلك الاهاجي ، شأن سائر الاهاجي التي نعرفها ، لا تنشد غير هدف ادبي .

في **السيد فوغت** لم يأخذ ماركس على عاتقه مهمة التقويض السياسي والمعنوي لعالِم ورجل سياسي توقره البورجوازية قاطبة فحسب . والحق انه وفى بتلك المهمة على نحو ساطع وباهر . ما كان يملك ضد فوغت سوى وثائق مطبوعة . أما الشهود الرئيسيون فقد تواروا او سحبوا كلامهم . لهذا يتناول ماركس جميع مؤلفات فوغت السياسية ويبرهن على ان ذلك الرجل بونابرتي النزعة ، وانه لا يفعل شيئا سوى الترداد الحرفي لجميع الحجج المتواترة في المؤلفات السياسية لعملاء نابليون ، ويخلص الى الاستنتاج بأن فوغت ببغاء ذليل يردد بغباء جميع

حجج البونابرتيين ، او عميل مأجور مثله مثل سائر الصحفيين البونابرتيين .

بيد ان ماركس لا يكتفي بالتنديد بفوغت سياسيا . فما اهجيته بمحض أهجية قدح وذم . انما يستخدم ماركس ضد فوغت سلاحا يتقن كل الاتقان استعماله: سلاح التهكم والسخرية. فكلما تقدم القارىء في مطالعة الكتاب ، ارتسمت امام ناظريه الشخصية الهزلية لفوغت الذي يتحول من عالِم كبير ورجل سياسي عظيم الى فالستاف (بطل شكسبير) متبجح ، مهذار ، تحلو له اطايب الحياة على حساب الآخرين . وليس ثمة اثر ادبي كلاسيكي في اقطار العالم قاطبة لم يدل فيه ماركس بدلوه لكي يغترف منه مقطعا يساهم ، على ما يبدو ، في اضافة قسمة جديدة الى قسمات وجه فالستاف الحديث ذاك .

لكن فوغت كان يحظى بتأييد القسم النافذ من الديموقراطية البورجوازية الالمانية . لهذا يزيح ماركس النقاب عن الخسة السياسية لتلك الديموقراطية ويوجه في دربه ضربات الى الاشتراكيين الذين لا يستطيعون ان يدفعوا عن انفسهم شعورا بالاحترام تجاه «الطبقات المستنيرة» .

ان محاولة فوغت الافتراء على القسم الاكثر جذرية وفي الوقت نفسه الاكثر عوزا وإملاقا من المهاجرين الثوريين تتيح لماركس المناسبة لرسم صورة الاحزاب البورجوازية المتربعة على سدة السلطة او العاملة في صفوف المعارضة ، وعلى الاخص لتسليط الضوء على قابلية الصحافة البورجوازية للارتشاء والشراء بالمال ، تلك الصحافة التي اضحت مؤسسة رأسمالية تجني الربح من بيع الكلمات ، مثلها مثل مؤسسات اخرى متخصصة في بيع الزبل .

لقد كان الاشخاص المطلعون عميق الاطلاع على الحقبة الممتدة من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩ يؤكدون ، حتى حين كان ماركس ما يزال

على قيد الحياة ، انه ليس من كتاب ككتابه عن فوغت يقدم ذلك القدر الهائل من المعلومات عن طبيعة الاحزاب في ذلك الزمن . صحيح ان القارىء المعاصر بحاجة الى شرح وتعليق ليفهم تفاصيله كافة ، لكن سهل عليه ان يـــدرك الاهمية السياسية لتلـــك الاهجية .

لقد اضطر لاسال نفسه الى الاقرار ، لدى ظهور الكتاب ، بأن ماركس كتب أثرا عظيما ، وأن مخاوفه لم يكن لها من مبرر، وأن فوغت قد انتهى امره الى الابد كرجل سياسي . تصوروا، على سبيل المثال ، الدوي الذي كان سيخلفه أثر أدبي في عشية ثورة ١٩٠٥ الروسية يحول ميليوكوف ، الذي كان هو الآخر عالما مبرزا وزعيما لحزب الكاديت ، الى شخصية مضحكة ، الـــى سياسي إمعة .

والحال أنه كان من الاهمية بمكان في حوالي العام ١٨٦٠ ، أي في الزمن الذي كانت قد بدأت فيه حركة جديدة في اوساط البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة والذي كان فيه كل حزب يسعى الى كسب تأييد طبقة فقراء المدن ، ان يتبين الجميع ان ممثلي الديموقراطية البروليتارية لا يتساوون فكريا مع أبـــرز ممثلي الديموقراطية البورجوازية وأكثرهم شعبية فحسب ، بل يبزونهم ويتفوقون عليهم بلا جدال . ولقد كانت الضربة المسددة الى فوغت ضربة قاضية لحظوة واحد من أشهر قادة الديموقراطية البورجوازية . وما كان للاسال الا ان يكون ممتنا لماركس الذي سهل عليه الصراع ضد التقدميين (٢) من اجل بسط النفوذ على العمال الالمان .

في هذا كانت تكمن الاهمية السياسية لكتاب ماركس ذاك . وقد غابت هذه الاهمية عن انتباه مهرينغ تماما . فهذا الاخـــير

---

٢ ــ التقدميون : لقب الديموقراطيين البورجوازيين الالمان عصرئذ . «م»

يواصل في السيرة التي وضعها عن حياة ماركس ، وان بقدر أقل من الجزم عما كان يفعل قبل ١٩١٤ ، تقييم تلك الفترة من وجهة النظر الادبية الخالصة ؛ وهو اليوم يخفف قليلا من شدة الحكم الصادر عنه ويعلن ان ذلك الكتاب «كان عقبة اكثر منه عونا بالنسبة الى عمل حياته الكبير» . صحيح ان ماركس لو كان مجرد رجل ادب وعلم لكان أجدى له ألا يشغل وقته الا في كتابات من أشباه **١٨ برومير** و **الرأسمال** . وعلى اساس هذا الاعتبار ايضا، يسعنا القول انه كان أجدى لبليخانوف ، بدلا من التجادل على مدى ثلاثمئة صفحة مع شخص تافه‌مثل المرتد المقبل تيخوميروف، لو استغل وقته في تقديم عرض شعبي عن **الرأسمال** او كتابة وجيز في الماركسية .

لنرَ الان الى الموقف الذي وقفه ماركس وانجلز من نشاط لاسال التحريضي . لقد بدأ لاسال نشاطه التحريضي ، كما تعلمون ، في عام ١٨٦٢ ، حين انقسمت الديموقراطية البورجوازية البروسية بصدد مسألة التكتيك الواجب انتهاجه في النضال ضد الحكومة . ففي ١٨٥٨ كان ملك بروسيا السابق، الذي طبقت شهرة «مآثره» الآفاق اثناء ثورة ١٨٤٨ ، قد جن بصورة نهائية . وفي بادىء الامر عُين وصي على العرش ؛ ثم تسنم العرش الامير غليوم الذي كان قد أمر باعدام الديموقراطيين في ١٨٤٩ — ١٨٥٠ . وفي الآونة الاولى تنكر في زي الليبيرالية، لكن سرعان ما نشب نزاع بينه وبين مجلس النواب حول مسألة تنظيم الجيش . فقد رغبت الحكومة في تعزيز القوات العسكرية وطلبت فرض ضرائب جديدة ، لكن البورجوازية الليبيرالية طالبت بضمانات وبرقابة . وأثار ذلك النزاع مناقشات حول التكتيك . فلاسال ، الذي كان يوالي اتصالاته الوثيقة بالاوساط الديموقراطية والتقدمية البورجوازية ، طالب بتكتيك أشد حزما. ولما كانت تركيبة كل نظام هي محض تعبير عن العلاقة الفعلية

للقوى في مجتمع معطى ، فقد كان من الضروري اطلاق قـــوة اجتماعية جديدة ضد الحكومة التي كان يقف على راسها آنئـــذ بسمارك ، الرجعي الذكي والحازم .

في تقرير خاص كتب برسم العمال ، أبان لاسال ما تلـــك القوة الاجتماعية الجديدة . وذلك التقرير ، المكرس لعـــرض «ارتباط العصر الحاضر بفكرة الطبقة العاملة» ، معروف بعامـــة باسم **برنامج العمال** . ولقد كان بالاجمال عرضا للافكار الاساسية المتضمنة في **البيان الشيوعي** ، بعد تخفيف حدتها وتكييفها مع شروط الشرعية . بيد انه كان في الوقت نفسه اول بيان علني ، منذ هزيمة ١٨٤٨ ، عن ضرورة تجميع الطبقة العاملة في تنظيم سياسي مستقل ، منفصل بلا لبس عـــن جميع الاحـــزاب البورجوازية ، بما فيها اكثرها ديموقراطية .

كانت مداخلة لاسال تلك تتفق مع الحركة العمالية المستقلة التي كانت تنمو وتتطور بقوة خاصة في مقاطعة الساكس حيث كان يدور الصراع فيأوساط العمال بين الديموقراطيين وبينبعض ممثلي «الرعيل الاول» من حركة ١٨٤٨ العمالية . وكان مطروحا على بساط البحث يومئذ مشروع دعوة مؤتمر للعمال الالمـــان قاطبة . وقد نظمت لهذا الغرض لجنة خاصة في لايبزغ . ولما دعي لاسال الى ابداء رأيه بصدد اهداف الحركة العمالية ومهامها، عرض برنامجه في **رسالة مفتوحة** موجهة الى لجنة لايبزغ .

بعد ان ينتقـــد لاسال بعنف برنامـــج حزب التقدميين البورجوازيين والوسائل التي يقترحها هذا الحزب لمداواة بؤس العمال ، يؤكد على ضرورة تنظيم حزب مستقل للطبقة العاملة . والمطلب السياسي الرئيسي الذي ينبغي حشد القوى كافـــة وتركيزها من اجل الفوز به هو حق الانتخاب العام . أما عـــن البرنامج الاقتصادي فان لاسال ، بالاستناد الى «قانون الاجور

الحديدي» (٣) ، يبين انه يستحيل رفع الاجور الى ما فوق حد أدنى معين . لهذا يوصي بتنظيم شركات انتاجية بمساعدة اعتمادات ممنوحة من الدولة .

بديهي انه ما كان لماركس ان يوافق على خطة كتلك . وقد سعى لاسال ، بلا جدوى ، الى اكتساب تأييده لبرنامجه . وقد قامت بينهما اسباب اخرى للخلاف ، لم تتجل تماما الا بعد بضعة اشهر حين تحمس لاسال ، الراغب في الحصول فورا على نجاح عملي ملموس ، لـ «السياسة الواقعية» ولم يحجم ، في معرض صراعه ضد الحزب التقدمي ، عن الشطط والمغالاة الى حد مغازلة الحكومة والتزلف اليها .

على كل حال ، لا مجال للشك ــ وماركس نفسه يقر بذلك ــ في ان لاسال هو الذي رفع من جديد ، بعد حقبة الردة الرجعية الطويلة الممتدة من ١٨٤٩ الى ١٨٦٢ ، الراية العمالية في المانيا ، وفي انه كان اول منظم للحزب العمالي الالماني . ذلك هو فضل لاسال الذي لا مرية فيه .

لكن النشاط المكثف ، وان القصير الامد (أقل من عامين)، الذي قام به لاسال في ميدان التنظيم والسياسة كان ينطوي على عيوب جوهرية كان لا بد ان تؤدي ــ متجاوزة في ذلك برنامج لاسال الناقص ــ الى ابتعاد ماركس وانجلز عن هذا الاخير .

لقد كان من الواضح ، بادىء ذي بدء ، ان لاسال ، بدلا من التوكيد على ارتباط «الاتحاد العمالي العام الالماني» الذي أسسه بالحركة الشيوعية القديمة ، يحرص على نفي هذه الصلة نفيا جازما . وفي الوقت الذي اقتبس فيه افكاره الاساسية كافة من **البيان الشيوعي** ، كان يحاذر بعناية الاشارة اليه كمرجع . وهو لم

---

٣ ــ نظرية اقتصادية تقول ان اجر العامل مهما ارتفع لا يمكن ابدا ان يتجاوز الحد الادنى الحيوي . «م»

يستشهد بماركس الا في واحد من آخر مؤلفاته ، ولم يستشهد به كشيوعي او كثوري وانما كاقتصادي .

كان لاسال يفسر مسلكه باعتبارات تكتيكية . فما كان يريد ان يثير فزع الجماهير التي لما يكتمل وعيها بعد والتي يتوجب تحريرها من الوصاية الفكرية للتقدميين الذين يلوحون باستمرار بشبح الشيوعية المخيف .

كان لاسال مغرورا ومعجبا بذاته الى حد بعيد ، وكان يهوى الابهة والفخفخة والقرقعة والشهرة التي تترك اثرا عميقا في الجماهير غير المكتملة التطور وتثير نفور العمال الواعين واشمئزازهم . كان يحلو له ان يتصوره الناس خالق الحركة العمالية الالمانية . لكن هذا بالتحديد ما كان يبعد عنه لا ماركس وانجلز فحسب ، بل جميع مخضرمي الحركة الثورية القديمة . ولم ينضم اليه من هؤلاء جميعا سوى أنصار فيتلنغ القدامى وخصوم ماركس . ولقد احتاج الامر الى سنوات عدة كي يفهم العمال الالمان ان حركتهم لم تبدأ مع لاسال فقط . وما لا يفهمه مهرينغ هو ان ماركس وأصدقاءه كانوا يحتجون على تلك الرغبة في تصفية كل ارتباط بالحركة الثورية والسرية القديمة . وهذه الرغبة في عدم التورط بصلة بالحزب اللاشرعي القديم تجد تفسيرها في اندفاع لاسال المسرف نحو «السياسة الواقعية» .

لنرَ الان الى نقطة الخلاف الثانية : مسألة الانتخاب العام . فهذا المطلب كان سبق للميثاقيين ان طرحوه . وقد نادى به ايضا كل من ماركس وانجلز . لكن ما كان يسعهما الاقرار بالاهمية المسرفة التي يعزوها اليه لاسال والموافقة على الاطروحات التي كان يقول بها . فقد كان الانتخاب العام في نظر لاسال بمثابة وسيلة عجائبية تكفي ، من دون أي تغيير آخر في النظام السياسي والاقتصادي ، لتسليم زمام السلطة فورا الى الطبقة العاملة . كان لاسال يؤكد بسذاجة في كراساته ان العمال سيحصلون في البرلمان على ما يقارب ٩٠ بالمئة من المقاعد فور

الفوز بحق الانتخاب العام . كذلك كان **النارودنيون** الروس يعتقدون ان الفلاحين ، المشكلين للغالبية الساحقة من السكان ، سيحصلون في الجمعية التأسيسية التي ستدعى للانعقاد بعد سلسلة من العمليات الارهابية الناجحة على الغالبية الساحقة ايضا . وما كان لاسال يدرك انه لا بد ان تتوفر جملة شروط اخرى وبالغة الاهمية حتى ينقلب الانتخاب العام من وسيلة خداع للجماهير الشعبية الى أداة تربيتها الطبقية .

لم يكن أقل عمقا من ذلك الخلاف بصدد الروابط الانتاجية. فهذه الروابط لم تكن بعد في نظر ماركس وانجلز عهدئذ سوى وسيلة ثانوية ذات اهمية محدودة للغاية ، تفيد بوجه خاص في بيان أن المقاول او الرأسمالي ليس عاملا ضروريا مطلق الضرورة من عوامل الانتاج . أما التصور بأن الروابط الانتاجية هي الوسيلة لوضع اليد تدريجيا على وسائل الانتاج الاجتماعية ففيه تناسٍ لضرورة الاستيلاء اولا على السلطة السياسية حتى يتم فيما بعد تحقيق سلسلة من الاجراءات المناسبة ، كما ورد في **البيان الشيوعي** .

كذلك كان تصور ماركس وانجلز مغايرا تماما لتصور لاسال عن دور النقابات . فقد كان لاسال ، المغالي في الاهمية الفائقة للروابط الانتاجية ، يرتئي ان تنظيم النقابات مجهود ضائع ولامجدٍ بالمرة ، وكان يتبنى من هذا المنظور آراء الطوباويين القدامى التي سبق لماركس ان أخضعها لنقد نهائي في **بؤس الفلسفة** .

ولم تكن الخلافات بصدد مسألة التكتيك أقل عمقا ، هذا ان لم تكن اكثر اهمية . ولسنا نملك اي مسوغ لاتهام ماركس ، كما يفعل مهرينغ ، بأنه غالى في اهمية التقدميين وعلق آمالا اكبر مما ينبغي على البورجوازية . لقد سبق لي ، في محاضرتي الاخيرة ، أن تلوت عليكم وصف ماركس للبورجوازية البروسية بدالة تجربة ثورة ١٨٤٨ . ولقد رأينا عنف النقد الذي وجهه الى

الديموقراطية البورجوازية في مناظرته مع فوغت . وعليه ، لا يستطيع احد ان يقول ان ماركس ، المفترق عن وطنه ، كان ما يزال يؤمن بالطابع التقدمي للبورجوازية البروسية ، بينما كانت أوهام لاسال عن هذه الاخيرة ، وهو الاعرف بها منه ، قد تبددت وانقشعت . انما كان الخلاف يكمن في التكتيك الواجب انتهاجه حيال تلك البورجوازية . فكما كانت الحال في إبان الحرب بين الدول الرأسمالية ، كان من الواجب في الصراع بين البورجوازية التقدمية وبسمارك اكتشاف او انشاء تكتيك لا يحول الاشتراكية الى خادم لطرف او آخر من الاطراف المتحاربة. وكانت هناك حاجة الى حزم خاص وحذر بالغ . والحال ان لاسال كان ينسى ، في مجرى صراعه مع التقدميين البروسيين، انه ما تزال هناك اقطاعية بروسية ، طبقة مغلقة من اليونكر ، لا تقل عن البورجوازية عداء للعمال . كان يهاجم التقدميين ويندد بهم عن حق ، لكنه ما كان يعرف كيف لا يتعدى الحدود الضرورية ، كما انه كان لا يفعل شيئا غير الاساءة الى قضيته بكيله الثناء والمديح للسلطات . بل ما كان لاسال يتحرج من اللجوء الى تسويات غير مقبولة ولا جائزة . من ذلك ان عمالا اعتقلوا في واحدة من المدن ، فأوصاهم برفع طلب عفو الى بسمارك الذي لن يتوانى ، كما قال ، عن اصدار الامر باطلاق سراحهم نكاية بالليبراليين . بيد ان العمال أبوا الاخذ بنصيحة لاسال . ولو رجعنا الى خطابات هذا الاخير ، وبخاصة خطاباته في النصف الاول من عام ١٨٦٤ ، لوجدناها تحتوي على الكثير من أشباه تلك العثرات . لن أتكلم عن المفاوضات التي اجراها لاسال مع بسمارك من غير علم التنظيم العمالي ، مجازفا على هذا النحو بإنزال ضرر فادح لا بسمعته السياسية فحسب ، وانما ايضا بالقضية التي يخدمها . واذا اردنا ان نأخذ مثالا من الحياة الروسية ، نقول انه كان في المستطاع توجيه نقد عديم الشفقة الى ميليوكوف ، لكن مغازلة ستوليبين وغوريمويكين واضرابهما

ما كانت لتكون الا غلطة لا تغتفر ، او بالاحرى جريمة .

تلك هي الاختلافات التي منعت ماركس وانجلز من دعم نشاط لاسال التحريضي بهالة اسمهما . لكن ما تجدر ملاحظته ان ماركس وأنجلز ، في الوقت الذي امتنعا فيه عن تأييد لاسال، رفضا ايضا التدخل علنا ضده ، وضغطا بهذا الاتجاه على رفاقهما العاملين في المانيا من أشباه ليبكنخت على سبيل المثال . بيد ان لاسال ، الذي كان يقدر عاليا حيادهما ، كان ينزلق أكثر فأكثر على المنحدر الخطر . وقد راح ليبكنخت والرفاق الآخرون في برلين والاقاليم الراينية يحثون ماركس على التدخل ضد تكتيك لاسال الخاطىء . وأرجح الظن ان الامر كان سينتهي الى قطيعة سافرة لو لم يلق لاسال حتفه في ٣٠ آب ١٨٦٤ . والحال انه بعد اربعة اسابيع من وفاته ، في ٢٨ ايلول ١٨٦٤ ، تأسست **الاممية الاولى** التي اتاحت لماركس امكانية العودة الى العمل الثوري المباشر ، على النطاق الاممي هذه المرة . وانظرا الى الاهمية الكبيرة لتاريخ **الاممية الاولى** والدور البارز الذي لعبه فيها ماركس ، اراني مضطرا الى تخصيص محاضرتين لها .

المحاضرة السابعة

[ازمة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ـ نمو الحركة العمالية في انكلترا وفرنسا والمانيا ـ معرض ١٨٦٢ الكوني في لندن ـ الحرب الاهلية في اميركا ـ ازمة الصناعة القطنية ـ الانتفاضة البولونية ـ تأسيس الاممية الاولى ـ دور ماركس ـ «الخطاب الافتتاحي»] .

كما ذكرت لكم ، احتاجت الحركة الثورية ، الحركة العمالية، الى زهاء عشر سنوات حتى تقيل نفسها من عثرتها في ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ . وقد ارتبط هذا النهوض بأزمة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ التي اخذت طابعا عالميا وضربت بقوة حتى روسيا . ولقد أوضحت لكم كيف ان اوروبا ، التي كانت قد حافظت حتى ذلك الحين على طمأنينتها الخارجية ، قد وجدت نفسها مضطرة ، في شخص

الطبقات الحاكمة ، الى الشروع على طريقتها الخاصة بحـــل المسائل التي طرحتها على جدول الاعمال ثورة ١٨٤٨ والتي بقيت معلقة . لقد كانت هناك حاجة ، في المقام الاول ، الى الاهتمـام بالمسألة القومية ، مسألة توحيد ايطاليا وتوحيد المانيا . وكانت الحركة الثورية في ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ قد انحدّت بأوروبا الغربية ، ولم تشمل انكلترا بتمامها ، وعلى كل حال لم يكن لها انعكاس قوي على ذلك القطر ، كما لم تمس أوسع أمصار اوروبا ، أعني روسيا ، ولا الولايات المتحدة كذلك . وفي حوالي العام ١٨٥٦ ، انجرت روسيا والولايات المتحدة الى الدوامة . ففي روسيـــا انطرحت على جدول الاعمال مسألة الغاء القنانة . فكان يومئـذ عصر «الاصلاحات الكبرى» ، العصر الذي رأت فيه النور حركة ثورية ما لبثت ان ادت ، بعد ١٨٦٠ ، الى تشكيل جمعيات سرية، كانت أشهرها أولاها **زمليا إيي فوليا** (١) . وفي الولايات المتحدة انطرحت مسألة الغاء الرق . وقد اظهرت هذه المسألة ، حتـــى اكثر من المسألة الروسية ، الى أي حد صار العالم عالميا ، بعد ان كان يقتصر فيما غبر على شطر من اوروبا . وقد اتضح ان مسألة الغاء الرق ، التي ما كانت تعني في الظاهر غير الولايات المتحدة ، مسألة بالغة الاهمية بالنسبة الى اوروبا ذاتها ، بحيث وجد ماركس مسوغا للتصريح ، في مقدمة المجلد الاول مـــن **«الرأسمال»** ، بأن الحرب في سبيل الغاء الرق في اميركا قـــد اعطت الاشارة لنهوض حركة عمالية جديدة في اوروبا الغربية . وقد ألمحت في المرة السابقة الى الاحداث السياسية الرئيسيـــة التي تمخضت عنها تلك القلقلة الاقتصادية الجامحة . واليـــوم سأتوقف عند الحركة العمالية .

---

١ ــ أي «الارض والحرية» . «م»

سأبدأ بأول أقطار الحركة العمالية ، انكلترا . ففي عام١٨٦٣ لم يكن قد بقي أثر في انكلترا من الحركة الميثاقية الثورية القديمة . بل يؤكد بعض المؤرخين ان الميثاقية قضت نحبها منذ التجربة المشهورة للمظاهرة المجهضة عام ١٨٤٨ . وفي الواقع ، عرفت الميثاقية فترة ازدهار اخرى في زمن حرب القرم . فقد استطاعت ، بقيادة ارنست جونز ، الخطيب المفوه والصحافي الألمعي الذي أسس بمساعدة ماركس وأصدقائه أحسن صحيفة اشتراكية في ذلك العهد ، ان تستغل اثناء حرب القرم تذمر الجماهير الشعبية ، ذلك التذمر الذي تصاعد مده حين اتضح للعيان ان تلك الحرب قد طال أمدها بخلاف ما كان متوقعا . وقد مرت شهور كانت فيها **الصحيفة الشعبية** ، اللسان المركزي للميثاقيين ، من اوسع الصحف نفوذا . وكانت مقالات ماركس الرائعة ضد غلادستون ، وعلى الاخص ضد بالمرستون ، تجذب فائق الانتباه . لكنها كانت محض طفرة مؤقتة . فما ان وضعت الحرب أوزارها حتى فقد الميثاقيون صحيفتهم . ولا ترجع العلة الوحيدة في ذلك الى الخلافات التي نشبت بين جونز وخصومه. وانما كانت هناك اسباب أهم .

يكمن السبب الاول في النهضة المعجزة للصناعة الانكليزية منذ نهاية سنة ١٨٤٩ . صحيح ان بعض الفروع عرفت ازمات عابرة ؛ بيد ان الصناعة كانت في مجملها في أوج الازدهار . وقد اختفى كل أثر للبطالة . فلم يسبق قط للصناعة الانكليزية ، منذ نحو من مئة سنة ، أن احتاجت تلك الحاجة الشديدة الى اليد العاملة . ويكمن السبب الثاني في تيار الهجرة الجارف الذي حمل من ١٨٥١ الى ١٨٥٥ العمال الانكليز الى الولايات المتحدة حيث اكتشفت مناجم ذهب ثرة . ففي غضون سنوات قلائل هاجر مليونان من العمال من انكلترا بصورة نهائية ، وكان هؤلاء العمال ، كما يحدث على الدوام في أشباه هذه الحالات ، يمثلون اقوى العناصر واصلبها وأعظمها طاقة . على هذا النحو خسرت

الحركة العمالية ، ومعها الحركة الميثاقية ، القسم الاعظم من قواها . وينبغي بعد ان نضيف الى ذينك السببين الجوهريين جملة اسباب اخرى ثانوية .

طردا مع الضعف المتعاظم الطارىء على التنظيم الميثاقي ، كان يتراخى الرباط الذي كان يربط بين شتى أشكال الحركة . فبين ١٨٤٠ و١٨٥٠ كانت الحركة الميثاقية قد اصطدمت بالحركة المهنية. لكن الاشكال الاخرى للحركة العمالية كانت تنزع هي ايضا الى ان تتخصص وتنفصل عن الجذع الاصلية . وهذه واحدة من خصائص الحركة العمالية الانكليزية عصرئذ . فغالبا ما يرينا تاريخها تنظيمات خاصة شتى ، تشرع على حين بغتة بالنمو والتطور ، فتصل سريعا في بعض الاحيان الى ضم عدة مئات من آلاف الاعضاء . وقد جعلت واحدة من تلك المنظمات هدفها النضال ضد الادمان على الكحول ، على سبيل المثال . كان التنظيم الميثاقي يتبع خط الحد الادنى من المقاومة . فقد كان حاول في الماضي أن يكافح الادمان على الكحول في صفوف اعضائه . وها هوذا الان يضع نصب عينيه هدفا خاصا ، وهو ان يؤسس في جميع أرجاء انكلترا جمعيات لمكافحة تعاطي الكحول، وعلى هذا النحو حول انتباه عدد كبير من العناصر عن الحركة العمالية العامة وابعدهم عنها . وقد وجدت ايضا حركة اخرى ، الحركة التعاونية بقيادة الاشتراكيين المسيحيين . وقد سبق ان رأينا كهنة في صفوف الحركة الميثاقية . وقد ذكرت لكم في احد الاحاديث اسم ثوري ، هو الراعي ستيفنس . كان واحدا من اكثر الخطباء شعبية في حوالي العام ١٨٤٥ . وفي زمن لاحق مال ميلا كثيرا نحو اليمين . وقد جمع حوله مجموعة من محبي الخير والاحسان الذين قصدوا الاوساط العمالية ليعظوها بالمسيحية العملية، وليؤكدوا الافلاس السياسي للحركة الميثاقية، وليقدموا تنظيم جمعيات تعاونية على كل شيء آخر . ولما كانت

هذه الحركة لا تتهدد الطبقات الحاكمة بأي خطر ، فقد لقيت عونا ومساعدة حتى من قبل اعضاء الحزب الحاكم . وقد انضم اليها بعض ممثلي المثقفين المتعاطفين مع آلام الطبقة العاملة وأوجاعها . وعلى هذا المنوال ، انفصل عن الحركة العمالية فرع جديد ينشد هدفا خاصا .

لن اعدد جميع الاشكال الخاصة للحركة العمالية ؛ ولن أتوقف الا عند الحركة المهنية . صحيح ان هذه الحركة لم تلاق ، في السنوات التالية لعام ١٨٥٠ ، شروط تطور موائمة كتلك التي لاقتها الحركة التعاونية او حركة مكافحة الادمان على الكحول . بيد انها اصطدمت بمقاومة أوهى من تلك التي اصطدمت بها الحركة الميثاقية القديمة . ففي ١٨٥١ تأسس في انكلترا اول اتحاد قومي متين لعمال البناء الميكانيكي . وتولى قيادته عاملان عزومان ونشيطان ، أفلحا في التغلب على الروح الحرفية الصرف للحركة المهنية الانكليزية ، وعلى الميل الى تنظيم اتحادات محلية لمقاطعة او مقاطعتين فقط . ولا ينبغي ان ننسى ان الشروط الخاصة للصناعة الانكليزية كانت تعيق الى حد لا يستهان به تنظيم الاتحادات الشاملة النطاق . من ذلك ان الصناعة النسيجية متركزة برمتها تقريبا في مقاطعتين ، مثلما هي متركزة في روسيا في محافظتي موسكو وايفانوفو ــ فوزنسنسك وان تكن مساحة كل واحدة منهما تزيد بكثير عن مساحة المقاطعة الانكليزية . بيد ان العيب الجوهري في النقابات الانكليزية ما كان يكمن في ضيق نطاق نشاطها الجغرافي ، وانما في ضيقها الحرفي . فقد كانت كل مهنة في حدود الصناعة الواحدة تنظم نفسها في اتحاد خاص . لهذا لم تكن الحركة المهنية مؤهلة ، وان شرعت بالتطور الحثيث بعد ١٨٥٠ ، لخلق أشكال تنظيمية تفسح في المجال للنضال على نطاق واسع ضد أرباب العمل . فما دامت الصناعة في ازدهار ، كان يسهل على غالبية العمال الحصول على علاوات في الاجور . بل اكثر من ذلك : فقد كان أرباب العمل

المتزاحمون فيما بينهم يسعون ، عن طريق رفع الاجور وتحسين شروط العمل ، الى اجتذاب العمال الذين كان عددهم دون المطلوب لسد حاجات الفروع الصناعية الجديدة التي كان يتوالى ظهورها . وفي إبان تلك السنوات سعت الرأسمالية الى اجتذاب عمال البر الاوروبي ، من ألمان وفرنسيين وبلجيكيين ، الى انكلترا .

بيد ان الحركة المهنية بقيت في تلك الشروط ، على الرغم من تطورها التدرجي ، في مستوى متدنٍ للغاية . فشتى الاتحادات التي كانت تتشكل في فروع صناعة واحدة كانت تبقى على انقسامها لا على نطاق القطر فحسب ، بل كذلك في حدود المدينة الواحدة . ولم تكن حتى المجالس المحلية قد ظهرت بعد الى حيز الوجود .

ادخلت ازمة ١٨٥٧ — ١٨٥٨ تغيرات ملموسة على الوضع . وكما سبق ان ذكرت لكم ، كانت احسن النقابات تنظيما نقابة عمال البناء الميكانيكي المؤلفة من خيرة العمال اختصاصا . وما كانت تلك الصناعة ، مثلها مثل الصناعة النسيجية ، تعمل لحساب السوق الداخلية وحدها. فبدءاً من ١٨٥٠ امتازت هاتان الصناعتان على غيرهما من الصناعات ، وفازتا بوضع احتكاري في السوق العالمية . أما العمال المختصون العاملون فيهما ، فقد حصلوا بيسر على تنازلات من قبل ارباب العمل الذين كانوا يجنون طائل الارباح . وعلى هذا النحو ، بدأ يتوطد «السلم المدني» بين أرباب العمل والعمال . ومر أثر الازمة ، على الرغم من حدتها ، مرورا سريعا . واتسعت اكثر فأكثر المسافة بين العمال المختصين والعمال غير المختصين ، وساهمت في إضعاف الحركة الاضرابية في تلك الفروع من الصناعة .

لكن ما كان جميع العمال يتمتعون بمثل ذلك القدر من الطمأنينة . فقد كان للازمة انعكاس بالغ الشدة على عمال البناء

الاسكاني الذين تزعموا منذ ذلك الحين نضال الطبقة العاملة الانكليزية ، مثلما كان تزعمه من قبل عمال النسيج في عام ١٨٤٠ وعمال البناء الميكانيكي في عام ١٨٥٠ .

لقد أدى تطور الرأسمالية الى زيادة خارقة للمألوف في تعداد سكان أوروبا ، ومن ثم الى تعاظم الحاجة الى المساكن . ومن هنا كان ازدهار صناعة البناء الاسكاني . ففي ١٨٤٠ كانت انكلترا قد اندفعت اندفاعا محموما في مد السكك الحديدية ؛ وفي ١٨٥٠ مرت بما يشبه حمى البناء الاسكاني ، وارتفعت المنازل الجديدة بالآلاف. وصارت بضاعة ، مثلها مثل القطن او الصوف. وكانت صناعة البناء الاسكاني ، بتنظيمها التقني ، ما تزال في الطور المعملي ، لكنها كانت قد سقطت منذ ذلك الحين بين أيدي الرأسماليين الكبار .

. كان مقاول البناء يكتري ارضا ويشيد عليها مئات المنازل التي كان يؤجرها او يبيعها . والمنازل الانكليزية لا تشبه المنازل الروسية ؛ فهي عادة عبارة عن منازل صغيرة من القرميد مشيدة على نسق واحد ؛ وقد لا تزيد احيانا عن شقتين او ثلاث شقق لا تتجاوز مساحتها الاجمالية مساحة شقة من اربع او خمس غرف في موسكو ؛ لكن بدلا من ان تكون الغرف متجاورة نراها متناضدة بعضها فوق بعض . وهذا ما جعل بعض اقتصاديي البر الاوروبي يروون الاساطير عن العمال الانكليز الذين يشغلون ، على حد زعم اولئك الاقتصاديين ، بيوتا بكاملها . وفي الواقع ، تغص المنازل الانكليزية بقاطنيها ، كما لو انها ملجأ ليلي .

جذب تطور صناعة البناء الاسكاني الى المدن عددا كبيرا من عمال الريف . وهذه الصناعة ، كما تعلمون ، بالغة التعقيد . وهي تحتاج الى مختلف ضروب العمال . فهي تستخدم عمال احتطاب ونجارين وجصاصين وبنائين ونجادين ، وبكلمة واحدة ، جميع العمال الذين لا يشاركون في البناء فحسب ، بل ايضا في تأثيث المنزل وزخرفته . ويرتبط تطور البناء الاسكاني وثيق الارتباط

بتطور صناعة المفروشات والسجاد والصناعة الفنية . وقد أدت ايضا الزيادة الكبيرة في تعداد سكان المدن الى تطور الصناعة الكبيرة في مضمار الاحذية والملابس .

والحال ان ازمة ١٨٥٧ ــ ١٨٥٨ كان لها انعكاس بالغ الشدة على تلك الفروع الجديدة من الانتاج الرأسمالي . فقد حرمت من العمل أعدادا لا تقع تحت الحصر من العمال ، وخلقت جيشا من العاطلين راح يزاحم العمال الآخرين . وقرر المقاولون وأرباب العمل انتهاز السانحة للضغط على عمالهم ، ولتخفيض أجورهم ، ولزيادة مدة يوم العمل . وعلى دهشة عظيمة منهم ، رد العمال في ١٨٥٩ باضراب جماهيري . كان واحدا من اعظم اضرابات لندن . بل اكثر من ذلك ؛ فقد حظي اضراب عمال البناء الاسكاني بتأييد عمال الفروع الجديدة من الصناعة . واسترعى انتباه اوروبا بقدر ما استرعته الاحداث السياسية الكبرى عصرئذ . وحتى في الصحف والمجلات الموسكوفية وجدت مراسلات عن ذلك الاضراب تزيد طولا وحجما عن تلك التي نقرؤها احيانا في الصحف السوفياتية عن بعض الاضرابات في اوروبا الغربية . وقد تولد عن ذلك الاضراب عدد جم من الهيئات والمهرجانات الخطابية . وكثيرا ما كان يتردد في عداد الخطباء اسم كريمر . ففي مهرجان هايد بارك الخطابي اعلن ان اضراب عمال البناء هو اول مناوشة بين اقتصاد العمل واقتصاد الرأسمال . وقام عمال آخرون ، من أمثال أوجر ، بنشاط تحريضي مكثف . وصدرت بيانات . ولنشر بالمناسبة الى ان المحادثة المشهورة بين العامل والرأسمالي ، وهي واحدة من ألمع صفحات **الرأسمال** ، تكاد ان تكون في بعض مواضعها نسخة طبق الاصل عن البيان الذي اصدره العمال اثناء اضراب ١٨٥٨ ــ ١٨٥٩ .

ان ذلك الاضراب ، الذي انتهى بعد ردح من الزمن بتسوية ، أدى الى تنظيم اول **مجلس للاتحادات المهنية** في لندن . وكان

القادة الرئيسيون الثلاثة لذلك المجلس أوجر وكريمر وهويل ، وثلاثتهم من العمال الذين صاروا فيما بعد اعضاء في المجلس العام الاول **للاممية الاولى** . ومنذ عام ١٨٦١ كان ذلك المجلس قد أضحى من اوسع المنظمات نفوذا . وقد تحول ايضا ، شأن مجالسنا السوفياتية الاولى ، الى منظمة سياسية . وقد سعى جهده للاستجابة والرد على جميع الاحداث التي تهم العمال . وعلى غرار ذلك المجلس ، قامت مجالس اخرى في انحاء مختلفة من انكلترا واسكوتلندا ، بحيث باتت انكلترا مجهزة من جديد في عام ١٨٦٢ بتنظيمات عمالية طبقية . وكانت المراكز السياسية والاقتصادية لتلك التنظيمات مجالس الاتحادات المهنية (التريديونيونات) .

لنرَ الان الى فرنسا . فقد عانت الازمة في هذا القطر فسادا ضاهى ما عانته في انكلترا . وكان لها انعكاس شديد على الصناعة النسيجية ، وكذلك على كل صناعة الكماليات . وكما قلت لكم ، كانت الحرب التي شرع بها نابليون في ١٨٥٩ وسيلة لتحويل اتجاه تذمر العمال . وفي مستهل ١٨٦٠ ضربت الازمة بوجه خاص الصناعة الفنية الباريسية . لكن باريس كانت ايضا مدينة مكتظة بالسكان ، وقد شهدت تطورا حثيثا بدءاً من ١٨٥٠ ، وازدهرت فيها صناعة البناء . وكان واحدا من اهم اصلاحات نابليون الثالث اعادة تعمير مجموعة بكاملها من الاحياء الباريسية، وازالة الازقة القديمة الضيقة وتحويلها الى شوارع عريضة وجادات فسيحة يتعذر نصب المتاريس فيها . وعلى مدى سنوات عديدة اهتم عمدة باريس هوسمان باعادة تعمير المدينة على نحو منهجي منظم . وهكذا اجتمع في باريس ، مثلما في لندن ، عدد غفير من عمال البناء . وهؤلاء العمال ، ابتداء من المياومين الى المهرة والرفيعي الاختصاص منهم ، هم الذين قدموا الكوادر الرئيسية للحركة العمالية الجماهيرية الجديدة التي تطورت بدءاً من ١٨٦٠ . وحين ستطلعون على تفاصيل تاريخ **الاممية الاولى** في

فرنسا ، فستلاحظون ان غالبية اعضائها ، والبارزين منهم ، كانوا من العمال المهرة في صناعة البناء والصناعة الفنية .

بنهوض الحركة العمالية بعد ١٨٦٠ عادت الى الظهور المجموعات الاشتراكية القديمة التي ينبغي ان نخص بالذكر منها في المقام الاول مجموعة البرودونيين . في ذلك العهد كان برودون نفسه ما يزال على قيد الحياة . كان ، بعد اعتقاله وحبسه لفترة من الزمن ، قد هاجر الى بلجيكا ، ومارس مباشرة او عن طريق اتباعه، بعض التأثير على الحركة العمالية . بيد ان المذهب الذي كان يدعو اليه بعد ١٨٦٠ كان يختلف بعض الشيء عن المذهب الذي عرضه اثناء مناظرته الآنفة الذكر مع ماركس .

كان مذهبه عهدئذ عبارة عن نظرية مسالمة تماما ، متكيفة مع الحركة العمالية الشرعية . وكان البرودونيون قد جعلوا هدفهم تحسين وضع العمال ، وكانت الوسائل التي يقترحونها لهذا الغرض متلائمة مع شروط حياة الحرفيين في المقام الاول . وكان في طليعة تلك الوسائل الاعتماد الرخيص ، بل المجاني اذا امكن . وقد أوصوا ، لهذا الغرض ، بتنظيم جمعيات تسليف يتضافر اعضاؤها ويتعاونون على خدمة بعضهم بعضا بالتعاضد . ومن هنا جاء اسم التعاضدية . جمعيات تضافر ومعونة متبادلة ، عزوف عن الاضرابات ، شرعية الجمعيات العمالية ، اعتماد مجاني ، عزوف عن النضال السياسي المباشر ، تحسين الاوضاع عن طريق النضال الاقتصادي وحده الذي لا يجوز بالاصل توجيهه ضد أسس النظام الرأسمالي : تلك هي عصارة برنامج التعاضديين الذين كانوا ، من بعض الجوانب ، اكثر اعتدالا من معلمهم .

بالتوازي مع تلك المجموعة ، كانت توجد مجموعة اخرى اكثر انحرافا الى اليمين ، بقيادة الصحفي آرمان ليفي الذي كان على صلة وثيقة فيما سبق بالمهاجرين البولونيين ومؤدب اولاد الشاعر البولوني ميكييفتش . وقد كانت له اتصالات وثيقة ايضا بالامير

بلون ـ بلون الذي سبق لنا ان عرفناه حاميا للسيد فوغت .

اما المجموعة الثالثة ـ وقد كانت أقل تعدادا ومؤلفة من ثوريين فقط ـ فهي مجموعة البلانكيين الذين استأنفوا دعايتهم في اوساط العمال والمثقفين والطلبة والادباء . وكان ينتمي الى تلك المجموعة ، في من ينتمي اليها ، بول لافارغ وشارل لونغيه اللذان صاهرا فيما بعد ماركس .

كان كليمنصو ايضا يتردد على تلك الاوساط . وكان جميع اولئك الشبان والعمال واقعين تحت تأثير بلانكي الذي كان ، على الرغم من قبوعه في السجن ، على صلات مستديمة بالخارج ، والذي ما كانت مقابلات اصدقائه بالممنوعة عنه . وكان البلانكيون الد أعداء الامبراطورية النابوليونية وكانوا يتعاطون النشاط السري .

هكذا كانت حالة الحركة العمالية في انكلترا وفرنسا في عام ١٨٦٢ ، يوم توالت سلسلة من الاحداث التي تمخضت عن تقارب أوثق بين العمال الفرنسيين والانكليز . وسنحت فرصة ذلك التقارب بافتتاح معرض لندن الكوني . فقد جاء ذلك المعرض تتويجا لطور جديد في الانتاج الراسمالي والصناعة الكبيرة تحول معه كل قطر مفرد الى جزء من الاقتصاد العالمي . وكان اول معرض قد نظم عقب ثورة شباط في لندن في عام ١٨٥٢ ، كما نظم المعرض الثاني في باريس في عام ١٨٥٥ ، ثم أقيم الثالث من جديد في لندن .

اتاح ذلك المعرض الفرصة في باريس للقيام بحملة تحريض بين العمال . وتوجهت مجموعة آرمان ليفي الى رئيس اللجنة المكلفة بتنظيم الجناح الفرنسي في معرض لندن . وكان ذلك الرئيس هو الامير بلون ـ بلون ، وقد أمر بتخصيص معونة مالية لارسال وفد عمالي الى معرض لندن .

أثار هذا الكرم مناقشات محمومة في جميع المشاغل والورشات الباريسية . وبديهي ان البلانكيين عارضوا بحزم

قبول تلك الصدقة الحكومية . لكن مجموعة اخرى ، كانت الغلبة فيها للتعاضديين ، اخذت برأي مخالف . فقد ارتأت انه من الواجب انتهاز تلك السانحة الشرعية . وقالت ان المال مقدم لارسال مندوبين عماليين . وعليه ، تنبغي المطالبة بأن ينتخب الوفد من قبل الورشات والمشاغل ، لا ان يسمى من قبل السلطات . وستكون تلك الانتخابات فرصة ممتازة للدعاية ، وسيسعى العمال الى انجاح مرشحيهم .

توصلت تلك المجموعة ، بقيادة عاملين هما تولان وبيراشون ، الى ترجيح كفة وجهة نظرها . ووافقت السلطات على اجراء انتخابات في الورشات والمشاغل ، وتم انتخاب مرشحي المجموعة الثانية برمتهم تقريبا . وقاطع البلانكيون الانتخابات . اما مجموعة ليفي فلم يفز لها اي مرشح . على هذا النحو جرى تنظيم وفد باريس العمالي . ومن المانيا ايضا أرسل الى لندن وفد كان على صلة بمجموعة العمال التي اخذت على عاتقها تنظيم المؤتمر العمالي وقصدت لهذا الغرض لاسال .

على هذا النحو اتاح معرض لندن الكوني الفرصة للقاء العمال الفرنسيين والانكليز والالمان . وقد اجتمع اولئك العمال بالفعل، والى ذلك الاجتماع يرجع بعض المؤرخين تاريخ تأسيس **الاممية**. لقد سبق لي ان زكيت لكم كتاب ستكلوف عن تاريخ **الاممية** . فلنرَ ما يقوله عن ذلك اللقاء :

«قدم معرض ١٨٦٢ الكوني الذريعة للعمال الانكليز ولرفاقهم من البر الاوروبي ليتقاربوا ويتفاهموا . ففي لندن ... ، في ٥ آب ١٨٦٢ ، كان الاستقبال الحفي لسبعين مندوبا عن العمال الفرنسيين من قبل رفاقهم الانكليز . وفي الخطب التي ألقيت في تلك المناسبة ، جرى التوكيد على ضرورة اقامة اتصال أممي بين

البروليتاريين الذين يشتركون كبشر ومواطنين وشغيلة في مصالح واحدة وصبوات واحدة » .

ما هذه ، ويا للاسف ، الا خرافة . وفي الواقع كان لذلك الاجتماع ، كما برهنت على ذلك منذ زمن بعيد ، طابع مغاير تماما . فقد انعقد بمشاركة ممثلي البورجوازية والطبقات الحاكمة ومباركتهم . والخطب التي ألقيت فيه لم تجرح أي رب عمل ولم تقلق بال أي شرطي ، لان الرأسماليين الانكليز ، الذين كانوا اثناء اضراب عمال البناء زعماء المقاولين ، شاركوا في الاجتماع . ومما له دلالته بهذا الصدد ان التريديونيونيين الانكليز ابوا المشاركة في ذلك المهرجان الخطابي . ذلك هو السبب الذي يمنعنا من اعتبار ذلك الاجتماع بداية **الاممية** .

الشيء الصحيح الوحيد انه ما دام قد قدم الى لندن عمال من فرنسا وألمانيا ، فلا بد انهم التقوا فيها العمال الفرنسيين والالمان المهاجرين بعد ١٨٤٨ . والحال ان المكان الذي كان يلتقي فيه عمال مختلف القوميات بعد ١٨٥٠ كان جمعية التثقيف العمالي التي أسسها في ١٨٤٠ شابر ورفاقه . وكان مطعم تلك الجمعية ومقهاها يقعان في الحي الذي كان يقيم فيه يومئذ الاجانب . وقد لبث ذلك الحي مركز تجمع الاجانب الى زمن الحرب الامبريالية التي كان من اول ضحاياها الجمعية العمالية الالمانية التي بات لها من العمر ٧٤ عاما . وهذا ما أمكن لي ان الحظه شخصيا عند اقامتي في لندن يوم قدمت اليها في ١٩٠٩ و١٩١٠ للعمل في **المتحف البريطاني** . ولم يكن هناك يومئذ مكان آخر واحد يمكن فيه التقاء مثل ذلك العدد الكبير من العمال الاجانب . وقد بادرت الحكومة الانكليزية الى اغلاق النادي الالماني غب اعلان الحرب .

من المؤكد ان بعض اعضاء الوفد الفرنسي تعرفوا الى المهاجرين الفرنسيين القدامى ، مثلما تجدد التعارف بين عمال

لايبزغ وبرلين الالمان وبين رفاقهم القدامى . لكن مثل تلك الاتصالات كانت بالطبع عارضة ، وما كانت اهلا لان تؤدي لا الى تأسيس **الاممية** ولا الى تنظيم اجتماع ٥ آب الذي يعزو اليه ستكلوف ، مقتفيا بذلك أثر مؤرخين آخرين ، اهمية فائقة .

على انه وقع وقتئذ حدثان بالغا الاهمية . كان الاول الحرب الاهلية في الولايات المتحدة . فقد كانت مسألة الغاء الرق قد طرحت منذ بعض الوقت على جدول الاعمال ، كما سبق لي القول . وقد اكتست تلك المسألة حدة بالغة وفجرت صراعا شديد العنف بين ولايات الجنوب وولايات الشمال قررت معه الولايات الاولى ، كي تبقي على الرق ، الانفصال عن **الاتحاد** وتأسيس جمهورية مستقلة . وعلى الاثر اندلعت حرب تمخضت عن نتائج لامتوقعة ومزعجة للغاية بالنسبة الى العالم الرأسمالي قاطبة . ففي ذلك العهد كانت الولايات الجنوبية تحتكر بمفردها تقريبا انتاج القطن وتمون الصناعة القطنية في العالم قاطبة . وما كانت مصر تنتج وقتئذ غير كمية ضئيلة للغاية من القطن ؛ وما كانت الهند الشرقية وتركستان تقدمان شيئا للسوق الاوروبية . وعلى هذا النحو وجدت اوروبا نفسها محرومة على حين غرة من القطن . وفيما تمكنت الصناعة في مجملها من معاودة النهوض من ازمة ١٨٥٧ ــ ١٨٥٨ ، حلت بالصناعة القطنية ازمة لا سابق لها اصابت لا انكلترا فحسب ، بل ايضا فرنسا والمانيا ، وحتى روسيا حيث تعرض معمل بروخوروف لخسائر فادحة . وأدى نقص القطن الى ارتفاع كبير في أسعار سائر المواد الاولية المستخدمة في الصناعة النسيجية . صحيح ان الرأسماليين الكبار عانوا أقل مما عانى غيرهم ، لكن الصغار والمتوسطين سارعوا الى اغلاق مشاريعهم . وهكذا قضي بالجوع على مئات الالوف من العمال الاوروبيين .

اقتصر دور الحكومات على صدقات تافهة . وشرع العمال الانكليز ، الذين كانوا قبيل ذلك بقليل قد ضربوا المثل في التضامن

اثناء اضراب عمال البناء ، بتنظيم اعمال المساعفة والنجدة . وتولى المبادرة الى ذلك المجلس اللندني للتريديونيونات . وتألفت لذلك الغرض لجنة خاصة . وكذلك جرى في فرنسا ، حيث تولى قيادة تلك اللجنة ممثلو المجموعة التي كانت قد نظمت انتخاب الوفد العمالي الى معرض لندن . وجرت اتصالات بين اللجنتين . وبذلك قام لدى العمال الانكليز والفرنسيين برهان جديد على الارتباط الوثيق في المصالح بين عمال مختلف الاقطار. وهكذا تكون الحرب الاهلية في الولايات المتحدة قد احدثت انقلابا عميقا في حياة اوروبا الاقتصادية ، وضربت على السواء العمال الانكليز والفرنسيين والالمان ، وحتى العمال الروس في محافظتي موسكو وفلاديمير . لهذا كتب ماركس ، في مقدمة المجلد الاول من **الرأسمال** ، ان حرب الانفصال في القرن التاسع عشر قرعت ناقوس الخطر للطبقة العاملة ، تماما كما كانت حرب استقلال الولايات المتحدة ضد انكلترا قد قرعت ناقوس الخطر للبورجوازية الفرنسية قبل الثورة .

وقد وقع عصرئذ حدث آخر كان له أثره ايضا على عمال مختلف الاقطار . فقد ألغيت القنانة في روسيا . ودعت الحاجة الى تحقيق سلسلة من الاصلاحات في سائر فروع الادارة والحياة الاقتصادية . وفي الوقت نفسه كانت الحركة الثورية تتعزز وتطرح مطالب اكثر جذرية . واخذت مناطق الحدود ، بما فيها بولونيا ، تضطرب . واغتنمت الحكومة القيصرية السانحة لتضع حدا دفعة واحدة للعصيان الخارجي والداخلي . فقد حرضت بولونيا على شهر راية التمرد ، وشحذت في الوقت نفسه النزعة الوطنية الروسية ـ الكبرى بمساعدة كاتكوف وغيره من الكتاب المرتشين . وكلف مورافييف وزبانيته بقمع الانتفاضة البولونية .

لاقت الانتفاضة البولونية في اوروبا الغربية ، حيث كانت القيصرية الروسية موضع كراهية عامة، تعاطفا حماسيا. وأباحت

حكومات شتى ، ومنها الحكومتان الفرنسية والانكليزية ، حرية العمل كاملة للمدافعين عن الانتفاضة البولونية ، محاولة بذلك ان تعطي متنفسا للتذمر الذي كانت نذره تتراكم في اوساط العمل. ونظمت في فرنسا سلسلة من الاجتماعات ، ونظمت كذلك لجنة كان على رأسها تولان وبيراشون . وفي انكلترا تولى قيادة الحركة المناصرة للبولونيين كريمر وأوجر عن العمال والاستاذ بيسلي عن المثقفين الراديكاليين .

في نيسان ١٨٦٣ أقيم في لندن مهرجان خطابي ضخم برئاسة الاستاذ بيسلي وألقى فيه كريمر خطابا للدفاع عن البولونيين . واتخذ الاجتماع قرارا بدعوة العمال الفرنسيين والانكليز الى ممارسة الضغط على حكومتيهما لحملهما على التدخل لصالح بولونيا . وتقرر ايضا تنظيم مهرجان خطابي أممي . وأقيم ذلك المهرجان في لندن برئاسة بيسلي نفسه ، في ٢٢ تموز ١٨٦٣ . وتحدث فيه أوجر وكريمر باسم العمال الانكليز ، وتولان باسم العمال الفرنسيين . وقد أكد الجميع على ضرورة إحياء بولونيا المستقلة . كان ذلك هو الموضوع الوحيد لخطاباتهم . لكن عقد في اليوم التالي اجتماع لا يأتي بذكره عادة مؤرخو **الاممية** . وقد جرى تنظيمه بمبادرة من المجلس اللندني للتريديونيونات ، لكن بدون مشاركة العناصر البورجوازية هذه المرة . وقد أكد فيه أوجر على ضرورة ارتباط أوثق بين العمال الانكليز وعمال البر الاوروبي . وطرحت المسألة طرحا عمليا . وقد سبق ان ذكرت لكم ان العمال الانكليز كانوا يلقون مزاحمة شديدة من قبل العمال الفرنسيين والبلجيكيين ، ولاسيما العمال الالمان . وفي ذلك الزمن كانت الخبازة ، التي كان كبار المقاولين قد وضعوا اليد عليها ، تعتمد بصورة رئيسية على العمال الالمان . وكان العديد من الفرنسيين يعملون في البناء والاثاث والصناعة الفنية . لهذا كان التريديونيون الانكليز يفتنمون كل سانحة للتأثير على العمال

الاجانب القادمين الى انكلترا . والحال ان أسهل وسيلة للوصول الى ذلك كانت قيام تنظيم يجمع بين العمال من شتى القوميات .

وتقرر ان يوجه العمال الانكليز خطابا الى العمال الفرنسيين. ومضى ما يقارب أشهرا ثلاثة قبل ان يرفع ذلك الخطاب الى التريديونيونيين في لندن ليحظى بمصادقتهم . وقد تولى كتابته بصورة رئيسية أوجر الذي استوحى الى حد ما ، في أرجح الظن ، خطاب التعاطف الذي كان توماس هارون قد وجهه في نهاية القرن الثامن عشر الى الثوريين الفرنسيين .

في تلك الحقبة كانت الانتفاضة البولونية قد قمعت بوحشية منقطعة النظير على يد الحكومة القيصرية . ولا يكاد الخطاب يأتي بذكر ذلك . وحتى اعطيكم فكرة عن طابعه ، سأتلو عليكم منه المقطع التالي :

«ان إخاء الشعوب ضروري للغاية لصالح العمال . ففي كل مرة نحاول فيها تحسين وضعنا عن طريق تقليص مدة يوم العمل او زيادة الاجور ، يتوعدنا الرأسماليون باستخدام عمال فرنسيين وبلجيكيين وألمان مستعدين لاداء عملنا مقابل سعر أدنى ارتفاعا. ومن سوء الحظ ان هذا التهديد يوضع موضع تنفيذ في أحيان كثيرة . ومن المؤكد ان الخطأ لا يقع على عاتق رفاق البر الاوروبي ، وانما فقط على عدم وجود صلة منظمة بين الأجراء من شتى الاقطار . الا اننا نأمل ان يزول هذا الوضع عما قريب ، لان جهودنا للوصول الى وضع العمال المتدنية أجورهم على نفس مستوى الذين يتقاضون أجورا مرتفعة ستمنع عما قريب المقاولين من استخدام بعضنا ضد بعض لخفض مستوى حياتنا ، طبقا لروحهم التجارية» .

لم يترجم الخطاب الى الفرنسية من قبل الاستاذ بيسلي ويرسل الى باريس الا في تشرين الثاني ١٨٦٣ . وجرى تداوله في باريس كمادة تحريضية في الورشات والمشاغل . بيد ان رد العمال الفرنسيين تأخر طويلا . فقد كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق عهدئذ في باريس للانتخابات التكميلية للهيئة التشريعية التي كان من المفترض ان تجري في آذار ١٨٦٤ . وفي تلك المناسبة طرحت مجموعة من العمال، ومنهم تولان وبيراشون، سؤالا بالغ الاهمية : هل ينبغي ان يكون للعمال مرشحوهم الخاصون بهم ام عليهم الاكتفاء بتأييد المرشحين الراديكاليين ؟ وبعبارة اخرى ، هل ينبغي الانفصال بوضوح وجلاء عن المعارضة البورجوازية والتدخل على اساس برنامج خاص ام يتوجب السير في ركاب الاحزاب البورجوازية ؟ وقد نوقشت تلك المسألة نقاشا واسعا في ختام ١٨٦٣ ومطلع ١٨٦٤ . وقرّ القرار على التدخل على حدة وترشيح تولان . كما تقرر في الوقت نفسه تعليل ذلك الانشقاق عن الديموقراطية البورجوازية في وثيقة برنامجية خاصة حملت ، طبقا لعدد موقعيها ، اسم **بيان الستين** .

ان ذلك البيان متشبع بروح البرودونية في قسمه النظري ، في نقده للنظام البورجوازي . لكنه ينأى بوضوح وجلاء في الوقت نفسه عن البرنامج السياسي للمعلم ، ويدعو الى تشكيل تنظيم سياسي خاص للعمال ، ويطالب بترشيح عمال الى البرلمان كيما يتمكنوا من الذود عن مصالح البروليتاريا .

أيد برودون بحرارة **بيان الستين** وكتب في هذا الموضوع كتابا هو من خير مؤلفاته . وقد انكب على العمل فيه في الاشهر الاخيرة من حياته ، لكنه قضى نحبه قبل صدوره . وعنوان ذلك الكتاب **عن الطاقات السياسية للطبقة العاملة** . وقد أقر فيه برودون للعمال بالحق في ان يكون لهم تنظيم طبقي مستقل. وأيد البرنامج الجديد للعمال الباريسيين الذي رأى فيه خير دليل على الطاقات السياسية الهائلة التي تنطوي عليها الطبقة العاملة .

ولئن تمسك بوجهة نظره القديمة عن الاضرابات وجمعيات التضافر والمساعدة المتبادلة ، فان كتابه يعيد الى الاذهان ، بما ينبض به من روح احتجاج على المجتمع البورجوازي ومن نزوع بروليتاري ، مؤلفه الاول عن الملكية . وقد غدت هذه المنافحة عن الطبقة العاملة واحدا من الكتب المأثورة لدى العمال الفرنسيين . وحين يدور الكلام عن تأثير البرودونية في عهد **الاممية الاولى** ، لا يجوز ان نسهو عن ان المقصود بها البرودونية كما تكونت بعد نشر **بيان الستين** . فتحت ذلك الشكل ، مارست البرودونية تأثيرا كبيرا على وجهات نظر المثقفين الثوريين الروس . وقد ترجم كتاب برودون ، الصادر بعد وفاته ، الى الروسية على يد واحد من كتّابنا ، ن. ميخائيلوفسكي ، الذي اصاب منه علما كثيرا .

تصرم زهاء عام من الزمن قبل ان يضع العمال الباريسيون خطابا جوابيا . وقد تم انتخاب وفد خاص لنقله الى لندن. واستقبالا لهذا الوفد نظم اجتماع حاشد في ٢٨ ايلول ١٨٦٤ في قاعة سان مارتان ، في قلب المدينة . وقد ترأس الحفل بيسلي. وكانت القاعة مكتظة . وفي البدء تلا أوجر خطاب العمال الانكليز. ثم تلا تولان خطاب الفرنسيين . وهاكم هذا المقطع منه :

«التقدم الكوني ، تقسيم العمل ، حرية التجارة : تلك هي العوامل الثلاثة التي ينبغي ان تستأثر بانتباهنا ، لانها قمينة بتحويل حياة المجتمع الاقتصادية تحويلا جذريا . لقد شكل الرأسماليون ، بقسر من قوة الاشياء وحاجات الزمان ، اتحادات مالية وصناعية قوية . واذا لم نتخذ تدابير دفاعية ، فسنسحق سحقا لا رحمة فيه ولا شفقة . ان علينا ، نحن عمال الاقطار قاطبة ، أن نتحد وأن نقيم سدا منيعا في وجه الوضع القائم الذي يهدد بقسم البشرية

الى سواد من جياع الناس والساخطين من جهة، والى اوليغارشية من ملوك المال والاحبار المليئي البطون . ألا فلنساعد بعضنا بعضا حتى ندرك هدفنا» .

بل ان العمال الفرنسيين حملوا معهم مشروع تنظيم . وبموجبه تشكل في لندن لجنة خاصة مؤلفة من ممثلي جميع الاقطار ، كما تشكل في جميع المدن الكبرى في أوروبا لجان فرعية على اتصال بتلك اللجنة المركزية وترفع اليها هذه المسألة او تلك للفحص والدرس . وعلى الهيئة المركزية ان تحكم في حصيلة النقاش . ولتحديد شكل التنظيم بصورة نهائية ، يجب ان يدعى مؤتمر أممي للانعقاد في بلجيكا .

لكنكم ستسألونني ولا بد : ما كان دور ماركس ؟ لم يكن لماركس اي دور في ذلك كله . لقد رويت لكم بالتفصيل قصة التحضير ليوم ٢٨ ايلول ١٨٦٤ ، ذلك اليوم الذي نرجع اليه تاريخ **الاممية** ، حتى تعرفوا ان كل ما تم فعله في ذلك الاجتماع، من البداية الى النهاية ، كان من صنع العمال انفسهم . وحتى الان ما أمكنني ان أذكر اسم ماركس مرة واحدة . بيد انه كان ، في ذلك اليوم المشهود ، حاضرا الاجتماع بصفة مدعو . كيف امكن له ان يشارك فيه ؟ الجواب على هذا السؤال نجده في مذكرة صغيرة وجدتها بالمصادفة بين شتى اوراق ماركس :

الى السيد ماركس ،

سيدي ، ان لجنة تنظيم المهرجان ترجوك ان تتكرم بحضوره . وبإبرازك هذه المذكرة ، تستطيع ان تدخل الى القاعة التي ستجتمع فيها اللجنة في الساعة ٧٫٣٠ .

المخلص لك

كريمر .

حين عثرت على هذه الرسالة ، تساءلت بيني وبين نفسي عما يمكن ان يكون قد دفع بكريمر الى دعوة ماركس . ولماذا لم ترسل تلك الدعوة الى العديد من المهاجرين الآخرين المقيمين وقتئذ في لندن والذين كانوا على أوثق الصلات بالفرنسيين او الانكليز ؟ ولماذا انتخب ماركس في **لجنة** الجمعية الاممية المقبلة ؟

يمكننا ان نفرض فروضا عدة بصدد هذا الموضوع . وأقرب الفروض الى الواقع هو التالي . لقد سبقت لي الاشارة الى الدور الذي لعبته الجمعية العمالية الالمانية التي كان مقرها في لندن نقطة تجمع للعمال من مختلف القوميات . وقد اكتسبت تلك الجمعية المزيد من الاهمية حين ادرك العمال الانكليز انفسهم ضرورة توثيق الروابط بالالمان لإضعاف أثر العواقب الوخيمة للتزاحم بين العمال الذين كان المقاولون يجتذبونهم الى لندن عن طريق وكلاء شتى . ومن هنا قامت علاقات شخصية وثيقة مع اعضاء **رابطة الشيوعيين** القديمة : ايكاريوس ، لسنر ، بفندر . وكان الاولان خياطين ، والثالث جصاصا ـ رساما يعمل في البناء وكانوا جميعهم يشاركون بنشاط في الحركة المهنية اللندنية ويعرفون عميق المعرفة منظمي المجلس اللندني للتريديونيونات وقادتها . وأرجح الظن ان كريمر وأوجر تعرفا بوساطتهم الى ماركس الذي كان قد جدد بدوره ، في زمن قضية فوغت ، علاقاته بالجمعية العمالية الالمانية .

اذن فالدور الحقيقي لماركس ، الذي لم يكن مؤسس **الاممية الاولى** وان أصبح بسرعة عقلها المدبر الرئيسي ، لم يبدأ الا بعد تأسيس تلك **الاممية** . وكما رأيتم ، لم تتلق اللجنة المنتخبة في اجتماع ٢٦ ايلول اي تعليمات او اي توجيهات . ولم يكن بين يديها لا برنامج ، ولا نظام داخلي ، ولم يكن لها حتى اسم . وقد كان في لندن اصلا جمعية أممية هي «**الرابطة العامة**» التي استضافت **اللجنة** . وفي محضر ضبط الجلسة الاولى لتلك

اللجنة تمثل اسماء ممثلي تلك **الرابطة** ، وكانوا كلهم من البورجوازيين الطيبين . ولم يقترحوا البتة على اللجنة الجديدة تأسيس جمعية جديدة . كان بعضهم يتحدث عن تنظيم جمعية أممية جديدة مشرعة الابواب لا امام العمال وحدهم ، وانما ايضا امام جميع اولئك الذين يرغبون في اتحاد أممي وينشدون تحسين الوضع السياسي والاقتصادي للجماهير الكادحة . وانما بناء على إلحاح اثنين من العمال ، ايكاريوس وفيتلوك ـ وهذا الاخير ميثاقي سابق ـ تقرر ان يطلق على الجمعية الجديدة اسم **الرابطة الاممية للشغيلة** . وقد حظي هذا الاقتراح بتأييد الانكليز الذين كان في عدادهم ميثاقيون كثر من اعضاء **الجمعية العمالية** القديمة ، مهد الحزب الميثاقي .

ان التسمية التي اطلقت على الجمعية الاممية الجديدة حددت للحال طابعها . فقد اقصت عنها للحال البورجوازيين الطيبين المقيمين في مقر **الرابطة العامة** . ودعيت اللجنة الى البحث عن مقر جديد . وحالفها التوفيق في العثور على غرفة صغيرة غير بعيد عن الجمعية العمالية الالمانية ، في الحي الذي كان يقطنه المهاجرون والعمال الاجانب .

ما ان عمدت الجمعية بذلك الاسم ، حتى شرعت تضع البرنامج وتحرر مواد النظام الداخلي . ولكي نفهم ما جرى في فترة لاحقة ، ينبغي ان نتخيل جلسة للجنة بتروغراد او موسكو التنفيذية يدور فيها صراع بين عدة اجنحة او احزاب . ان خير وسيلة لتمرير اي فئة لقرارها هي تأمين الغالبية لها . هذا ما يعرفه كل عضو في لجنة حي من الاحياء ؛ وهذا ما كان يعرفه ايضا اعضاء لجنة **الاممية** . فحين كانوا يذهبون الى الجلسات كانوا يصطحبون معهم اكبر عدد ممكن من الاصدقاء . بيد ان سوء الطالع شاء ان تكون اللجنة مؤلفة من العناصر الاكثر اختلافا وتنافرا .

كان هناك ، في المقام الاول ، الانكليز الذين كانوا هم انفسهم

منقسمين الى عدة فئات : تريديونيونيين ، ميثاقيين قدامى ، اوينيين سابقين . وكان هناك فرنسيون لا باع طويلة لهم في المسائل الاقتصادية ، لكنهم كانوا يعتبرون اختصاصيين في الفن الثوري . وكان هناك ايضا ايطاليون ، وكانوا ذوي نفوذ واسع وقتئذ لانهم كانوا بقيادة رجل واسع الشعبية لدى الانكليز هو الثوري العتيق ماتزيني ، الجمهوري المتحمس ، وفي الوقت نفسه المتدين . وكان هناك مهاجرون بولونيون يقدمون المسألة البولونية على كل مسألة عداها . وكان هناك اخيرا المان قلائل ، وجميعهم من قدامى اعضاء **رابطة الشيوعيين** : ايكاريوس ، لسنر ، لوخنر ، بفندر ، واخيرا ماركس .

طرحت مشاريع عدة . عرض الايطاليون مشروعا صمم والمشروع الفرنسي وفق نموذج واحد تقريبا . وقد دافع ماركس، في اللجنة الفرعية التي كان يشارك في اعمالها ، عن اطروحاته ، وكلف في آخر المطاف بتقديم مشروعه الى مكتب اللجنة . وفي الجلسة الرابعة ــ في الاول من تشرين الثاني ١٨٦٤ ــ تم بغالبية ساحقة اقرار مشروع ماركس ، مع بعض التعديلات الشكلية العديمة الاهمية .

كيف حدث ذلك ؟ يجب عليّ ان اقول ، ولو جازفت بالنيل من قدر ماركس في انظاركم ، ان ذلك لم يتم بدون مساومة ، بدون تساهل . وكما قال ماركس نفسه في رسالة له الى انجلز، اضطر الى «ان يدخل على النظام الداخلي والبرنامج بعض كلمات من أشباه «الحق» ، «الاخلاق» ، «العدالة» ، لكنه ادرجها «على نحو لا يمكن ان ينجم عنها ضرر» .

لكن ليس ذلك سر ماركس ، وما على ذلك النحو أفلح في اجتماع شديد الاختلاط كذاك في ان يفوز بالتأييد شبه الاجماعي لأطروحاته . انما يكمن سر نجاحه في الموهبة الخارقة (وهذا ما يقر به حتى عدوه باكونين) التي دلل عليها في تأليف **الخطاب**

الافتتاحي للاممية . وكما يقر ماركس في الرسالة السالفة الذكر الى انجلز ، كان من الصعوبة بمكان عرض وجهات النظر الشيوعية في شكل يؤهلها لان تكون مقبولة لدى الحركة العمالية عهدئذ . كان من المستحيل استخدام لغة **البيان الشيوعي** الجريئة والثورية . كان المطلوب العنف في المضمون ، والاعتدال في الشكل . وقد قام ماركس بتلك المهمة خير قيام .

كتب ذلك **الخطاب** بعد سبعة عشر عاما من **البيان الشيوعي**. كان **الخطاب** و **البيان** اذن من وضع مؤلف واحد ، لكن كان ثمة اختلاف عميق بين العهدين اللذين حررا فيهما وبين التنظيمين اللذين كتب لهما وباسمهما . كان **البيان الشيوعي** قد الف باسم مجموعة صغيرة من الثوريين والشيوعيين برسم حركة عمالية كانت ما تزال يافعة . لكن منذ ذلك الحين كان الشيوعيون يؤكدون على انهم لا يطرحون اي مبادىء خاصة بنية فرضها على الحركة العمالية ، وعلى انهم يسعون فقط الى تسليط الضوء ضمن نطاق تلك الحركة على المصالح العامة للبروليتاريا في الاقطار جميعا ، بصرف النظر عن القوميات .

اما في ١٨٦٤ فقد نمت الحركة العمالية نموا محسوسا ، واكتست بطابع طبقي ، لكنها كانت لا تزال متخلفة تخلفا ملموسا ايضا ، من منظور تطور الوعي الطبقي ، عن الطليعة الثورية الضئيلة العدد لعام ١٨٤٨ . وما كانت هيئة الاركان الجديدة لتلك الحركة ، التي باسمها كتب ماركس آنئذ ، بأقل تخلفا عن تلك الطليعة . لذا كان ملزما بأن يكتب البيان الجديد آخذا في اعتباره مستوى تطور الحركة العمالية وقادتها ، من دون ان يتخلى مع ذلك عن اي اطروحة اساسية من اطروحات **البيان الشيوعي** .

انكم لتعرفون تكتيك الجبهة الواحدة الذي انتهجته **الاممية الشيوعية** . والحال ان ماركس اعطى ، في بيانه الجديد ، مثالا كلاسيكيا على تطبيق ذلك التكتيك . فقد صاغ فيه المطالب وأبرز

جميع النقاط التي يمكن ويجب ان تتحد حولها الجماهير العمالية، والتي على اساسها يمكن لوعي العمال الطبقي ان يستمر في التطور . والمطالب الطبقية المباشرة للبروليتاريا التي صاغها ماركس كانت نتيجة منطقية للمطالب السابقة التي وردت في **البيان الشيوعي** .

ومن مختلف تلك الزوايا كان ماركس يتفوق تفوقا ساحقا على ماتزيني وعلى الثوريين الفرنسيين وعلى الاشتراكيين الانكليز المواظبين في مقر **الاممية** . كان قد قام على مدى سبعة عشر عاما، من دون ان يعدل شيئا في مبادئه الاساسية ، بعمل ضخم . اذ كان قد انهى الرسم الاولي لمؤلفه العظيم وانكب على انجاز المجلد الاول من **الرأسمال** . كان ماركس وقتئذ الرجل الوحيد في العالم الذي أحسن دراسة وضع الطبقة العاملة وفهم عميق الفهم اوالية المجتمع الرأسمالي . لم يكن في انكلترا كلها رجل واحد كلف نفسه مثله مشقة دراسة جميع تقارير مفتشي المصانع وأعمال اللجان البرلمانية التي تصور وضع شتى فروع الصناعة ومختلف شرائح البروليتاريا المدينية والريفية . وكان ماركس ضليعا في هذه المسائل اكثر من العمال الاعضاء في اللجنة . كان في هذه اللجنة خبازون يعرفون حق المعرفة الوضع في حرفتهم ، واسكافيون ذوو اطلاع على صناعة الاحذية، ونجارون وجصاصون ملمون بأوضاع عمال البناء ، لكن لم يكن هناك غير ماركس يعرف عميق المعرفة وضع شتى شرائح الطبقة العاملة ويحسن ربطه بالقوانين العامة للانتاج الرأسمالي .

تجلت موهبة ماركس كمحرض في تأليف ذلك البيان . فكما انطلق في **البيان الشيوعي** من الواقعة الاساسية في كل التطور التاريخي وكل الحركة السياسية ، واقعة صراع الطبقات ، كذلك فانه يبدأ البيان الجديد لا بعبارات عامة ، لا بمواضيع سامقة ، وانما بوقائع مميزة لوضع الطبقة العاملة :

«ثمة واقعة بالغة الاهمية : فمن ١٨٤٨ الى ١٨٦٤ لم ينقص بؤس الطبقة العاملة ، مع أن تلك الحقبة منقطعة النظير في التاريخ من حيث تطور الصناعة والتجارة » .

وبالرجوع الى خطاب غلادستون في مجلس العموم يبين ماركس ان تسعة أعشار الناس مرغمون على خوض غمار صراع شرس تأمينا للقمة عيشهم لا اكثر ، على الرغم من ان التجارة في بريطانيا العظمى تضاعفت ثلاث مرات منذ ١٨٤٣ . وكان المجرمون والمعتقلون في المنافي يقتاتون خيرا مما تقتات به شرائح عدة من العمال .

وبالرجوع الى وثائق اللجان البرلمانية يبين ماركس ان الغالبية الساحقة من الطبقة العاملة ناقصة التغذية ، آيلة الى انحلال ، فريسة للامراض ، بينما تكدس الطبقات المالكة المزيد فالمزيد من الثروات .

يستنتج ماركس ان ادواء الطبقة العاملة لا علاج لها ، بخلاف مزاعم الاقتصاديين البورجوازيين ، لا بتحسين الآلات ، ولا بتطبيق العلم على الصناعة ، ولا باكتشاف مستعمرات جديدة ، ولا بالهجرة ، ولا بخلق اسواق جديدة ، ولا بحرية التجارة . ومن هنا يخلص الى الاستنتاج ، كما في «البيان الشيوعي» ، بأنه ما دام النظام الاجتماعي متمسكا بأسسه القديمة ، فان كل تطور جديد لقوة انتاج العمل لن يؤدي الا الى توسيع الهوة التي تفصل الان بين مختلف الطبقات وإلا الى تأجيج نار التطاحن الدائرة رحاه بينها .

وبعد ان ينوه ماركس بالاسباب التي اسهمت في هزيمة الطبقة العاملة في ١٨٤٨ واوجدت فيها ذلك الخمول المميز للحقبة الممتدة من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩ ، يعرض المكاسب الزهيدة التي انتزعها العمال في تلك الحقبة .

هناك اولا قانون تحديد يوم العمـــل بعشر ساعات . يبين ماركس ان تخفيض يوم العمل ، بخلاف مزاعم اذناب الراسمال، لا يلحق الضرر بمردود العمل ، بل على العكس يزيده . وناهيك عن ذلك ، أكد القانون المذكور انتصار مبدأ تدخل الدولة فـــي مضمار العلاقات الاقتصادية على المبدأ القديم القائل بحريـــة المزاحمة . ويخلص ماركس الى التوكيد، كما في **البيان الشيوعي**، على حاجة الطبقة العاملة الى اخضاع الانتاج لرقابة المجتمـــع بكامله ولقيادته وتوجيهه ، لان مثل هذا الانتاج الاجتماعي هـــو المبدأ الاساسي للاقتصاد السياسي للطبقة العاملة . وعليه ، فان قانون تحديد يوم العمل بعشر ساعات لم يكن مجرد نجاح عملي ، بل كان ايضا دليلا على انتصار الاقتصاد السياسي للطبقة العاملة على الاقتصاد السياسي للبورجوازية .

ومن المكاسب الاخرى المعامل التعاونية التي تم تأسيسهـــا بمبادرة من العمال . لكن ماركس ، بخلاف لاسال ، الذي كـــان يعتبر الجمعيات الانتاجية نقطة انطلاق لتحويل المجتمع برمته ، لا يبالغ في اهميتها العملية . بل على العكس ، فهو لا يدعو اليها الا لكي تتبين الجماهير العمالية ان الانتاج الكبير الموجه وفق المناهج العلمية يمكن ان يتم ويتطور بدون طبقة الرأسماليين المستغلين لليد العاملة ، وان وسائل الانتاج لا ينبغي ان تكون حكرا لافراد بعينهم وان تتحول الى اداة عنف واسترقاق ، وان نظام الاجارة ، كالقنانة ، ليس أبديا ، وانما هو طور انتقالي ، شكل أدنى للانتاج لا مناص من ان يحل محله الانتاج الاجتماعي . وبعد تثبيت ماركس لتلك الاستنتاجات الشيوعية يشير الى انه ما دامت تلك الجمعيات الانتاجية مقصورة على حلقة ضيقة من العمال فلـــن تكون مؤهلة للتخفيف ، ولو في أدنى الحدود ، من وطأة وضـــع الطبقة العاملة .

ان الانتاج التعاوني يجب ان يشمل البلاد قاطبة . واذ يطرح ماركس على هذا النحو مهمة تحويل الانتاج الرأسمالي الى انتاج

اشتراكي ، يلفت الانتباه للحال الى ان ذلك التحويل سيلقى المعاكسة بكل وسيلة ممكنة من قبل الطبقات السائدة ، وأن الملاك العقاريين والرأسماليين سيستغلون سلطانهم السياسي لحماية امتيازاتهم الاقتصادية . لهذا يكمن الواجب الاول للطبقة العاملة في الاستيلاء على مقاليد السلطة السياسية ؛ وهذا ما يتطلب تنظيم احزاب عمالية في كل مكان . ويتوفر للعمال عامل نجاح : كثرتهم ، تعدادهم . لكن هذه الكثرة لا تكون قوية الا متى كانت متلاحمة ، مصمتة ، متحدة ، هاديها العلم . اما في حال انعدام التلاحم العميق والتضامن والتعاضد في النضال من اجل التحرر ، وأما في حال غياب تنظيم قومي وأممي ، فالهزيمة مكتوبة على العمال . ويضيف ماركس القول : على ضوء هذه الاعتبارات قرر العمال من أقطار شتى تأسيس **الرابطة الاممية للشغيلة** .

لقد استخلص ماركس كما نرى ، بمهارة مدهشة ، وفي شكل معتدل ، من الوضع الفعلي للطبقة العاملة جميع الاستنتاجات الاساسية المتضمنة في **البيان الشيوعي** : التنظيم الطبقي للبروليتاريا ، الاطاحة بسيطرة البورجوازية ، استيلاء البروليتاريا على مقاليد السلطة السياسية ، الغاء العمل بالأجرة، تأميم جميع وسائل الانتاج .

بيد ان ماركس ـ وعلى هذا ينهي **الخطاب الافتتاحي** ـ يبرز مهمة سياسية اخرى بالغة الاهمية ويقدمها على غيرها من المهام. فعلى الطبقة العاملة الا تحد نفسها بالدائرة الضيقة للسياسة القومية . وانما يتوجب عليها ان تتابع بانتباه جميع مسائل السياسة الخارجية . واذا كان نجاح عملية تحرير الطبقة العاملة يرتهن بالتضامن الاخوي بين عمال جميع الاقطار ، فان الطبقة العاملة لا تستطيع انجاز مهمتها اذا قامت الطبقات التي توجه السياسة الخارجية باستغلال الاحكام المسبقة والتعصب القومي كي تؤلب عمال شتى الاقطار على بعضهم بعضا ، وكي تسفك في

حروب النهب والسلب دم الشعب وتهدر ممتلكاته . وعليه ، فقد آن الاوان كي يطلع العمال على جميع أسرار السياسة الدولية . عليهم ان يراقبوا دبلوماسية حكوماتهم ، وأن يقاوموها عند الاقتضاء بجميع الوسائل ، وأن يوحدوا صفوفهم ويرصوها في عملية احتجاج جماعي على المكائد والدسائس الاجرامية للحكومات. آن الاوان للتخلص من الوضع القائم الذي يباح فيه الخداع والنهب والسلب في العلاقات بين الشعوب ، أي الذي تنتهك فيه جميع القواعد التي تعتبر إلزامية في العلاقات بين الافراد .

لقد عرضت عليكم الافكار الاساسية التي تضمنها ذلك البيان المرموق . وفي المرة القادمة سأتناول الدستور والاطروحات الاساسية الواردة فيه ، لانه بصدد هذا الموضوع نشب صراع ضارٍ بين ماركس وباكونين .

المحاضرة الثامنة

[دستور الاممية الاولى ـ اجتماع لندن ـ مؤتمر جنيف ـ مذكـــرة ماركس التقريرية ـ المؤتمران الاميان في لـــوزان وبروكسيل ـ باكونين وماركس ـ مؤتمر بال ـ الحـــرب الفرنسية البروسية ـ عامية باريس ـ الصراع بين ماركس وباكونين ـ مؤتمر لاهاي] .

توقفت في المرة الماضية مليا عند تاريخ تأسيس **الاممية** وعند **الخطاب الافتتاحي** . وسأعرّفكم اليوم بدستور الاممية . فقـــد كتبه ماركس ايضا وهو يتألف من قسمين : قسم المبادىء وقسم التنظيم .

لقد رأيتم مدى براعة ماركس في تضمين **الخطاب الافتتاحي** المبادىء الاساسية للشيوعية . لكن كان من الاهم ومن الاصعب بكثير تضمينها في دستور **الاممية** . **فالخطاب الافتتاحي** ما كـان ينشد غير هدف واحد : تفسير الدوافع التي حفزت العمـــال

المجتمعين في ٢٨ ايلول ١٨٦٤ الى تأسيس **الاممية** . لكنه لم يكن **بعد الا برنامجا ، الا مدخلا** : لم يكن الا اعلانا رسميا يزف للعالم قاطبة ــ كما يشير عنوانه ــ بشرى تأسيس اتحاد أممي جديد ، **رابطة الشغيلة** .

اصاب ماركس قدرا مماثلا من التوفيق في اداء المهمة الثانية: صوغ المهام العامة للحركة العمالية في مختلف الاقطار . وسأتلو عليكم تلك الصياغة :

«نظرا الى ان انعتاق الشغيلة يجب ان يكون من صنع الشغيلة انفسهم ، وان جهود الشغيلة من اجل انعتاقهم لا ينبغي ان ترمي الى تكوين امتيازات جديدة، وانما الى اقرار حقوق وواجبات متماثلة للجميع ؛

والى ان استرقاق الرأسمال للشغيل هو مصدر كل عبودية : سياسية ومعنوية ومادية ؛

والى ان انعتاق الشغيلة الاقتصادي هو ، لذلك السبب ، الهدف الكبير الذي يجب ان تكون كل حركة سياسية ملحقة به باعتبارها وسيلة ؛

والى ان جميع الجهود التي بذلت حتى الان قد فشلت بنتيجة انعدام التضامن بين عمال شتى المهن في كل قطر ، وعدم وجود اتحاد أخوي بين الشغيلة من مختلف الامصار ؛

والى ان انعتاق الشغيلة ليس محض مشكلة محلية او قومية ، وان هذه المشكلة تهم على العكس جميع الامم المتمدينة ، على اعتبار ان حلها مرتهن بالضرورة بمساهمتها النظرية والعملية ؛

والى ان الحركة ، التي تتحقق بين عمال الاقطار الاوروبية الاكثر تصنيعا والتي تتولد عنها آمال جديدة، توجه تحذيرا جليلا من عدم السقوط مجددا في

الاخطاء القديمة ، وتسدي النصح بالتنسيق بين جميع الجهود التي ما تزال مبعثرة ، ...» .

ان القراءة المتأنية لهذه النقاط ستذكركم ولا بد ببعض اطروحات برنامج حزبنا التي لا تعدو ان تكون تكرارا حرفيا للاطروحات التي صاغها ماركس . والملاحظة نفسها تتأتى من مطالعة البرامج القديمة للاحزاب الانكليزي والفرنسي والالماني . وتوجد في البرنامج الفرنسي وفي برنامج ارفورت بوجه خاص بعض نقاط تكرر حرفيا الاطروحات الافتتاحية في دستور **الاممية الاولى** .

صحيح ان اعضاء اللجنة المؤقتة **للاممية** ما كانوا يفسرون بعضا من تلك الاطروحات تفسيرا متماثلا . ومن ذلك ان الانكليز والفرنسيين والالمانكانوا يقرون جميعهم بأن انعتاق الطبقة العاملة يجب ان يكون من صنع الشغيلة انفسهم ، لكن كان كل واحد منهم يفهم الامر على طريقته . فقد كان التريديونيونيون والاحزاب الانكليزية القديمة يرون في تلك الاطروحة احتجاجا على الوصاية المستديمة للطبقات المتوسطة ، وتوكيدا لضرورة تنظيم عمالي مستقل . اما الفرنسيون ، الذين كانوا وقتئذ منزعجين للغاية من المثقفين ، فقد قدروا ان تلك الاطروحة تحذرهم من المثقفين الخونة ، وأن في وسع العمال الاستغناء عن مساعدة هؤلاء الاخيرين . ولعل الالمان من اعضاء **رابطة الشيوعيين** القديمة هم وحدهم الذين كانوا يفهمون الاستنتاجات المترتبة على تلك الاطروحة . فلئن كانت الطبقة العاملة وحدها قادرة على تحرير نفسها ، فان كل ائتلاف مع البورجوازية وكل تفاهم مع الطبقة الرأسمالية يتناقضان تناقضا سافرا مع ذلك المبدأ . ولقد كان هناك تشديد على ان التحرر ليس تحررا لهذه الفئة او تلك من فئات العمال ، وانما للطبقة العاملة ؛ وأنه لا غنى بالتالي عن

تنظيم **طبقي** للبروليتاريا . ومن الاطروحة التي تنص على ان احتكار الرأسمالية لوسائل الانتاج هو العلة الاساسية للاسترقاق الاقتصادي يتضح انه من الضروري الغاء ذلك الاحتكار . ولقد كان هذا الاستنتاج يدعم ببيان ضرورة الغاء كل سيطرة طبقية ، الشيء الذي يستحيل بدون الغاء انقسام المجتمع الى طبقات .

لا يقول الدستور بصورة مباشرة، كما يفعل **الخطاب الافتتاحي، ان البروليتاريا ملزمة ، كي تدرك جميع الاهداف التي تضعها** لنفسها ، بالاستيلاء على مقاليد السلطة السياسية . وانما يصوغ تلك الاطروحة صياغة مغايرة . انه يقول فقط ان الانعتاق **الاقتصادي** للطبقة العاملة هو «الهدف الكبير الذي يجب ان تكون كل حركة سياسية ملحقة به باعتبارها وسيلة» .

وبما أن هذه الاطروحة اثارت في زمن لاحق خلافات بالغة العنف في وجهات النظر في **الاممية الاولى** ، فمن الضروري ان نتوقف عندها .

ماذا كانت تعني تلك الاطروحة ؟ ان الهدف الكبير للحركة العمالية هو الانعتاق الاقتصادي للطبقة العاملة ؛ ولا سبيل الى ادراكه الا بمصادرة وسائل الانتاج والغاء كل سيطرة طبقية . لكن بأي صورة سيتم بلوغ هذا الهدف ؟ هل ينبغي تحاشي النضال السياسي ، كما كان يقترح الاشتراكيون والفوضويون الخلّص ؟

تجيب الاطروحة كما صاغها ماركس : كلا . فالنضال السياسي للطبقة العاملة لا يقل ضرورة عن النضال الاقتصادي . ومن الواجب ان يكون هناك تنظيم سياسي ، ولا مناص من ان تتطور الحركة السياسية للطبقة العاملة ، لكن ذلك النضال ليس **غاية في ذاته كما لدى الديموقراطية البورجوازية ولدى المثقفين** الراديكاليين الذين يعطون مكانة الصدارة لتغيير الاشكال السياسية واقامة الجمهورية ، ويرغبون في الوقت نفسه في صم آذانهم عن المهمة الاساسية . لهذا ينوه ماركس بأن الحركة السياسية ما هي ، بالنسبة الى الطبقة العاملة ، سوى **وسيلة**

لادراك هدفها ، ما هي الا حركة **ملحقة** . ولكن لا بد من الاقرار بأن تلك الصيغة لم تكن واضحة وضوح صيغة **البيان الشيوعي** ، او حتى صيغة **الخطاب الافتتاحي** ، حيث ورد القول ان الاستيلاء على مقاليد السلطة السياسية صار الفريضة الاولى للطبقة العاملة .

كانت صيغة ماركس واضحة في نظر الاعضاء الانكليز في **الأممية** . فالدستور كتب بالانكليزية ، وماركس استخدم المصطلحات المألوفة لدى قدامى الميثاقيين والاوينيين الاعضاء في اللجنة . كان الميثاقيون ، كما تذكرون ، يكافحون الاوينيين الذين كانوا يكتفون بالاقرار بـ «الهدف الكبير» ، ويصمون آذانهم عن النضال السياسي . ويوم وضع الميثاقيون ميثاقهم بنقاطه الست المشهورة ، انحى عليهم الاوينيون باللائمة لاغفالهم الاشتراكية اغفالا تاما . وكان الميثاقيون ينوهون وقتئذ من جانبهم بأن النضال السياسي ليس الهدف الرئيسي في نظرهم هم ايضا . وكانوا يستخدمون عين الصيغة التي استخدمها ماركس بعد عشرين عاما . كان الميثاقيون يردون على الاوينيين : ما النضال السياسي في نظرنا غاية في ذاته وانما محض وسيلة . وعليه ، ما كانت صياغة ماركس تثير اي شك في داخل اللجنة ذاتها . ولم تغد تلك النقطة مثارا فعليا للشقاق الا بعد انقضاء بضع سنوات ، يوم بدأت المناقشات المحمومة بين الباكونيين وخصومهم بصدد مسألة النضال السياسي. فقد زعم الباكونينيون ان عبارة «باعتبارها وسيلة» ما كانت ماثلة من الاصل في الدستور ، وأن ماركس دسها عن قصد في زمن لاحق كي يمرر خلسة نظريته في الدستور . وبالفعل ، اذا طرحنا جانبا عبارة «باعتبارها وسيلة» ، صار لتلك النقطة معنى مغاير تماما . والحال ان هذه العبارة كانت قد سقطت بالفعل من النص الفرنسي .

كان قد وقع سوء تفاهم بسيط ، وكان من السهل ازالته ، لكنه أدى ، في حمى الصراع ، بخصوم ماركس الى اتهامه بتزوير

دستور **الاممية** . فحين ترجم الدستور الى الفرنسية لاذاعته في فرنسا ، حذفت من الطبعة الشرعية عبارة «باعتبارها وسيلة» . يقول النص الفرنسي : «الانعتاق الاقتصادي للشغيلة هو الهدف الكبير الذي يجب ان تكون كل حركة سياسية ملحقة به» . وقد قر الرأي على ضرورة الحذف تحاشيا لاسترعاء انتباه الشرطة التي كانت تراقب بعناية كل حركة سياسية في اوساط العمال. وبالفعل ، كانت الشرطة تعتبر في البداية الاميين الفرنسيين «اقتصاديين» لا «سياسيين» . وعلى هذا النحو ايضا كان ينظر اليهم البلانكيون الذين كانوا ، بصفتهم «سياسيين» ، ينهالون بالشتائم على الاميين الذين ما كانوا في نظرهم الا «اقتصاديين» بائسين .

ومما زاد الطين بلة ان الترجمة الفرنسية المحرفة للدستور طبعت في سويسرا الفرنسية ، ومن هناك أذيعت في البلدان التي يشيع فيها استعمال الفرنسية ، اي ايطاليا واسبانيا وبلجيكا . وكما سترون فيما بعد ، كانت كل أمة في المؤتمر الاممي الاول الذي صادق على الدستور المؤقت **للاممية** تقبل بنقاط ذلك الدستور وفق النص الذي كان بين يديها . وكانت **الاممية الاولى** أفقر من ان تطبع نصها باللغات الثلاث . فالنص الانكليزي نفسه ، وهو لا يؤلف مع **الخطاب الافتتاحي** سوى ملزمة طباعية واحدة بالكاد ، لم يطبع منه الا الف نسخة سرعان ما نفدت . ويؤكد غليوم ، وهو واحد من ألد خصوم ماركس وواحد من الذين اتهموه بحنق بالتدليس ، يؤكد في تاريخه **للاممية** انه لم تقع عينه لاول مرة على النص الانكليزي مع عبارة «باعتبارها وسيلة» الا في عام ١٩٠٥ . صحيح انه لو شاء لكان امكنه بسهولة ان يقتنع قبل ذلك التاريخ بأن ماركس ليس مدلسا ، لكن ما كان ذلك ليغير موقفه في اغلب الظن . ونحن نعلم تمام العلم انه من الممكن ان ينشب أعنف الخصام بصدد مسائل تكتيكية حتى ولو كان جميع الاطراف يقفون على أرضية

برنامج واحد موحد .

لكن ثمة في الدستور نقطة اخرى لم يحتج عليها الفوضويون، هذا صحيح ، الا انها تثير الشكوك والشبهات من وجهة النظر الماركسية . سبق ان قلت في المرة الاخيرة ان ماركس وجد نفسه مضطرا ، كي ينتزع اجماع العناصر غير المتجانسة التي تتألف منها اللجنة ، الى القبول ببعض تنازلات . لكن هذه التنازلات لم تجد مكانها في **الخطاب الافتتاحي** ، وانما في الدستور . وسأبين لكم ما كنهها .

بعد ان يعرض ماركس المبادىء التي قرر على اساسها اعضاء اللجنة المنتخبون في اجتماع ٢٨ ايلول ١٨٦٤ تأسيس **الرابطة الاممية للشغيلة** ، يتابع فيقول :

«يعلن المؤتمر .. ان هذه الرابطة الاممية ، وكذلك جميع الجمعيات او الافراد المنتسبين اليها ، يقرون بأن قاعدة سلوكهم تجاه بني الانسان قاطبة يجب ان تكون : **الحقيقة ، العدالة ، الاخلاق** ، بلا تمييز في اللون او المعتقد او القومية .

يعتبر المؤتمر ان الواجب يقضي بالمطالبة بحقوق الانسان والمواطن لا لاعضاء **الرابطة** فحسب ، بل ايضا لكل من يتمم واجباته . لا واجبات بدون حقوق ، ولا حقوق بدون واجبات» .

فيمَ تكمن التنازلات التي ارتضاها ماركس ؟ تذكروا ما كتبه بنفسه حول هذا الموضوع الى انجلز : «لقد قبلت جميع مقترحاتي من قبل اللجنة الفرعية . بيد انهم اجبروني في مدخل الدستور على إدراج عبارتين او ثلاث عبارات مع كلمات من أشباه «واجب»، «حق» ، «حقيقة ، أخلاق ، عدالة» ، لكن ذلك كله تم على نحو لا يمكن معه ان ينجم عنها ضرر» .

وبالفعل ، ليس في ذلك ضرر شديد . فمن الممكن الكلام عن الحقيقة والعدالة والاخلاق ، بشرط ان يتذكر المرء انه لا الحقيقة ولا العدالة ولا الاخلاق هي أمور خالدة وثابتة ، او امور مطلقة مستقلة عن الشروط الاجتماعية . ماركس لا ينكر الا الحقيقة، ولا العدالة ، ولا الاخلاق ؛ وانما يبرهن فقط على ان تطور تلك المفاهيم يتحدد بالتطور التاريخي وان كل طبقة تعزو اليها معنى مختلفا .

لكن ما كان سيدعو الى الاسف هو انيضطر ماركس الى تكرار اعلان الاشتراكيين الانكليز والفرنسيين ، والى البرهنة على وجوب تحقيق الاشتراكية لانالحقيقة والعدالة والاخلاق تقتضيه، وليس لان ذلك أمر محتم وينبع منطقيا من الشروط التي أوجدتها الرأسمالية ومن الوضع الذي تشغله الطبقة العاملة ، كما كان أثبت في **الخطاب الافتتاحي** . لم تكن تلك الكلمات ، كما رصفها ماركس ، سوى تقرير لواقع ان اعضاء **الرابطة الاممية للشغيلة** يلتزمون بأن يكون هاديهم في علاقاتهم المتبادلة الحقيقة والعدالة والاخلاق ، اي بألا يخونوا بعضهم بعضا ، وبألا يخونوا طبقتهم ، **وبألا** يغش بعضهم بعضا وبأن يكونوا رفاقيين في سلوكهم . وهذه الافكار التي كانت لدى الطوباويين مبادىء **الاشتراكية وأساس** مطالبها غدت لدى ماركس قواعد السلوك الاساسية بالنسبة الى تنظيم بروليتاري .

لكن ورد القول في النقطة التي نمحصها هنا ان تلك المبادىء يجب ان تكون في اساس علاقات اعضاء **الاممية** مع بعضهم بعضا ومع سائر بني الانسان بصرف النظر عن العرق والدين والقومية. وهذا بدوره معقول . ينبغي ان نتذكر ان الحرب الاهلية كانت مضطرمة الأوار وقتذاك في الولايات المتحدة ، وان الانتفاضة البولونية كانت قبيل ذلك قد سحقت سحقا نهائيا ، وأن القوات القيصرية كانت وقتذاك تنهي تطويع القفقاس ، وان **الاضطهادات** الدينية كانت تفتك فتكا ذريعا في عدد من الدول ، وأنه حتى

في انكلترا لم يحصل اليهود على الحقوق السياسية الا في عام ١٨٥٨ وانهم ما كانوا يتمتعون بعد بكامل الحقوق المدنية في سائر الدول الاوروبية . وما كانت البورجوازية قد عرفت كيف تحقق بعد المبادىء «الازلية» للاخلاق والعدالة تجاه اعضاء طبقتهـــا بالذات في بلادها بالذات ، وكانت تنتهكها بلا تكلف ولا رسميات تجاه البلدان الاخرى او القوميات الاخرى .

بيد ان النقطة الثانية المتعلقة بالحقوق والواجبات تستثـــير اعتراضات اكثر بكثير . فهي تفرض ، ولا ندري لماذا ، على كل عضو فـــي **الرابطة** إلزام المطالبة بحقوق الانسان والمواطـن : ليس لنفسه فحسب ، هذا صحيح ، وانما للآخرين ايضا . الا ان هذه الاضافة لا تزيد المعنى وضوحا . والواقع ان ماركس اضطر، بالرغم من كل دبلوماسيته ، ان يقبل بتنازل كبير لصالح المهاجرين الثوريين الفرنسيين الاعضاء في اللجنة .

دعوني اذكركم الان ببعض وقائع تاريخ الثورة الفرنسيـــة الكبرى . كان من أوائل أفعال تلك الثورة اعلان حقوق الانسان والمواطن . فقد كانت البورجوازية الثورية ، في صراعها ضـــد النبالة والحكم المطلق ، اللذين استأثرا بجميع الامتيازات ولـــم يتركا للآخرين غير الالزامات ، قد نادت بالمساواة والاخـــاء والحرية ، وكذلك بالاقرار لكل انسان ومواطن بجملة من الحقوق التي لا يجوز المساس بها ، ومن ضمنها حق الملكية الذي غالبا ما كانت تنتهكه الارستقراطية والسلطة الملكية على حساب الطبقـة الثالثة .

ولم يضف اليعاقبة ، الى اعلان حقوق الانسان والمواطـن ذاك ، سوى بعض التعديلات التي لم تمس النقطة المتعلقة بالملكية الفردية ، وان جعلت ذلك الاعلان اكثر جذرية من وجهة النظـر السياسية بتكريس حق الشعب في الثورة والتنويه بالاخاء بين الشعوب طرا . وذلك هو الشكل الذي يعرف به تحت اســـم «**اعلان حقوق ١٧٩٣**» الذي أمسى برنامـــج الثوريين الفرنسيين

ابتداء من ١٨٣٠ .

كان اتباع ماتزيني يلحون ، كما رأينا ، على تبني برنامجه . وكان ماتزيني في كتابه المشهور **«عن وجائب الانسان»** ، الذي ترجم الى الانكليزية ولاقى ذيوعا واسعا في اوساط العمال الانكليز ، قد خالف الماديين الفرنسيين واعلانهم لحقوق الانسان القائمة على العقل والطبيعة ، فوضع في اساس نظريته الاخلاقية المثالية مفهوم **الواجب** ، مفهوم فرائض الانسان التي وضعها فيه الله نفسه .

انتم تفهمون الان من اين جاءت صيغة ماركس : لا حقوق بلا واجبات ، ولا واجبات بلا حقوق . ولئن وجد نفسه مضطرا الى ان يدرج في وثيقته مطلب **اعلان حقوق الانسان** ، فقد استغل الخلاف بين الفرنسيين والايطاليين لينوه في صيغته بالفارق بين هذا المطلب وبين مطلب البورجوازية القديم . فالبروليتاريا تطالب بدورها بحقوق لنفسها ، لكنها تعلن من البداية انها لا تقر بحقوق للفرد بدون واجبات تجاه المجتمع .

حين أعيد النظر بعد بضع سنوات في الدستور ، اقترح ماركس اسقاط الكلمات التي يرد فيها ذكر **اعلان حقوق الانسان**. أما أطروحة : «لا حقوق بلا واجبات ، ولا واجبات بلا حقوق» فقد ظلت قائمة وأدرجت فيما بعد في برنامج ارفورت بعد تعديلها على النحو التالي : «حقوق متساوية وواجبات متساوية» .

لننظر الان في الدستور نفسه :

«تقام رابطة لتأمين نقطة مركزية للاتصال والتعاون بين العمال من شتى الاقطار الناشدين لهدف واحد ، هو : المؤازرة المتبادلة والتقدم والانعتاق الكامل للطبقة العاملة .

يكون اسم تلك الرابطة **الرابطة الاممية للشغيلة** . في عام ١٨٦٥ يدعى للانعقاد في بلجيكا مؤتمر أممي

عمالي يضم ممثلي جميع الجمعيات العمالية المنتسبة الى **الاممية** . وعلى هذا المؤتمر ان يشهر في وجه اوروبا المطالب العامة للطبقة العاملة ، وأن يصادق على الشكل النهائي لدستور **الاممية** ، وان يدرس الوسائل الضرورية لنجاح عملها ، وأن يسمي مجلسا مركزيا .

يجتمع المؤتمر سنويا .

يقيم المجلس المركزي في لندن ويتألف من عمال من مختلف الاقطار الممثلة في **الرابطة الاممية**. ويختار من اعضائه جميع الموظفين اللازمين لتسيير الامور : رئيس ، امين صندوق ، امين سر عام ، أمناء سر خاصون للعلاقات مع شتى الاقطار .

يرفع المجلس المركزي في كل سنة تقريرا عن عمله خلال السنة . ومن حقه ، بعد تسميته من قبل المؤتمر ، ان ينتخب اعضاء جددا . وفي الحالات الاستثنائية يستطيع ان يدعو المؤتمر الى الانعقاد قبل ان يتصرم أجل السنة .

يقيم المجلس المركزي علاقات مع مختلف الروابط العمالية بحيث يطلع عمال كل قطر بصورة دائمة على تحركات طبقتهم في الاقطار الاخرى ، وبحيث يجري في آن واحد وبروح واحدة تحقيق بصدد الحالة الاجتماعية ، وبحيث تدرس المسائل التي ترفعها جمعية بعينها والتي تنطوي على فائدة عامة من قبل الجمعيات كافة ، وبحيث يتاح **للرابطة** متى ما تطلبت فكرة عملية ما او صعوبة دولية ما تدخلها ان تتدخل بصورة متساوقة . واذا ما رأى المجلس المركزي من ضرورة ، بادر الى رفع مقترحات الى الجمعيات المحلية او القومية .

ما دام لا سبيل الى ضمان نجاح الحركة العمالية في كل قطر الا بالقوة الناجمة عن الاتحاد والتجمع ، وما دامت جدوى المجلس المركزي ترتهن من جهة اخرى بعلاقاته بالجمعيات العمالية ، المحلية منها والقومية ، فان على اعضاء **الرابطة الاممية** ان يبذلوا قصارى جهودهم ، كل في بلده ، لجمع شمل شتى الجمعيات العمالية القائمة في رابطة قومية» .

صادق المؤتمر في وقت لاحق على المبادىء الاساسية لذلك الدستور . ومن التعديلات الرئيسية التي أدخلت عليه الغاء وظيفة رئيس المجلس المركزي الذي سمي فيما بعد بـ «المجلس العام» ، بناء على مبادرة من ماركس . وكانت تجربة **الاتحاد العمالي العام الالماني** الذي أسسه لاسال قد ازاحت النقاب عن المحاذير المترتبة على ذلك المنصب الذي لا جدوى منه البتة . وصار المجلس العام ينتخب رئيسا لكي يدير الاجتماع، وكان أمناء مختلف الاقطار يجتمعون مع امين السر العام لتصريف القضايا الجارية .

عمدت الحركة العمالية الاممية فيما بعد الى استخدام دستور **الاممية** مرارا وتكرارا . ولن أدخل في تفاصيل التعديلات التي أدخلت عليه خلال ثماني سنوات ، والتي حافظت على معالمه الاساسية على كل حال . وسلطات المجلس العام هي وحدها التي جرى توسيعها في نهاية **الاممية الاولى** .

كانت المهمة الرئيسية للمجلس المؤقت دعوة المؤتمر الاممي للانعقاد . وبصدد هذه النقطة دارت مناقشات حامية . فقد ألح ماركس على ضرورة القيام في البداية بجميع الاعمال التمهيدية ، وذلك لكي يتاح لشتى الاقطار الوقت للاطلاع على مهام **الاممية** ولتنظيم نفسها الى حد ما . اما الانكليز ، الذين كانوا يقدمون مصالح حركتهم المهنية على ما عداها ، فقد ألحوا على دعوة المؤتمر

للانعقاد بأسرع ما يمكن . وكان حلفاؤهم في ذلك المهاجريـــن الفرنسيين في المجلس العام .

انتهت القضية بتسوية . ففي عام ١٨٦٥ دعـــي للانعقاد لا مؤتمر وانما مشار (كونفرانس) . وقد انعقد في لندن ، وتليت فيه تقارير ، ووضع جدول اعمال المؤتمر المقبل . وقـــد كانت ممثلة فيه سويسرا وانكلترا وبلجيكا وفرنسا . ولم يكن الموقف يبشر بخير كثير. وتقررت دعوة المؤتمر الى الانعقاد في ايار ١٨٦٦ .

بيد ان الامور كانت تسير على أسوأ ما يكون في المانيا بالذات حيث كان موجودا وقتئذ **الاتحاد العمالي العام** . فبعد ان لقـــي لاسال مصرعه في مبارزة في ٣٠ آب ١٨٦٤ ، ناب منابه ، كما يقضي دستور **الاتحاد** ، برنار بيكر ، وهو رجل عديم الاهليـــة وواهي النفوذ . وكان أوسع نفوذا منه بكثير شفايتزر ، مديـــر تحرير صحيفة **الاتحاد** المركزية ، **الاشتراكي ـ الديموقراطي**. لكن سرعان ما برزت بين هذا الاخير وبين ف. ليبكنخت ، الذي كان من أسرة التحرير ، خلافات قوية في وجهات النظر بصدد مسائل السياسة الداخلية . وسرعان ما اضطر ماركس وانجلز ، اللذان كانا قد قبلا بالتعاون مع الصحيفة ، الى الاستنكاف علنا عـــن المساهمة فيها. وقد بذل المرحوم مهرينغ قصارى جهده كي يدافع عن شفايتزر ويبين ان ماركس وانجلز ما كانا على أتم حق في تلك القضية . لكنه يخطىء خطأ فادحا . والوقائع كلها ضده .

كان تكتيك لاسال ، كما ترون ، مشوبا بعيوب جلى . وكان لاسال يبيح لنفسه اساليب غير مقبولة في علاقاته مع الطغمـــة الحاكمة . وقد أوغل شفايتزر الى ابعد من ذلك على هـــذا الطريق . فقد أدرج في صحيفته سلسلة من المقالات التي قال عنها مهرينغ نفسه انها تركت ، بإسفافها تجاه بسمارك ، أثـرا سيئا للغاية . لكن مهرينغ يسعى الى تبرئة ذمة شفايتزر بإثباته ان شروط النضال الشرعي كانت تقتضي زعما ذلك التكتيك .

وقد اضاف قوله ان ليبكنخت، الثوري العتيق، ما كان بمستطيع ان يتكيف مع تلك الشروط ، فألب على شفايتزر قدامى اصدقائه ومعلميه . وعلى هذا النحو ، لم يجد شفايتزر مناصا من الانفصال عن ليبكنخت الذي انحاز الى جانبه لا ماركس وانجلز فحسب ، بل ايضا العديد من خصومهما القدامى ، من أمثال هس ، ممن أعياهم هم ايضا التسليم بتكتيك شفايتزر . وكما حدث عندنا في روسيا اثناء المناقشات التي دارت بين البلاشفة والمصفين حين اطلق لينين على هؤلاء الاخيرين اسم الحزب العمالي «الستوليبيني» ، كذلك سمي حزب شفايتزر يومئذ من قبل المناضلين السريين القدامى باسم الحزب «البسماركي» .

مهما يكن من أمر ، فقد كان اصدقاء ماركس في المانيا ، يوم اجتماع مشار لندن ، قد أمسوا بلا صحيفة ، وانصرفوا بكليتهم الى تأسيس تنظيمهم الخاص بهم . اما اللاساليون فما كان يحلو لهم عهدئذ ان يسمعوا ، ولو مجرد سماع ، **بالاممية** . وكانت عاقبة ذلك الانشقاق ان الالمان لم يشاركوا في **الاممية** خلال السنوات الاولى الا بوساطة قدامى المهاجرين المقيمين في انكلترا وسويسرا .

اظهرت التقارير المرفوعة الى مشار لندن ان مالية **الاممية** في وضع يرثى له حقا. فعلى امتداد السنة لم يجبَ سوى زهاء ٧٥٠ فرنكا . ولم تتجاوز كل عمليات الصندوق وكل الايرادات خلال تلك السنة ٣٣ جنيها استرلينيا . وكان من الصعب بمبلغ كهذا الانفاق على سعة . فهو بالكاد كان يكفي لتسديد ايجار المقر والمصاريف الملحة .

اثارت المناقشات بصدد جدول الاعمال عين الاختلافات في وجهات النظر التي كانت قد ثارت آنفا بين الفرنسيين المقيمين في لندن والفرنسيين الممثلين للتنظيم الباريسي . فهؤلاء الاخيرون ما كانوا يرغبون عهدذاك في طرح مسألة استقلال بولونيا بوصفها مسألة سياسية صرفا . وعلى العكس منهم كان المهاجرون

الفرنسيون ، بدعم من قبل بعض الانكليز ، يلحون على ادراج بند بصدد الدين في جدول الاعمال وينادون بنضال لا هوادة فيه ضد الايمان بالاباطيل الدينية . وقد وقف ماركس موقف المعارضة من اقتراحهم . فقد كان يرى بسداد رأي ان إدراج ذلك البند في جدول اعمال المؤتمر الاول لا يمكن الا ان تترتب عليه منازعات لامجدية بالنظر الى المستوى القليل الارتفاع للحركة العمالية والى ضعف الارتباط بين العمال من شتى الاقطار .

وتصرمت سنة اخرى قبل ان يدعى المؤتمر الاول للانعقاد ، ولكن لم يكن مناص من تأجيله مرة اخرى الى ايلول ١٨٦٦ . وفي إبان ذلك وقعت سلسلة من الاحداث التي يتوجب عليّ أن أحدثكم عنها قليلا . كانت تلك السنة بالنسبة الى انكلترا سنة نضال سياسي مكثف . فقد خاض التريديونيونيون ، بقيادة العمال الاعضاء في **المجلس المركزي** ، غمار صراع شرس لتوسيع الحق الانتخابي . وقد جرى هذا النضال ، أكرر ذلك ، تحت قيادة **الاممية** . وقد بذل ماركس كل ما أوتي من طاقة كي يحول دون تكرار العمال الانكليز لاخطائهم القديمة وكي يخوضوا غمار هذا النضال بصورة مستقلة ، من دون ان يدخلوا في تحالف مع الراديكاليين . لكن في مطلع ١٨٦٦ عاد الى الظهور التكتيك الذي غالبا ما أضر بالحركة العمالية الانكليزية في زمن الميثاقية والذي ما يزال الى اليوم يلحق بها حيفا كثيرا . فنظرا الى تحديد الهدف بأنه انتزاع حق الانتخاب العام ، بادر قادة العمال ، ولاسباب مالية جزئيا ، الى التفاهم والاتفاق مع القسم الاكثر راديكالية من الديموقراطية البورجوازية التي كانت تطالب هي ايضا بحق الانتخاب العام . وجرى تنظيم لجنة مشتركة لتوجيه النضال . وقد ضمت رجالا محترمين من أمثال الاستاذ بيسلي ، وديموقراطيين صادقين ، وكذلك ممثلين عن المهن الحرة ومحامين وقضاة وممثلين عن البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، وبخاصة

البورجوازية التجارية التي كانت تجنح من البداية الى تسوية. وخيض النضال على الطريقة الانكليزية . فقد نظمت مهرجانات خطابية ومظاهرات . وفي حزيران ١٨٦٦ شهدت لندن تظاهرة هائلة لم تقع العين على نظير لها حتى في عهد الميثاقية . وتحت ضغط الجماهير المحتشدة في هايد بارك ، حيث كانت قد توجهت المظاهرة وحيث كانت قد أقيمت مهرجانات خطابية عدة ، انهارت اسيجة الحديقة . وفهمت الحكومة عندئذ ان ساعة منح التنازلات قد ازفت .

بعد ثورة تموز ، كانت قد قامت في انكلترا ايضا ، كما تذكرون ، حركة قوية للمطالبة بالاصلاح الانتخابي . لكنها لم تتمخض الا عن تسوية : فقد ذهب العمال ضحية خداع دنيء ، وفازت البورجوازية الصناعية وحدها بحق الاقتراع . وكما في تلك المرة ، اقترحت الحكومة ، بعد ان رأت نفسها مضطرة الى التنازل ازاء تصاعد موجة الغليان في صفوف عمال المدن ، توسيعا جديدا للحق الانتخابي بحيث يشمل مذذاك فصاعدا جميع عمال المدن .

بديهي ان المطالبة بحق الانتخاب كانت للمواطنين الذكور فقط ؛ وما كان يدور في خلد احد انه من الممكن ان يمنح للنساء . وقد اقترحت على العمال التسوية التالية التي سرعان ما قبل بها الاعضاء البورجوازيون في لجنة الاصلاح الانتخابي : يمنح حق الاقتراع لجميع العمال الذين لهم مسكن (ولو كان يتألف من حجرة واحدة) يدفعون فيه حدا ادنى محددا من الايجار . وعلى هذا النحو منح حق الاقتراع لجميع العمال المدينيين تقريبا ، ما عدا اولئك الذين يقيمون في المهاجع الجماعية (وما كان عددهم بالقليل يومئذ) ؛ وبالمقابل يحرم منه جميع العمال الريفيين بلا استثناء. وكان زعيم المحافظين الانكليز، دزرائيلي ، هو صاحب تلك المناورة البارعة التي ارتضى بها

الاصلاحيون البورجوازيون الذين حثوا العمال على القبول بذلك التنازل ، مصورين لهم انه سيكون في مستطاعهم ، عقب انتخاب البرلمان الجديد ، ان يطالبوا بتوسيع جديد للحقوق الانتخابية . بيد ان العمال الريفيين اضطروا الى الانتظار عشرين سنة اخرى ، اي حتى ١٨٨٥ ؛ اما العمال الذين لا مسكن لهم ولا حجرة فلم يحصلوا اخيرا على حق الاقتراع الا تحت ضغـــط ثورة ١٩٠٥ الروسية .

وفي المانيا وقعت بين عامي ١٨٦٥ ــ ١٨٦٦ أحداث لا تقل اهمية . فقد دار صراع مستعر للهيمنة على المانيا بين بروسيـا والنمسا . وقد جعل بسمارك هدفه ان يطرد النمسا نهائيا من **الاتحاد الكونفدرالي الجرماني** ، وأن يجعل من بروسيا العمـــود الفقري لالمانيا ، حتى وان سلخت منها الاقاليم الالمانية التـــي تملكها النمسا . وقد سبق لي التطرق لهذه المسألة حين عرضت عليكم الاختلافات في الرأي بين ماركس وانجلز من جهة ولاسال من الجهة الاخرى .

انتهى النزاع بين النمسا وبروسيا بحرب . ففي اسبوعين او ثلاثة اسابيع أنزلت بروسيا ، التي تأبت عن التحالف مـــع ايطاليا ضد دولة المانية ، هزيمة منكرة بالنمسا ، وضمت مجموعة من الدول الصغيرة التي هبت لمساعدة هذه الاخيرة : مملكـــة هانوفر ، مدينة فرانكفورت الحرة ، دوقية هس الكبرى ، الخ . وأقصيت النمسا بصورة نهائية عن **الاتحاد الجرماني** . ونظـــم **اتحاد لالمانيا الشمالية** ، على راسه بروسيا . ولكسب تأييـــد العمال وفقراء الناس ، أدخل بسمارك مبدأ الانتخاب العام .

أما في فرنسا فقد اضطر نابليون الى تقديم بعض تنازلات . فألغيت بعض مواد قانون العقوبات التي كانت موجهة ضـــد التكتلات التي ينظمها العمال . وخفت وطأة الملاحقات التي كانت تتعرض لها المنظمات الاقتصادية ، وبخاصة التعاونيات وجمعيات

المساعفة المتبادلة . وقوي في أوساط العمال التيار المعتدل الساعي الى استغلال الامكانيات الشرعية . ومن جهة اخرى ، ما ونت المنظمات البلانكية تتطور . فخاضت غمار مساجلة عنيفة ضد الاميين الذين اخذت عليهم استنكافهم عن كل نضال ثوري ومغازلتهم للحكومة البونابرتية .

وفي سويسرا الفرنسية والالمانية والايطالية قاطبة كان العمال مشغولين بقضاياهم المحلية ، وكان المهاجرون والاجانب هم وحدهم الذين يعنون بأمر **الاممية** . وكان الفرع الالماني يصدر باشراف بيكر مجلة **الرائد** ، ويلعب دور اللسان المركزي في الخارج بالنسبة الى العمال الالمان الذين انفصلوا عن اللاسالية وانتسبوا الى **الاممية** .

انعقد المؤتمر في جنيف في ايلول ١٨٦٦ ، بعد ان تغلبت بروسيا على النمسا واحرز العمال الانكليز ، على ما يبدو ، نصرا سياسيا كبيرا على البورجوازية . وبدأ المؤتمر بفضيحة . فقد قدم من فرنسا ، علاوة على البرودونيين ، بلانكيون ارادوا المشاركة في اعمال المؤتمر . وكانوا جميعهم تقريبا من الطلبة الثوريين جدا ، وفي عدادهم المفوض المقبل للعدالة في عامية باريس بروتو . ومع انهم ما كانوا يحملون من تفويض البتة ، فقد اثاروا من اللغط والجلبة اكثر مما فعل اي وفد آخر . وفي آخر المطاف ، طردوا بخشونة . بل يقال ان بعضهم اراد اغراقهم في بحيرة جنيف ، ولكن ذلك هذر محض . ومن المؤكد على كل حال انه وقعت مصادمات وتبودلت لكمات ، كما يحدث لدى الفرنسيين الذين لا يكتفون على الدوام في صراعاتهم الفئوية بقرارت طرد وفصل كما يفعل عادة السلافيون المسالمون .

حين أفلح المندوبون اخيرا في الانكباب على العمل ، دارت المعركة الرئيسية بين البرودونيين ووفد **المجلس العام** المؤلف من ايكاريوس وعمال انكليز . وتعذر على ماركس نفسه القدوم : فقد كان منصرفا يومئذ الى تحرير الصيغة النهائية للمجلد الاول من

الرأسمال ؛ ناهيك عن انه ما كان ليستطيع القيام بالسفرة الا اذا تغلب على عوائق كثيرة نظرا الى اعتلال صحته ومحاصرته بالمراقبة المشددة من قبل الجواسيس الفرنسيين والالمان . بيد انه كتب للوفد مذكرة تقريرية مفصلة بصدد جميع بنود جدول الاعمال .

قدم المندوبون الفرنسيون تقريرا مفصلا ، كان بمثابة عرض لافكار برودون الاقتصادية . وقد احتجوا بقوة على عمل المرأة ، وأعلنوا ان الطبيعة ذاتها حددت مكان هذه الاخيرة بالبيت ، وان على المرأة ان تهتم بأسرتها لا ان تعمل في المصنع . ونبذا صريحا منهم للاضرابات والنقابات دافعوا عن التعاون ، وبخاصة عن تنظيم التبادل على اساس التعاضد . وكان الشرط المسبق لذلك في رأيهم عقد اتفاقات بين مختلف التعاونيات وتنظيم الاعتماد المجاني . بل انهم ألحوا على ان يصادق المؤتمر على تنظيم الاعتماد الاممي ، غير انهم لم يفلحوا الا في الحصول على قرار يوصي جميع فروع الاممية بالاهتمام بدراسة مسألة الاعتماد وتوحيد جمعيات الاعتماد العمالية كافة . بل ذهب بهم الامر الى حد معارضة التحديد القانوني ليوم العمل .

وتصدى لهم اللندنيون والالمان . وبصدد كل بند في جدول الاعمال كان الاخيرون يقترحون كقرار مقطعا مناسبا من تقرير ماركس الذي اعطى مكانة الصدارة لجميع المسائل المتفرعة عن مطالب الطبقة العاملة .

طالب التقرير **الاممية** بتكريس نشاطها كله للاتحاد ولتوحيد الجهود المبعثرة للطبقة العاملة المنافحة في سبيل مصالحها . وأكد على ضرورة انشاء ارتباط يتيح لعمال جميع الاقطار لا ان يحسوا بتآخيهم في الكفاح فحسب ، بل ان ينشطوا ايضا كمقاتلين في جيش تحرير موحد . ودعا الى تنظيم المساعدة المتبادلة الاممية في الاضرابات ، والى الحؤول دون احلال عمال اجانب محل عمال قطر بعينه ، ذلك الاحلال الذي هو واحد من الاساليب المفضلة

عند المقاولين .

ومن المهام الرئيسية التي دعا اليها ماركس الدراسة المنهجية، العلمية ، لوضع الطبقة العاملة في الاقطار كافة ، وهي دراسة يجب الشروع بها بمبادرة من العمال انفسهم . ومن الواجب ارسال جميع المواد التي يتم تجميعها الى **المجلس العام** الذي سيتولى في هذه الحال صياغتها . واشار ماركس الى الخطوط العريضة للمسائل الرئيسية التي يجب ان تتركز عليها تلك الدراسة العمالية .

اثارت مسألة النقابات مجادلات حامية . فقد عارض الفرنسيون الاضرابات وأي تنظيم لمقاومة المقاولين وأرباب العمل. وما كانوا يرون من خلاص للعمال الا في التعاون . وقد اقترح عليهم المندوبون اللندنيون بالمقابل ، في شكل قرار ، كل القسم المتعلق بالنقابات من تقرير ماركس . وقد أقره المؤتمر ، لكنه أثار نفس سوء التفاهم الذي أثارته القرارات الاخرى **للاممية الاولى** . فلحقبة طويلة من الزمن لم ينشر النص الدقيق ؛ وما كان الالمان يعرفونه الا من خلال ترجمة ناقصة قام بها بيكر في **الرائد** ؛ وكانت الترجمة الفرنسية أشد رداءة ايضا . وقد نشرت شخصيا للمرة الاولى هذا القرار مترجما عن الاصل الانكليزي في **سوفريميوني مير** في عام ١٩١٤ .

يكرر القرار ، في شكل اكثر وضوحا وجلاء ، كل ما كان ماركس قد قاله في **بؤس الفلسفة** وفي **البيان الشيوعي** حول النقابات ، النواة الاساسية لتنظيم البروليتاريا الطبقي . وناهيك عن ذلك ، اشار الى المهام المعاصرة للنقابات والى العيوب التي تتلبسها حتما متى ما تحولت الى منظمات تعاونية ضيقة . ولذا يجدر بنا ان نتوقف عنده مليا .

كيف ظهرت النقابات الى حيز الوجود ؟ كيف تطورت ؟ انها نتيجة الصراع بين الرأسمال والعمل الاجير . ففي هذا الصراع يجد العمال انفسهم في شروط مجحفة لهم . فالرأسمال قوة

اجتماعية متركزة بين يدي الرأسمالي ، بينما لا يملك العامل سوى قوة عمله الفردية . ولهذا لا مجال للحديث عن تعاقد حر بين الرأسمالي والعامل . وحين يتحدث البرودونيون عن تعاقد حر وعادل ، يظهرون فقط انهم لا يفهمون اولية الانتاج الرأسمالي . فالعقد بين الرأسمال والعمل لا يمكن ان يعقد بشروط عادلة ، حتى من منظور مجتمع يضع ملكية الوسائل المادية للحياة والعمل في جانب ، والطاقة الانتاجية الحية في الجانب الآخر . ووراء كل رأسمالي تقف قوة المجتمع . ولا يسع العمال ان يعارضوا هذه القوة الا بعددهم ، بالقوة الاجتماعية التي يملكونها . لكن قوة العدد ، قوة الكثرة تتقلص الى أدنى مستوى لها بنتيجة انقسام العمال ، ذلك الانقسام الذي تختلقه وترعاه المزاحمة المحتومة فيما بينهم . لذا فمن اولى الضرورات الغاء هذه المزاحمة بين العمال . والنقابات انما ولدت من محاولات العمال لالغاء هذه المزاحمة ، او لتخفيف حدتها على الاقل ، وذلك بغية الحصول بواسطة عقد محدد على شروط عمل تتيح لهم ان ينفضوا عن رقابهم نير العبودية . وقد اقتصرت المهمة المباشرة للنقابات ، في بادىء الامر ، على الحاجات اليومية : فقد فتشت عن الوسائل لوضع حد لتجاوزات الرأسمال وتعدياته المتواصلة ؛ وبمختصر الكلام ، اهتمت بمسائل الاجر ويوم العمل . ورغما عن توكيدات البرودونيين ، ما هذا النشاط بمشروع فحسب ، بل ضروري ايضا . وهو محتم ما دام النظام الراهن للانتاج قائما . ومن الواجب نشره وتعميمه عن طريق تشكيل نقابات جديدة واتحادها في الاقطار كافة .

بيد ان النقابات تلعب ايضا دورا آخر لا يقل اهمية عما تقدم ، دورا ما كان البرودونيون في عام ١٨٦٦ يفهمونه اكثر مما كان يفهمه معلمهم في عام ١٨٤٧ . فقد كانت النقابات ولا تزال، وان بصورة لاواعية ، مراكز تنظيمية للطبقة العاملة ، مثلها في

ذلك مثل بلديات الكومونات في العصر الوسيط بالنسبة الى البورجوازية . ولئن تكن النقابات ضرورية لحرب المحازبين بين الرأسمال والعمل، فانها اعظم اهمية ايضا باعتبارها عاملا تنظيميا للاطاحة بنظام الاجارة بالذات .

من سوء الحظ أن النقابات لم تستوعب بعد تلك المهمة تمام الاستيعاب. فاستغراقها في صراعها المحلي والمباشر ضد الرأسمال حال بينها وبين التفهم التام لقوة عملها الموجه ضد نظام العبودية المأجورة بالذات . لهذا وقفت وتقف على هامش الحركات العامة والسياسية .

يشير ماركس الى الاعراض التي تنم عن ان النقابات بدأت تفهم رسالتها التاريخية . ومن تلك الاعراض يذكر مشاركة النقابات (التريديونيونات) الانكليزية في النضال في سبيل تطبيق حق الانتخاب العام ، والقرار الذي اتخذته في مؤتمرها في شيفيلد والذي اوصت فيه جميع النقابات بالانتساب الى **الاممية .**

وفي الختام يلتفت ماركس ، الذي كان حتى ذلك الحين قد حاجج البرودونيين في المقام الاول ، نحو التريديونيونيين الخلّص الذين يريدون حصر مهام النقابات بمسائل الاجور ويوم العمل . فعلى النقابات ان تتعلم ، فضلا عن ذلك ، كيف تنشط بوعي كمراكز تنظيمية للطبقة العاملة في سبيل انعتاقها الكامل . فعليها ان تؤازر كل حركة اجتماعية وسياسية تنزع الى ذلك الهدف . ومن واجبها ، متى ما اعتبرت نفسها مقاتلة وممثلة للطبقة العاملة، ان تجذب الى صفوفها العمال قاطبة . وعليها ان تسهر بانتباه وعناية على مصالح العمال في الفروع المتدنية الاجور من الصناعة، فتركز اهتمامها ، على سبيل المثال ، على العمال الزراعيين الذين لا حول لهم ولا قوة بحكم وضعهم الخاص . وعليها ان تظهر للعالم طرا أن مطامحها ليست ضيقة وأنانية ، وأنها ترمي الى تحرير الآلاف من الرازحين تحت نير الاضطهاد في الكرة الارضية .

انطوت المناقشات بصدد المسألة النقابية في مؤتمر جنيف على فائدة جلى . فقد حامى المندوبون اللندنيون بذكاء كبير عن مواقفهم . وفي نظرهم ، ما كان القرار نفسه سوى مقطع مقتطف من تقرير طويل لماركس شاء سوء الحظ ان يكونوا هم وحدهم المطلعين عليه . وبالفعل ، حين كان **المجلس العام** قد درس المسائل التي ينبغي ادراجها في جدول اعمال المؤتمر المقبل ، برزت خلافات حادة في وجهات النظر بين اعضائه . ولهذا تلا ماركس في **المجلس العام** تقريرا مفصلا سلط فيه الضوء على اهمية النقابات في نظام الانتاج الرأسمالي . وقد انتهز تلك السانحة ليعرض في شكل شعبي على مستمعيه نظريته الجديدة في القيمة وفضل القيمة ، وليشرح لهم تعالق الاجر والربح وسعر البضائع . وتترك محاضر ضبط جلسات ذلك **المجلس العام** وقعا ووقرا في النفس لما فيها من روح جد ووقار جديرة بجمعية علمية بورجوازية . وقد جرى وضع كل سطوة ذلك العلم الاقتصادي الماركسي الجديد ومنجزاته في خدمة الطبقة العاملة .

وبقدر مماثل من المهارة ذاد المندوبون اللندنيون عن قرار ماركس بصدد تحديد يوم العمل بثماني ساعات . فعلى النقيض من الفرنسيين ، اكدوا مع ماركس ان «الشرط المسبق الذي بدونه لن يكتب النجاح لاي محاولة لتحسين اوضاع الطبقة العاملة وتحريرها هو التحديد القانوني ليوم العمل» . فمن الضروري ان تعود الى كل أمة عافيتها وطاقتها ، وأن تضمن لها امكانية التطور الفكري والتواصل الاجتماعي والنشاط السياسي . وبناء على اقتراح من **المجلس العام** حدد المؤتمر بثماني ساعات الحد القانوني ليوم العمل . ولما كان هذا التحديد مطلبا لعمال الولايات المتحدة، فقد جعل منه المؤتمر برنامجا عاما للطبقة العاملة في العالم قاطبة. ولم يسمح بالعمل الليلي الا في حالات استثنائية ، وذلك في فروع انتاجية او مهن معينة يتولى القانون تحديدها بدقة . لكن

يتوجب السعي الى الغاء العمل الليلي الغاء شاملا .

من سوء الحظ ان ماركس في المذكرة ـ التقرير لم يفحص بالتفصيل مسألة عمل المرأة . وقد ارتأى ان حسبه ان يقول ان المقطع المتعلق بتخفيض يوم العمل ينطبق برمته على جميع العمال الراشدين من ذكور واناث . بيد انه نوه بأن النساء لا يجـــوز استخدامهن في اي عمل ليلي ، ولا يجوز تكليفهن بعمـــل يضر بجسمهن او مزاولتهن لمهنة تعرضهن لمس مواد سامـة او مضرة بالصحة . والحال انه لما كانت غالبية الفرنسيين والسويسريين تعارض معارضة جازمة عمل المرأة ، فقد أقر المؤتمر أطروحات ماركس وقرار الفرنسيين . وعلى هذا النحو اعلن في حصيلة النقاش انه من الافضل تحظير عمل المرأة ، وأنه من الواجب حيثما وجد ان يحد بالحدود التي اشار اليها ماركس .

وبالمقابل، أقرت أطروحات ماركس عن عمل الاولاد والمراهقين بتمامها ، بدون اي تعديل برودوني . وقد جاء فيها ان ميـــل الصناعة الحديثة الى اشراك الاولاد والمراهقين من كلا الجنسين في عملية الانتاج الاجتماعي ميل تقدمي وسليم ومشروع ، وان أدى في ظل هيمنة الرأسمال الى كارثة فظيعة . اما في مجتمع منظم تنظيما عقلانيا فان كل ولد بلغ التاسعة من العمر يجب ان يكون ، في تقدير ماركس ، شغيلا منتجا . كذلك لا يمكـــن لاي راشد معافى الصحة ان يتملص من سريان قانون الطبيعة التالي عليه : العمل كيما تتاح له امكانية الاكل ، والعمل جسمانيا لا فكريا فحسب . وبهذا الصدد يقترح ماركس برنامجا كاملا للجمع بين العمل الجسماني والعمل الفكري . ويتضمن هذا البرنامج التنمية الفكرية العامة ، التنمية ذات الاختصاصات التقنية المتعددة التي تطلع الاولاد على الاسس العلمية لجميع عمليات الانتاج .

تطرق ماركس في مذكرته ـ التقرير الى مسألة التعـــاون ايضا . وقد اغتنم الفرصة لا لكي ينتقد تقسيمـــات المتعاونين الخلّص فحسب ، بل لكي ينوه ايضا بالشرط الاساسي لنجاح

الحركة التعاونية . وكما في **الخطاب الافتتاحي** ، يعطي الافضلية لا للتعاونيات الاستهلاكية ، وانما للتعاونيات الانتاجية . ويضيف قائلا : «لكن ليس لنا ان نتوقع من التعاونيات ، كائنة ما كانت ، الغاء النظام الرأسمالي . فهذا الالغاء يقتضي تغييرات واسعة ، جذرية ، تشمل المجتمع قاطبة . ومثل هذه التغييرات غير ممكنة الا بوساطة قوة اجتماعية منظمة ، هي سلطة الدولة التي ينبغي ان تنتقل من أيدي الرأسماليين والملاك العقاريين الى أيـــدي الطبقة العاملة» . وعلى هذا النحو نرى ماركس يعلن ، هنا ايضا، ضرورة استيلاء الطبقة العاملة على مقاليد السلطة السياسية .

تم اقرار مشروع الدستور الذي بتم تعرفونه الان بدون اي تعديل . وقد لاقت محاولة الفرنسيين (الذين سبق لهم أن اثاروا تلك المسألة في مشار لندن) تفسير كلمة «العامل» بأنهـا تسري فقط على الاشخاص العاملين في عمل جسدي ، وبالتالي استبعاد ممثلي العمل الفكري ، لاقت معارضة قوية . وصرح المندوبـون الانكليز انه اذا تمت الموافقة على اقتراح الفرنسيين ، فلا مفر من البدء باستبعاد ماركس نفسه ، وهو الذي أدى **للاممية** خدمات جلـى .

لعب مؤتمر جنيف دورا هاما كأداة للدعاية . فجميع قراراته المتضمنة للمطالب الاساسية للطبقة العاملة ، والتي كتبها ماركس وحده تقريبا ، دخلت في برنامج الحد الادنى العملي لجميـــع الاحزاب العمالية . وكان للمؤتمر صدى واسع في الاقطار كافة ، بما فيها روسيا حيث نشرت **سوفريميوني** منذ عام ١٨٦٥ قسمـا كبيرا من **الخطاب الافتتاحي** الذي عزتـــه الى ماركس . وعقب مؤتمر جنيف ، الذي اعطى دفعا قويا لتطور الحركة العماليـــة الاممية ، تحققت **للاممية** شعبية مفاجئة . وقد استرعت انتباه بعض المنظمات الديموقراطية البورجوازية التي حاولت استغلالها لاهدافها الشخصية .

في المؤتمر التالي الذي عقد في لوزان نشب النزاع بصدد مسألة الاشتراك في مؤتمر جمعية اممية جديدة ، **رابطة السلم والحرية** ، الذي كان من المفروض ان ينعقد في جنيف . ورجحت كفة أنصار الاشتراك . وفي المؤتمر التالي الذي انعقد في بروكسيل عادت فرجحت كفة وجهة نظر **المجلس العام** وتقرر توجيه الدعوة الى **الرابطة** المذكورة لكي تنتسب الى **الاممية** والى اعضائها كي ينتموا الى فرع **الاممية** في اقطارهم .

لم يشارك ماركس في ذينك المؤتمرين . فحتى قبل ان ترفض جلسات مؤتمر لوزان صدر المجلد الاول من **الرأسمال** . واتخذ المؤتمر التالي ، الذي انعقد في بروكسيل في ١٨٦٨ ، بناء على توصية من الوفد الالماني ، قرارا يوصي عمال جميع الاقطار بدراسة **الرأسمال** . وقد نوه ذلك القرار بفضل ماركس الكبير : فهو «اول اقتصادي أخضع الرأسمال لتحليل مفصل وارجعه الى عناصره الاساسية» .

درس مؤتمر بروكسيل ، في ما درس ، مسألة أثر الآلات على وضع الطبقة العاملة ، وكذلك مسألتي الاضرابات والملكية العقارية . وانطوت القرارات التي اتخذت على قدر او آخر من المساومة والتسوية . وبالمقابل انتصرت لاول مرة وجهة نظر الاشتراكية ، او الجماعية كما كان يقال عهدئذ ، ضد الفرنسيين . فقد تم الاقرار بضرورة تشريك وسائل النقل والمواصلات، وكذلك الارض . لكن ذلك القرار لم يقر في شكله النهائي الا في المؤتمر التالي المنعقد في بال عام ١٨٦٩ .

ان المسألة السياسية الرئيسية التي شغلت **الاممية** منذ مؤتمر لوزان هي مسألة الحرب والوسائل الواجب اعتمادها لمقاومتها . فقد كانت حرب ١٨٦٦ ، التي انتهت بانتصار بروسيا على النمسا ، قد ولدت في اوروبا رأيا يقول ان تلك الحرب ستفضي لا محالة ، في مستقبل قريب ، الى نشوب حرب اخرى بين فرنسا وبروسيا . وفي ١٨٦٧ بدأت العلاقات بين ذينك

البلدين بالتوتر . وكانت المغامرات الاستعمارية التي شرع بهـا نابليون لتعزيز نفوذه وسطوته المتداعيين قد أدت ، على العكس ، الى زعزعة موقفه زعزعة خطيرة . فتحت ضغط كبار رجال المال ، باشر نابليون حملة المكسيك التي اثارت استياء الولايات المتحدة الشديد منه ، على اعتبار ان هذه الاخيرة كانت تقف موقـف المعارضة الحازمة من اي تدخل للدول الاوروبية في شـؤون اميركا . وباءت خطة نابليون بالفشل الذريع . ووجد نفسـه مطالبا بتصحيح مغامرته العاثرة في اوروبا ، لكن سوء الحظ كان حليفه هنا ايضا . فقد كان يأمل ، وهو المضطر الى تقديم تنازلات على صعيد السياسة الداخلية ، ان يتمكن عن طريق ضم موفق في اوروبا من توسيع ممتلكات فرنسا ومن تعزيز موقفه بالتالي . وفي ١٨٦٧ انفجرت قضية اللوكسمبورغ ؛ فبعد سلسلة مـن المحاولات الفاشلة للحصول على قطعة ارض ما على الضفة اليسرى من الراين ، سعى نابليون الى ان يشتري من هولاندا دوقيـة اللوكسمبورغ الكبرى التي كانت تنتمي ، حتى عام ١٨٦٦ ، الى **الاتحاد الكونفدرالي الجرماني** ، ولكن التي كان رئيسها الاعلى ملك هولاندا . وكانت تقيم في الدوقية من قبل حامية بروسيـة اضطرت لاحقا للانسحاب . وأثار نبأ الصفقة بين نابليون والبلدان الواطئة هيجانا وغليانا شديدين في اوساط الوطنيين الالمان . ولاحت نذر الحرب ، لكن نابليون الذي قدر انه ليس مستعدا لها الاستعداد الكافي آثر التراجع . ولحق بنتيجة ذلك بحظوته اذى بالغ ، واضطر الى تقديم تنازلات جديدة للمعارضة التي كانت ما تني تتعاظم وتتسع نطاقا .

في زمن انعقاد مؤتمر بروكسيل تزايد الموقف تفاقما ، وباتت الحرب متوقعة في كل لحظة . وساد اليقين بأنها ستندلع بمجرد انتهاء فرنسا وبروسيا من استعداداتهما وعثورهما على الذريعة المناسبة لاعلانها . وانطرحت على الحركة العمالية ، التي كـان

ساعدها يشتد يوما فيوما ، وبخاصة في البر الاوروبي ، مسألة مقلقة ، مسألة الوسائل الواجب اعتمادها للحؤول دون تلك الحرب التي ستسدد ، في حال اندلاعها ، ضربة مفجعة الى العمال الفرنسيين والالمان . لهذا ما كان يسع **الاممية** ، التي باتت تمثل منذ عام ١٨٦٨ قوة لها شأنها وتتصدر طليعة الحركة العمالية الاممية ، الا تولي تلك المسألة فائق عنايتها . وبعد مداولات حامية اتخذ مؤتمر بروكسيل ، الذي كان بعضهم قد طالب اثناءه بتنظيم اضراب عام في حال اندلاع الحرب وأكد بعضهم الآخر ان الاشتراكية هي وحدها التي تستطيع ان تضع حدا للحرب ، اتخذ قرارا توفيقيا فيه ما فيه من الابهام .

في صيف ١٨٦٩ بدا وكأن شبح الحرب قد توارى ، فاحتلت المسائل الاقتصادية والاجتماعية مكانة الصدارة في مؤتمر بال . ولاول مرة طرحت بجلاء مسألة تشريك وسائل الانتاج التي كان مؤتمر بروكسيل قد مسها عرضا . وفي هذه المرة رجحت بصورة نهائية كفة خصوم الملكية الفردية للارض. ومني البرودونيون بهزيمة ماحقة . لكن ظهرت في ذلك المؤتمر اختلافات جديدة في وجهات النظر . اذ برز فيه بالفعل ممثل اتجاه جديد ، الروسي باكونين.

من اين جاء ؟ كنا قد رأيناه بعد ١٨٤٠ في برلين ؛ ونعلم انه مر بذات المدرسة الفلسفية التي مر بها ماركس وانجلز ، وانحاز في بداية ثورة ١٨٤٨ الى جانب المهاجرين الالمان المقيمين في باريس الذين نظموا فرقة ثورية لغزو المانيا . وأثناء الثورة بالذات بذل مساعيه في مورافيا لتوحيد الثوريين السلافيين ؛ وبعد ذلك اعتقل ، وحكم عليه بالموت ، لكنه سلم الى القيصر نيقولا الاول الذي أمر بحبسه في شلوسلبورغ . وبعد بضع سنوات ، في عهد الكسندر الثاني ، نفي الى سيبيريا ، ومنها هرب الى اوروبا عن طريق اليابان واميركا . كان ذلك في عام١٨٦٢ . وغرق يومئذ في القضايا الروسية ، وتحالف مع هرزن ، وكتب عن القضايا السلافية والروسية عدة كراسات أثبت فيها ضرورة

الاتحاد الثوري للسلافيين ، وقام بمحاولة غير موفقة للمشاركة في الانتفاضة البولونية . وفي ١٨٦٤ التقى في لنـــدن بماركس الذي اطلع منه على تأسيس **الاممية** ؛ ووعده بالمشاركة فيها ، لكنه قصد ايطاليا حيث اهتم بأمور مغايرة تماما . وكما في عام١٨٤٨ ، كان يعتقد ان ماركس يبالغ الى حد الشطط في اهمية الطبقـــة العاملة ، وان المثقفين والطلبة وممثلي الديموقراطية البورجوازية، ولاسيما المخلعين طبقيا ، يشكلون عنصرا اكثر ثوريـــة بكثير . وفيما كانت **الاممية** تكافح الصعاب الاولى وتتحول تدريجيا الـى منظمة أممية واسعة النفوذ ، كان باكونين في ايطاليا يجهد لتنظيم جمعيته الثورية . ثم انتقل الى سويسرا ، حيث انتسب الـــى **الرابطة** البورجوازية للسلم والحرية ، بل انتخب عضوا فـــي المجلس المركزي لهذه **الرابطة** . ولم يهجر صفوفها الا في عـــام ١٨٦٨ ، لكنه بدلا من ان يدخل الى **الاممية** اسس مع رفاقه جمعية جديدة ، **التحالف الاممي للاشتراكية ـ الديموقراطية** .

كانت تلك الجمعية الجديدة ، من الخارج على الاقل ، ثورية جدا . وقد أعلنتها حربا شعواء على الله والدولة ، وطالبت جميع اعضائها بأن يكونوا من الملاحدة . وما كان برنامجها الاقتصادي يتسم بالوضوح . فبدلا من التطلع الى الغاء الطبقـات ، طالبت بالمساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات طرا . وبالرغم من نزعتها الثورية لم تطرح حتى برنامجا اشتراكيا متماسكا، واكتفت بالمطالبة بالغاء حق الارث . وحتى لا تخيف الفارين من الطبقات الاخرى ، أبت التنويه بطابعها الطبقي .

كتب **التحالف** الى **المجلس العام** يسأله قبوله في **الاممية** ، لكن بشرط ان يتم هذا القبول باعتباره جمعية خاصة لها دستورها وبرنامجها الخاصان بها .

نتطرق الان الى المسألة الشائكة . فبما ان ماركس كان يتمتع بنفوذ كبير في **المجلس العام** ، فقد جرت العادة على تحميلـــه

مسؤولية جميع القرارات التي كان يتخذها ذلك **المجلس** . وما كان الامر يخلو من غلو ومغالاة . لكن ماركس يتحمل بالفعل القسط الاكبر من المسؤولية بخصوص القرار المتعلق بباكونين . ولو صدقنا لا أنصار باكونين فحسب ، بل ايضا بعض الماركسيين الذين اخذوا على عاتقهم الدفاع عن ذلك الثوري المشوش ، لوجدنا ماركس مجاوزا الحدود في الفظاظة في مقابلته طلب **التحالف** برفض باتر . وحتى نفهم جوهر النقاش ، تصوروا على سبيل المثال تنظيما انفصل للتو عن جمعية ديموقراطية ما وتوجه بطلب الى **الاممية الشيوعية** يسألها قبوله في صفوفها ، لكن بشرط ان يترك له الحق في الوجود كجمعية لها برنامجها الخاص بها ، بل حتى حق دعوة مؤتمرها الخاص . ففي مثل هذه الحال سيأتيه الجواب السديد كما يلي: صحيح ان التأخر خير من عدم الوصول، ولئن أدركتم اخيرا انكم أخطأتم بارتباطكم مع البورجوازية ، فتعالوا الينا ، ولن تلقوا عندنا الا الترحيب ، ولكن ابدؤوا بحل تنظيمكم وتوزعوا في مختلف فروعنا . وبديهي انه ليس لاحد ان يرى في هذا الجواب دليلا على العداوة او الخصومة تجاه التنظيم المذكور .

فضلا عن ذلك ، يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار الواقعة التالية: فعلاوة على برنامج **التحالف** ، بعث باكونين برسالة شخصية الى ماركس بعد حوالي اربعة أعوام من كتابته اليه من ايطاليا واعدا اياه بالعمل فيها لحساب **الاممية** . والحال انه لم يكتف بعدم انجاز وعده فحسب ، بل نذر ايضا قواه كلها للحركة البورجوازية . صحيح انه كتب هذه المرة الى ماركس يبلغه انه ادرك الان اكثر من اي وقت مضى كم كان هذا الاخير على صواب باختياره الطريق العريض للثورة الاقتصادية وسخريته من اولئك الذين يتسكعون في دروب المشاريع القومية المحض او السياسية الصرف . وقد اضاف يقول بلهجة مؤثرة : «منذ ان وجهت كلمة الوداع الاخيرة والعلنية الى البورجوازيين في مؤتمر برن ، لم أعد

أعرف من معشر او من وسط غير عالم العمال . ان وطني سيكون من الان فصاعدا **الاممية** التي انت واحد من مؤسسيها الرئيسيين . انت ترى اذن ، ايها الصديق العزيز ، انني تلميذك، وأنا بذلك لفخور» .

لقد استطاعت تلك الرسالة انتزاع دموع التأثر والاشفاق من أعين اصدقاء باكونين ، واثارة سخطهم ونقمتهم على ماركس ، الرجل الذي بلا قلب الذي رد بفظاظة ما بعدها فظاظة اليد التي مدت اليه . وحتى مهرينغ نفسه قال انه لا مجال البتة للشك في صدق ما باح به باكونين .

ليس في نيتي انا الآخر ان أرتاب في صدق باكونين . لكن ضعوا انفسكم ــ اسمحوا لي بذلك ــ محل ماركس . لقد كان هذا الاخير جلف الطبع ، لا مراء في ذلك ، لكن مهرينغ نفسه لا يستطيع ان يجد مناصا من الاقرار بأن ماركس دلل حتى نهاية ١٨٦٨ على تسامح وحلم كبيرين تجاه باكونين . لكن لكل شيء حدودا . وحسبنا ان نعيد بانتباه قراءة رسالة باكونين كي نفهم ان تلك الرسالة العاطفية لم تبد مقنعة كثيرا في نظر ماركس . فما كان كاتبها بغلام ، وانما رجل تخطى الخمسين من العمر سبق له ان انتمى لمرة الى «عالم العمال» ، ولكن فقط كي ينساه للحال ويلجأ الى «عالم البورجوازية» . وبعد اربع سنوات من الالتصاق بذلك العالم ، وبعد خيبة عميقة ورغبة تماثلها عمقا في الانخراط من جديد في الطريق العريض ، طلب باكونين الانتساب الى **الاممية** ، لكن بعد ان وضع شروطا تعجيزية . ولهذا وقف ماركس ، الذي كان قد اسرف في عام ١٨٦٤ في ابداء الثقة تجاه باكونين ، وقف هذه المرة ، وعن حق ، موقفا متحرزا .

حين رد **المجلس العام** ردا جازما طلب باكونين ، ابلغه هذا الاخير ان **التحالف** قرر حل تنظيمه وتحويل فروعه الى فروع **للاممية** ، لكن على اساس حفاظه على برنامجه النظري. ولم يوافق

المجلس العام على قبول فروع **التحالف** القديم الا على اساس الشروط العامة .

بدا للعيان وكأن كل شيء انتهى على ما يرام . لكن سرعان ما راودت ماركس الشكوك ، وعن حق ، في ان باكونين قد خدع بكل بساطة **المجلس العام** ، وانه في الوقت الذي حل فيه رسميا جمعيته حافظ فعليا على تنظيمه المركزي تمهيدا لفرض سيطرته على **الاممية** . وحول هذه النقطة بالذات كان يدور في الواقع جوهر النزاع . واننا لعلى استعداد للتسليم بأن ماركس كان رجلا كريها ، وبأن باكونين كان ملاكا طيبا . لكن ليس ذلك هو لب الموضوع ، وان كان باكونين يشكو هو الآخر ، كما هو معروف ، من قدر لا بأس به من العيوب . وعلى المدافعين عنه ان يجيبونا بوضوح على السؤال التالي : هل كان ثمة وجود لمثل ذلك التنظيم السري فعلا ؟ وهل اباح باكونين لنفسه تضليل **المجلس العام** بتوكيده له انه حل جمعيته ؟

على الرغم من حبي الاعمى لماركس ، ذلك الحب الذي عاد عليّ بتأنيب مهرينغ ، فاني لعلى استعداد للاقرار معه بأن باكونين وقع ضحية افتراء ذميم ، لو كان المرحوم غليوم ، صديق باكونين القديم ومؤرخ الاممية ، أثبت ان **التحالف** قد جرى حله فعلا . لكن **التحالف** استمر مع الاسف قائما ، وما ونى يخوض صراعا ضاريا ضد **الاممية** . وفي ذلك الصراع عبأ صاحبنا الطيب القلب باكونين جميع الوسائل التي ارتآها ضرورية لبلوغ هدفه . وأنا لن الومه على ذلك . لكن من المضحك ان نرى أنصاره يسعون الى تصويره بصورة الرجل الذي لا يلجأ ابدا الى الوسائل المثيرة للشبهات ، والذي لا يضمر ابدا ، كما يؤكد واحد من قليلي الذكاء من المدافعين عنه ، اي نية مبيتة .

ما كان اذن الهدف الذي لم يتوان باكونين عن تعبئة كل الوسائل في سبيله ؟ تدمير المجتمع البورجوازي ، الثورة

الاجتماعية : هذا ما كان يرومه باكونين . لكن ماركس كان يهفو بدوره الى الهدف ذاته . اذن فالخلافات في وجهات النظر كانت تنصب على نقطة مغايرة . وبالفعل ، كان ماركس وباكونين على اختلاف تام بصدد الوسائل الواجب استخدامها لبلوغ ذلك الهدف .

بادىء ذي بدء ، ينبغي هدم كل شيء حتى ينصلح من ثم من تلقاء نفسه ، وكلما تم ذلك بسرعة اكبر كان ذلك افضل . ويكفي لذلك اثارة المثقفين الثوريين والعمال الناقمين بسبب البؤس . وهذا يتطلب مجموعة من الرجال الموطدي العزائم ، المتأججة أفئدتهم بالنار المقدسة . تلك هي خلاصة مذهب باكونين الذي يذكرنا ، للوهلة الاولى ، بمذهب فيتلنغ . لكن هذا التشابه سطحي ليس الا . كذلك سطحي هو ايضا التماثل بين مذهبي كل من باكونين وبلانكي . فباكونين كان يصم أذنيه عن اي حديث عن استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية . وكان ينكر كل نضال سياسي ما دام يخاض في اطار المجتمع البورجوازي القائم وما دام يهدف الى توفير شروط أنسب لتنظيم البروليتاريا طبقيا. لهذا كان ماركس وجميع اولئك الذين يرتؤون معه ضرورة خوض غمار النضال السياسي وتنظيم البروليتاريا بغية الاستيلاء على السلطة السياسية ، كانوا في نظر باكونين وأتباعه انتهازيين عتيدين يؤخرون قيام الثورة الاجتماعية . لهذا انتهز الباكونينيون الفرصة لتصوير ماركس بصورة الرجل الذي لا يتورع ، بغية تحقيق افكاره ، عن تزوير دستور **الاممية** . وأوسعوا ماركس شتما على رؤوس الاشهاد ، وبخاصة في رسائلهم ونشراتهم ، وما أحجموا حتى عن التهجمات اللاسامية ، وما تورعوا حتى عن اتهام ماركس بالعمالة لبسمارك .

كان لباكونين صداقات كثيرة في ايطاليا وسويسرا . وكان قد جمع أنصارا كثيرين في سويسرا ، وبخاصة في سويسرا

الرومانديه (١) . ولا يسعني ان أدخل في تفاصيل اسباب نجاحه، لان ذلك سيبعدنا عن موضوعنا كثيرا . وسأكتفي بالقول لكم ان دعايته كانت مثمرة جدا في اوساط العمال المياومين والحرفيين الساعاتيين الذين لحقهم ضر شديد بنتيجة مزاحمة الصناعة الكبرى لهم في ميدان اختصاصهم .

حين مثل باكونين امام مؤتمر بال ، كان قد حشد وراءه مجموعة كبيرة التعداد من الانصار . وكما يحدث غالبا في أشباه تلك الحالات ، دارت رحى المعركة الاولى حول مسألة مغايرة تماما للمسألة التي كان يتركز عليها جوهر النزاع . فباكونين ، الذي كان يجاهر بعدائه العنيف لكل انتهازية ، طالب بإلحاح وإلحاف باقرار الغاء حق الارث كمطلب آني وفوري . بيد أن مندوبي **المجلس العام** بينوا ، استنادا الى مذكرة ـ تقرير ماركس ، ان ذلك التدبير ما هو ، كما سبق ان اشار الى ذلك **البيان الشيوعي**، سوى تدبير انتقالي ستلجأ اليه البروليتاريا يوم تستولي على السلطة السياسية . وبانتظار ذلك اليوم ، لا مجال للمطالبة الا بزيادة الضريبة على الميراث وتقييد حق الإيصاء . لكن باكونين ما كان يقيم اعتبارا لا للمنطق ولا للظروف الواقعية . وما كان يهمه ذلك المطلب الا بما ينطوي عليه من امكانية تحريضية . وفي النهاية ، لم يحصل اي قرار على الغالبية .

نشب نزاع آخر بين باكونين والشيخ ليبكنخت . فقد كان مؤتمر بال اول مؤتمر شاركت فيه مجموعة لا بأس بتعدادها قدمت من المانيا . وكان ف. ليبكنخت و أ. بيبل قد أفلحا عهدئذ ، بعد نضال فئوي ضار ضد شفايتزر ، في تنظيم حزب خاص تبنى ، في مؤتمره التأسيسي المنعقد في آيزناخ ، برنامج

---

١ ـ سويسرا الرومانديه : اسم يطلق على القسم الذي يتكلم الفرنسية من سويسرا . «م»

الاممية . وكانت الصحيفة المركزية لذلك الحزب قد وجهت نقدا لاذعا الى نشاط باكونين في **رابطة السلم والحرية** ، وعرضت بالتفصيل وجهات نظره السابقة المؤيدة للوحدة السلافية . ويذكر مهرينغ نفسه ان ماركس عارض لفترة طويلة من الزمن ذلك النقد، لكنه كان يُعد ، كما رأينا في قضية فوغت ، مسؤولا عن جميع اعمال الماركسيين الذين اليهم كان ينتمي ليبكنخت وبيبل. وانتهز باكونين سانحة المؤتمر لتسوية حساباته مع ليبكنخت . وانتهى كل شيء بمصالحة ، لم يكتب لها اصلا الا ان تكون عابرة .

كان من المفروض ان ينعقد المؤتمر التالي في المانيا ، في ماينز ، لكنه ما استطاع انعقادا . فعقب مؤتمر بال توترت العلاقات بين فرنسا والمانيا الى حد بات من المتوقع معه اعلان الحرب بين ساعة واخرى . وخدع بسمارك ، وهو من أبرع المحتالين الذين عرفهم التاريخ قط ، استاذه القديم نابليون ؛ فبعد ان تسلح حتى الاسنان استعدادا للحرب ، دبر الامور على نحو بدت معه فرنسا في نظر العالم قاطبة هي المعتدية .

اندلعت الحرب ، بالفعل ، بصورة غير متوقعة بالمرة .. وما كان لا العمال الفرنسيون ولا العمال الالمان في حالة تؤهلهم للحؤول دون اندلاعها . وبعد بضعة ايام من اعلان الحرب ، اصدر **المجلس العام** بيانا بقلم ماركس .

يبدأ البيان بشاهد من **الخطاب الافتتاحي للاممية** يدين «السياسة الخارجية التي تراهن على مشاعر التعصب القومي ، وتنشد مآرب مجرمة ، وتهدر دماء الشعوب وخيراتها في حروب السلب والنهب» .

ويلي ذلك بيان اتهام ضد نابليون . فيصف ماركس باقتضاب صراع هذا الاخير ضد **الاممية** ، ذلك الصراع الذي احتدم وزاد حدة منذ ان شرع الاميون بحملة تحريض مستعرة ضد نابليون . ويضيف ماركس قائلا انه كيفما انتهت الحرب فان **الامبراطورية**

الثانية مكتوب عليها الهلاك . ولسوف تنتهي كما بدأت ، بمحاكاة ساخرة (٢) .

لكن هل نابليون المذنب الوحيد ؟ بتاتا . فالحكومات الاوروبية جميعا مذنبة . وبالفعل ، لا ينبغي لاحد ان ينسى ان الحكومات والطبقات السائدة في اوروبا هي التي ساعدت نابليون ، على مدى ثمانية عشر عاما ، على تمثيل مهزلة إحياء **الامبراطورية** .

بيد ان أعنف الضربات سددها ماركس الى وطنه بالذات . قال : ان الحرب الراهنة هي بالنسبة الى الالمان حرب دفاعية . لكن من وضع المانيا في وضع الحاجة الى الدفاع عن النفس ؟ من أغرى نابليون بمهاجمة المانيا ؟ انها بروسيا . فقد عقدت اتفاقا مع نابليون ضد النمسا . فلو كانت بروسيا غلبت على أمرها لكانت فرنسا اجتاحت بقواتها المانيا . والحال ، ماذا فعلت بروسيا بعد انتصارها على النمسا ؟ بدلا من ان تجابه فرنسا المسترقة بألمانيا حرة ، حافظت لا على النظام البروسي القديم دون مساس فحسب ، بل اضافت اليه ايضا جميع المعالم المميزة للنظام البونابرتي .

جرت المرحلة الاولى ، المرحلة الحاسمة من الحرب بسرعة صاعقة . فالجيش الفرنسي لم يكن مستعدا للقتال البتة . وعلى الرغم من الخطاب المغرور لوزير الحربية الذي أكد ان كل شيء جاهز حتى الزر الاخير ، اتضح بالفعل انه اذا كانت الازرار جاهزة فليس هناك من يخيطها . ففي زهاء اسابيع ستة هزم الجيش النظامي الفرنسي هزيمة ماحقة ، وفي ٢ ايلول استسلم نابليون مع جيشه في سيدان . وفي ٤ ايلول اعلنت الجمهورية في باريس . وخلافا لاعلان بروسيا الذي أكدت فيه انها لن تحارب

---

٢ ــ أي محاكاة ساخرة للامبراطورية الاولى ، الامبراطورية التي أسسها بونابرت ، والتي تعرف باسم الامبراطورية اطلاقا . «م»

الا **الامبراطورية** ، تواصل القتال . وكانت عندئذ المرحلة الثانية من الحرب ، المرحلة الاطول والاشد ضراوة .

عقب اعلان الجمهورية في فرنسا مباشرة ، أصدر **المجلس العام** بيانه الثاني عن الحرب . وهذا البيان ، الذي كتبه ماركس ايضا ، يعتبر بعمق تحليله للوضع السائد آنذاك وبنفاذ رؤيته التاريخية من أنبغ النصوص التي تركها لنا . والشيء الذي يسترعي الانتباه ان ماركس مهره بإمضائه بصفته امين سر **المجلس العام** لا عن المانيا فحسب ، بل ايضا عن روسيا ، لانه كان قد تشكل قبيل ذلك في سويسرا فرع روسي **للاممية**، وطلب من ماركس تمثيله في **المجلس العام** .

كان ماركس قد تنبأ في بيانه الاول ، كما تذكرون ، بأن تلك الحرب ستنتهي بسقوط **الامبراطورية الثانية** . ويبدأ البيان الثاني بالتذكير بتلك النبوءة . بيد ان النقد الذي سبق لماركس ان وجهه الى السياسة البروسية اتضح انه هو الآخر في محله . فحرب بروسيا الدفاعية كانت قد تحولت الى حرب هجومية ضد الشعب الفرنسي . فحتى قبل استسلام سيدان ، ولما تبدى للعيان ان الجيش الفرنسي آيل الى تفكك وانحلال ، اعلنت الطغمة العسكرية البروسية عن تأييدها لسياسة الفتح والتوسع. وقد انتقد ماركس ايضا بلا شفقة المسلك المرائي للبورجوازية الليبيرالية الالمانية . واستفاد كذلك من توجيهات انجلز الذي كان يتتبع بانتباه ، بصفته اختصاصيا ، سير الحرب ، والذي تنبأ في النصف الاول من شهر آب بكارثة سيدان ، فحلل الحجج العسكرية التي كان بسمارك والجنرالات البروسيون يتذرعون بها لتبرير ضم الالزاس واللورين الى المانيا .

بعد ان يعلن ماركس عن معارضته الجازمة لاي ضم ولأي تغريم ، يثبت أن سلما يقوم على العنف لن يتمخض الا عن نتائج مناقضة تماما لتلك التي تتوخى منه . ولسوف تكون عاقبة ذلك

السلم حربا جديدة . ففرنسا ستسعى الى استعادة ما تكون قد خسرته ، وستحاول لهذا الغرض التحالف مع روسيا . وعلى هذا النحو ، فان روسيا القيصرية التي سبق ان خسرت هيمنتها غب حرب القرم ستعود من جديد سيدة مصائر اوروبا . وينتهي هذا التشخيص العبقري ، هذا التنبؤ بتطور التاريخ الاوروبي الذي هو واحد من الادلة العملية الساطعة على صحة التصور المادي للتاريخ ، ينتهي بالكلمات التالية :

«هل يعتقد الوطنيون الالمان اعتقادا جديا بأنهم يضمنون فعلا السلم والحرية لالمانيا برميهم فرنسا بين ذراعي روسيا ؟ اذا أدت مغامرة السلاح ونشوة النصر والمكائد السلالية الى نهب اراض فرنسية ، يبقى طريقان اثنان مفتوحين امام المانيا . فإما ان تغدو هذه الاخيرة الاداة **الواعية** لمخططات الفتح البروسية ، وهي سياسة تتفق وتقاليد آل هوهنزولرن ؛ وإما ان تجد نفسها ملزمة ، في أجل قصير للغاية من الزمن ، بالاستعداد لحرب «دفاعية» جديدة ؛ لكن هذه الحرب لن تكون حربا «موضعية» ، بل ستكون **حربا بين العروق والاجناس** ، حربا بين السلافيين واللاتين المتحالفين . ذلك هو السلم الذي «يضمنه» لالمانيا الوطنيون البورجوازيون البليدون» .

لقد تحققت هذه النبوءة ايضا حرفيا ، كما امكن للوطنيين الالمان الحاليين ، الذين يضاهون أسلافهم ضيق أفق، أن يعاينوا. وينتهي البيان بعرض المهام العملية التي كانت تفرض نفسها آنئذ على الطبقة العاملة . ويحث العمال الالمان على المطالبة بصلح مشرف وبالاعتراف بالجمهورية الفرنسية . وينصح ماركس العمال الفرنسيين ، الذين كانوا آنئذ في موقف أشد إحراجا

وإرباكا ، بأن يراقبوا الجمهوريين البورجوازيين وبأن يستخدموا النظام الجمهوري لتطوير تنظيمهم الطبقي بسرعةوللفوز بتحررهم.

لم تتأخر الاحداث عن تبرير ريبة ماركس وشكه بالجمهوريين الفرنسيين . فقد أدى مسلكهم المشين وتطلعهم الى التحالف مع بسمارك بدلا من القبول بتقديم اي تنازل ، مهما هان ، للطبقة العاملة ، ادى الى اعلان قيام **العامية** . وبعد أشهر ثلاثة من نضال بطولي ، باءت بالفشل تلك المحاولة الاولى لفرض دكتاتورية البروليتاريا في شروط غير موائمة بالمرة . ولم يكن **المجلس العام** مهيئا لتقديم العون الضروري للفرنسيين . وكانت باريس مقطوعة بالقوات الفرنسية والالمانية عن سائر انحاء فرنسا والعالم قاطبة. وهذا لا يمنع ان تكون **العامية** قد فازت بالتعاطف العام، ونستطيع ان نقول بفخر ان مصيرها أجج المشاعر في بلادنا حيث اصدرت مجموعة من الثوريين بقيادة غونتشاروف في نيسان وأيار ١٨٧١ نشرات متفرقة حثت فيها الشعب على الاقتداء بمثال العاميين الفرنسيين .

كلف **المجلس العام** ماركس بكتابة بيان ، وكان هذا الاخير قد حاول اثناء **العامية** ، كما تدل واحدة من رسائله (عثرت عليها انا) الى الاممي الفرنسي البارز فارلان ، ان يقيم اتصالات مع باريس . وقد دافع في البيان الذي كلف بكتابته عن العاميين الذين افترت عليهم الصحافة البورجوازية بأسرها ، واظهر ان **العامية** كانت مرحلة جديدة كبرى للحركة البروليتارية، والنموذج الاول للدولة البروليتارية التي ستأخذ على عاتقها تحقيق الشيوعية . وكان ماركس ، على اساس تجربة ثورة ١٨٤٨ ، قد توصل الى الاستنتاج بأن الطبقة العاملة لن يكون في مستطاعها، عقب الاستيلاء على مقاليد السلطة السياسية ، ان تكتفي بوضع اليد على جهاز الدولة البورجوازي ، وأنها ستكون مطالبة ايضا بتحطيم كل تلك الآلة البيروقراطية والبوليسية . وقد أقنعته

تجربة **العامية** بصورة نهائية بتلك الحقيقة . فقد اظهـــرت ان البروليتاريا وجدت نفسها مضطرة ، بمجرد استيلائها علـــى السلطة السياسية ، الى ان تخلق جهاز دولة خاصا بها ومتكيفا مع حاجاتها . لكنها اظهرت ايضا ان الدولة البروليتارية لا يمكن ان تنحد بإطار مدينة واحدة ، ولو كانت هي العاصمة . انمـــا ينبغي ان تمتد سلطة البروليتاريا الى سائر أرجاء البلد حتـــى يكون لها الحظ في تثبيت قدميها وتعزيز مواقعها ، والى جملة من البلدان الرأسمالية كي تنتزع النصر النهائي .

اما باكونين وأتباعه فقد استخلصوا ، على العكس ، مـــن تجربة **العامية** استنتاجات مغايرة . فقد واصلوا محاربتهم بمزيد من العنف لكل سياسة ولكل دولة ، موصين بتنظيم «عاميات» في مدن منعزلة ، عند سنوح اول فرصة ، على اعتبار ان المدن الاخرى لن تتوانى في هذه الحال عن الاقتداء بمثالها .

كان لسحق **العامية** عواقب وخيمة للغاية على **الاممية** نفسها. فقد توقف نمو الحركة العمالية الفرنسية توقفا شبه تام لعـدة سنوات . ولم يعد لها من ممثلين في **الاممية** سوى العاميين المقيمين إما في انكلترا واما في فرنسا ، والذين افلحوا فـــي الافلات من الملاحقات ، والذين كانوا يخوضون فيما بينهم صراعا فئويا مسعورا نقلوه معهم الى داخل **المجلس العام** ذاته .

عانت الحركة العمالية الالمانية بدورها من محنة قوية . فقد ألقي القبض على كل من بيبل وليبكنخت لاحتجاجهما على ضـم الالزاس واللورين ولتضامنهما مع **عامية باريس** ، وزج بهما فـي معقل . واضطر شفايتزر ، الذي كان قد خسر ثقة حزبه ، الى الخروج من صفوفه . وواصل أتباع ليبكنخت وبيبل ، الملقبون بالآيزناخيين ، العمل بمعزل عن اللاساليين ، ولم يجددوا تقاربهم منهم الا حين سنت الحكومة أسنانها ضـــد الحزبين المتصارعين كليهما. على هذا النحو فقدت **الاممية** سندها في قطرين رئيسيين من أقطار البر الاوروبي .

لكن في داخل الحركة العمالية الانكليزية نفسها حـــدث انعطاف وتحول . فالحرب بين القطرين الاكثر تطورا في البر الاوروبي من الناحية الصناعية عادت على البورجوازية الانكليزية بمنافع وفوائد لا تقل عن تلك التي عادت بها الحرب العالميـــة الكبرى الاخيرة على البورجوازية الاميركية . وصارت البورجوازية الانكليزية آنئذ في وضع يؤهلها لاقتطاع نصيب معلوم من أرباحها الطائلة لتوزيعه على العمال الكثيريـــن المستخدمين في فروع الصناعة الرئيسية . ونالت النقابات حرية عمل اكبر . وابطـل مفعول بعض القوانين القديمة التي كانت موجهة ضدها . وأثرت تلك الاصلاحات على بعض اعضاء **المجلس العام** ممن كان لهم دور بارز في الحركة التريديونيونية . فطردا مع تطور **الاممية** باتجـاه متعاظم الجذرية ، راح الكثيرون منهم يميلون اكثر فأكثر الـى الاعتدال . وقد لبثوا شكليا اعضاء في **المجلس العام** ، لكنهـم راحوا يستخدمون ألقابهم لمآربهم الشخصية . وكانت **العامية** وما استتبعته من هجمات حانقة على **الاممية** قد بثت في قلوبهـــم الذعر . فبادروا الى الاعلان عن عدم تضامنهم مع البيان عـــن **عامية باريس** ، وان يكن ماركس قد كتبه صدوعا لإمر **المجلس العام** . وحدث انشقاق بصدد هذا الموضوع في الفرع الانكليزي من **الاممية** .

في هذه الشروط اندعى اخيرا للانعقاد مشار **الاممية** فـــي ايلول ١٨٧١ في لندن . وكان على هذا المشار ان يهتم بصـــورة رئيسية بمسألتين . الاولى كانت المسألة القديمة المثيرة للاخـــذ والرد بصدد النضال السياسي . وقد كان من الدوافع التي حثت المشار على الاهتمام بها مسلك الباكونينيين الذين واصلوا اتهام ماركس بأنه زوّر عن عمد دستور **الاممية** ليفرض على هـــذه الاخيرة رأيه . وجاء القرار هذه المرة ليعطي جوابا انقشع معه أي شك ، وآب الباكونينيون بالهزيمة كاملة .

ولما كان القليلون منكم يعرفونه في اغلب الظن ، فسوف أتلو عليكم القسم الاخير منه :

«نظرا :

الى ان الرجعية المسعورة تقمع بالعنف حركة انعتاق العمال وتسعى بالقوة الوحشية الى الابقاء على الانقسام الطبقي وعلى ما يترتب عليه من سيطرة سياسية للطبقات السائدة ؛

والى ان ذلك التنظيم للبروليتاريا في حزب سياسي ضروري لضمان انتصار الثورة الاجتماعية وهدفها النهائي : الغاء الطبقات ؛

والى ان اتحاد القوى العاملة قد تحقق بفضل النضال الاقتصادي ويجب ان يكون ايضا رافعة بين يدي الطبقة العاملة في نضالها ضد السلطة السياسية للمستغلين ؛

يذكّر المشار جميع اعضاء **الاممية** ان الحركة الاقتصادية للطبقة العاملة ونشاطها السياسي مرتبطان ارتباطا لا يقبل فصاما على صعيد كفاحها» .

لكن كان على المشار ان يهتم ايضا بالباكونينيين لسبب آخر. فقد كان **المجلس العام** قد ازداد اكثر فأكثر اقتناعا بأن جمعية باكونين السرية ، رغما عن جميع التوكيدات التي اعطاها هذا الاخير ، ما تزال تواصل نشاطها . لهذا اتخذ المشار قرارا يحظر تنظيم أي جمعية اخرى لها برنامج خاص ضمن نطاق **الاممية** . وبهذه المناسبة اعلن المشار من جديد تبلغه قرار حل التحالف واعتبر المسألة بحكم المنتهية .

بيد ان ثمة قرارا آخر اثار بالغ قلق باكونين وأتباعه الروس.

فقد أعلن المشار على نحو جازم قاطع ان **الاممية** لا ضلع لهـــا بقضية نتشائيف الذي كان انتحل واستغل لمآربه لقب عضـــو **الاممية** .

كان ذلك القرار موجها فقط ضد باكونين الذي كان على صلة وثيقة منذ زمن بعيد ، كما هو معلوم ، بنتشائيف ، الثـــوري الروسي الذي فر في ١٨٦٩ الى الخارج . وكان في خريف ذلك العام نفسه قد عاد أدراجه الى روسيا ، مفوضا من قبل باكونين بالصلاحيات كافة ، ونظم في موسكو جماعة خاصة . ولما ارتاب في رغبة الطالب ايفانوف في خيانة التنظيم ، عمد بمساعدة بعض رفاقه الى قتله غير بعيد عن اكاديمية بتروفسكو ـ رازوموفسكوي، وفر من جديد الى الخارج . وأدت تلك القضية الى اعتقال اعضاء تنظيمه الجديـد ، وكذلك الى اعتقـــال عدد من الطلبـــة البطرسبورغيين الذين كانوا على صلة به . وسيقوا جميعهم الى المحاكم في صيف ١٨٧١ . وتعرف تلك القضية باسم قضيـــة نتشائيف . وأثناء المحاكمة جرى نشر عدد كبير من الوثائق التي استخدمها الادعاء . وقد خلط هذا الاخير بين جمعيـــة باكونين وفرعها الروسي وبين **الاممية** . لكن حسبنا ان نقارن تلـــك الوثائق بكتابات باكونين حتى نتعرف مؤلفها الحقيقي . فهي لا تتميز عن سائر النداءات المماثلة التي كتبها باكونين لرفاقه في الغرب الا بصراحتها الزائدة ، وبشيء من التلبك والتثاقل فـــي العرض في الاقسام التي صححها وأكملها نتشائيف .

لقد درجت العادة على القول ان باكونين وقع تحت تأثـــير نتشائيف الذي كان يخدعه ويستخدمه لمآربه الشخصية . وفي الواقع كان نتشائيف ، على قلة ثقافته وازدرائه كل عمل نظري واعتباره اياه عديم الجدوى ، رجلا ذا طاقة عجيبـــة وارادة حديدية . وكان ثوريا يتفانى روحا وجسدا في سبيل القضية ، وقد أثبت فيما بعد امام قضاته وفي السجن شجاعته التي لا تتزعزع ومقته الذي لا يـــروى له غليل لمضطهـــدي الشعب

ومستغليه . ولئن كان لا يتوانى عن شيء ولا يترفع عن اي وسيلة لبلوغ الهدف الذي نذر له حياته ، فانه ما كان ينحط قط الى استخدام الوسائل الدنيئة اذا كان الامر يتعلق بشخصه وحده . ومن هذه الزاوية ، كان يتفوق تفوقا اكيدا على باكونين الذي ما كان يحجم عن اي مساومة او صفقة خدمة لمآربه الشخصية . وليس ثمة من مجال للشك في تفوق نتشائيف من هذا المنظور ، وكل شيء يدل على ان باكونين نفسه كان يقر به ، وعلى انه كان يجل نتشائيف ويقدره تقديرا عاليا ، وان يكن هذا الاخير دونه بكثير من المنظور الفكري .

لكن لن نكون الا سذجا لو استنتجنا من ذلك ان نتشائيف فرض على باكونين آراءه الثورية الخاصة به . بل على العكس ، فقد كان هو نفسه تلميذ باكونين ؛ ولكن لئن كان صاحبنا ، رسول الهدم والتدمير ، غالبا ما يتبدى في مظهر الثوري اللامنطقي والمتناقض مع نفسه ، فقد كان نتشائيف يتميز بتماسك منطقي مكين ويستخلص من نظرية معلمه جميع الاستنتاجات العملية التي تنطوي عليها . فحين أعلمه باكونين انه لا يستطيع ان يرفض انجاز العمل الذي تعهد بالقيام به (ترجمة **الرأسمال**) لانه قبض عنه دفعة على الحساب ، عرض عليه نتشائيف ان يعتقه من ذلك الالتزام ـ وقد فعل ذلك بمنتهى البساطة : فباسم اللجنة الثورية لـ «**ناردنايا راسبرافا**» كتب الى الشخص الذي قام بدور الوسيط بين باكونين والناشرين يطلب اليه ان يدع باكونين وشأنه اذا كان لا يريد ان يلاقي حتفه . ولما كان باكونين يصر على اعطاء مكانة الصدارة **للبروليتاريا الرثة** ، التي كان يعتبرها المحرك الحقيقي للثورة الاجتماعية ويعارض بها بروليتاريا الصناعة الكبرى ، ولما كان يرى ان المجرمين وقطاع الطرق هم العنصر الافضل والامثل في الجيش الثوري ، فقد خلص نتشائيف بصورة منطقية الى الاستنتاج بوجوب المبادرة الى تنظيم رجال من ذوي العزم والتصميم في سويسرا كي ينفذ معهم عمليات

مصادرة . وفي الختام ، انفصل باكونين عن تلميذه ، ولكن فقط لان منطق نتشائيف الصارم والتبسيطي اثار ذعره ؛ ومع ذلك لم يجرؤ على مقاطعته علنا وجهارا ، لان نتشائيف كان يملك الكثير من الوثائق القمينة بتوريطه وتهديد سمعته .

عقب مشار لندن مباشرة احتدم الصراع واضطرم اواره من جديد . واعلن الباكونينيون حربا سافرة على **المجلس العـــام** ، فاتهموه بتزوير المشار وبفرضه على **الاممية** بأسرها عقيدة ضرورة تنظيم البروليتاريا في حزب خاص بغية الاستيلاء على السلطة السياسية . وطالبوا بأن يدعى للانعقاد مؤتمر يتولى وضع حل نهائي للمسألة .

اجتمع ذلك المؤتمر ، الذي تهيأ له الطرفان بحمية ، فـــي ايلول ١٨٧٢ . وللمرة الاولى شارك فيه ماركس شخصيا . ولم يحضره باكونين . وبصدد المسألة الرئيسية أكد المؤتمر قـــرار المشار بتمامه ، وأضاف اليه الجملة التالية المقتبسة بصورة شبه حرفية من **«الخطاب الافتتاحي» للاممية** : «لما كان مالكو الارض والرأسمال يستغلون على الدوام امتيازاتهم السياسية للدفاع عن احتكاراتهم الاقتصادية وتأبيدها ولاسترقـاق العمل ، فـــان الاستيلاء على السلطة السياسية هو الواجب الاكبر للبروليتاريا» .

وبعد ان درست اللجنة الخاصة جميع الوثائق المتعلقة بقضية **التحالف** وتوصلت الى الاستنتاج بأن تلك الجمعية ما تزال على قيد الوجود كجمعية سرية في **الاممية** ، اقترحت فصل باكونين وغليوم . وتم قبول ذلك الاقتراح .

جاء في قرار الفصل ان باكونين فصل ، ناهيك عن ذلك ، لـ «أمر شخصي» . وهو الامر الذي اشرت اليه فيما يتعلق بقضية نتشائيف . انني أعتقد شخصيا ان الاسباب السياسيـــة كانت كافية لتعليل فصل باكونين . لكن من السخف أن تتخذ تلـــك القصة المؤسفة ، التي سقط فيها باكونين ضحية ضعف شكيمته ، ذريعة لتوجيه اتهامات ضد ماركس . ومن الاسخف ايضا القول

ان باكونين فصل لانه تقاضى ، شأن الكثيرين من الادباء ، سلفة من الناشر ولم ينجز عمله . أفي الامر احتيال ؟ مؤكد ان لا . لكن حين يقول المدافعون عن باكونين ، وقد انضم مهرينغ نفسه اليهم فيما بعد ، انه ما كان يخلق بماركس ان يجرّم باكونين بسبب ذلك ، فانهم لا يفهمون او انهم ينسون ان المسألة لم تكن اعادة باكونين للسلفة التي تقاضاها ، وانما تتعدى ذلك الى ما هو اهم بكثير . فمهرينغ ، كما يحدث له غالبا ، يأخذ بناصر الاديب . وقد كتب يقول ان العديدين من الكتاب لا يفون بالفعل بديونهم للناشرين الذين استلفوا منهم دفعات على الحساب . ويضيف قائلا ان مسلكا كذلك ليس بالتأكيد بالمسلك الحميد ، لكن لا يجوز الحكم على الناس استنادا الى أشباه تلك السفاسف . ويثبت مهرينغ بذلك انه لم يكن افضل من الفوضويين في فهم المناقشة الحقيقية التي دارت في مؤتمر لاهاي . فحيث رأى باكونين وأصدقاؤه تصرفا طائشا وقابلا للغفران ، تصرفا لم ينجم عنه ضر الا للناشر ، رأى اعضاء اللجنة الخاصة ، بعد ان اجتمعت بين أيديهم الوثائق كافة ، استغلالا مجرما لاسم منظمة ثورية عمالية ترتبط في نظر الجميع **بالاممية** ، وهو استغلال اقترف لغايات شخصية ، وللتهرب من سداد دَين . ولو نشرت الوثيقة التي كانت بين يدي اللجنة آنذاك ، لكان هلل العالم البورجوازي فرحا . صحيح انها كتبت بقلم نتشائيف ، لكنها كانت تتطابق تمام التطابق في الجوهر مع مبادىء باكونين . وينبغي ان نضيف الى ذلك ان باكونين انفصل عن نتشائيف لا بسبب تلك القضية ، وانما لان هذا الاخير كان نزّاعا ، على ما بدا له ، الى اعتباره هو ذاته اداة اهدافه الثورية . وحسبنا ان نقرأ رسائل باكونين الى اصدقائه لنرى كم كان لا يتحرج في اتهام خصومه ، بمن فيهم ماركس ، لا باتهامات سياسية ــ فهذا من حقه ــ وانما باتهامات شخصية . ونحن نعلم الان ان باكونين هو مؤلف الوجيز الذائع الشهرة برسم الثوريين ، ذلك الوجيز الذي نسب في حينه الى

نتشائيف وأثار ، لدى نشره اثناء المحاكمة ، سخـــط الثوريين ونقمتهم العامة . والحال ان اصدقاء باكونين انكـــروا بعناد ان يكون مؤلفه ، والقوا التبعة كلها على كاهل نتشائيف .

قبل مؤتمر لاهاي ، في ختام أعماله ، باقتراح انجلز بصدد نقل مقر **المجلس العام** الى نيويورك . فكما قلت لكم آنفا ، كانت **الاممية** قد فقدت سندها لا في فرنسا فحسب ، حيث صـــار مجرد الانتماء الى **الاممية** جريمة يعاقب عليها ابتداء من عـــام ١٨٧٢ ، ولا في المانيا فحسب ، وانما في انكلترا ايضا . وكان نقل الهيئة المركزية **للاممية** الى اميركا يعتبر تدبيرا مؤقتا . لكن مؤتمر لاهاي كان في الواقع آخر مؤتمر في تاريخ **الاممية** . ففي عام ١٨٧٦ أصدر **المجلس العام** في نيويورك إشعارا يعلن فيه ان **الاممية الاولى** قد زالت من الوجود .

المحاضرة التاسعة

[انجلز يستقر في لندن ـ دوره في المجلس العام ـ مرض ماركس ـ انجلز يحل محل ماركس ـ «الآنتي ـ دهرينغ» ـ آخر سنوات ماركس ـ اهتمام ماركس بروسيا ـ انجلز ينشر مؤلفات ماركس بعد وفاته ـ دور انجلز في عهد الاممية الثانية ـ وفاة انجلز] .

انجزنا في المرة السابقة تاريخ **الاممية** . ولم اذكر شيئا تقريبا عن دور انجلز . والحال انني أعلم انه يحظى بكبير اهتمامكم ، اذا اتخذت معيارا للحكم على ذلك ما تلقيته من مذكرات من مستمعيّ . وكثيرا ما طرح عليّ السؤال عما اذا كان صحيحا ان انجلز كان صاحب معمل. ونظرا الى ان كلمة «صاحب معمل» اخذت في الآونة الاخيرة ، وفي ظل **السياسة الاقتصادية**

الجديدة ، معنى تحقيريا وشـــاع استعمالها ضـــد الاداريين الشيوعيين ، فسأتوقف مليا عند هذه المسألة . كما ذكرت لكم في البداية ، كان انجلز ، المتحدر من أسرة غنية من اصحـــاب المعامل ، صاحب معمل هو الآخر. وقد تم تأسيس **الاممية** بدونه، ولم يشارك في نشاطها حتى مطلع ١٨٧٠ الا مشاركة زهيـــدة وغير مباشرة . وقد كتب في ابان تلك السنوات بضعة مقالات للمجلات الانكليزية العمالية . وأنا لا أتكلم عن المساعدة التي ما فتىء يقدمها لماركس الذي كان في عوز شديد في السنـــوات الاولى من **الاممية** . ولولا مساعدة انجلز ، ولولا الارث البسيـط الذي تركه له صديقه القديم ف. وولف الذي كان قد اهـــدى اليه **الرأسمال** ، لما كان وسع ماركس التغلب على البؤس ولما كان استطاع ان يكتب مؤلفه الاساسي . ونلفى في عداد رسائله رسالة مؤثرة وجهها الى انجلز ليعلمه بأنه استلم اخيرا مسودة الملزمة الطباعية الاخيرة . فقد كتب يقول :

«اخيرا ، انتهى ذلك المجلد . **ولك وحدك** أديـن بأنني تمكنت من انهائه . فلولا مساعدتك الوفية ، لما امكنني قط انجاز هذا العمل الكبير ذي المجلـــدات الثلاثة . انني اشكرك من أعماق القلب وأقبلك» .

كان انجلز ، كما قلت لكم ، صاحب معمل . لكن ما تجـدر الاشارة اليه انه لم يلبث كذلك ردحا طويلا من الزمن . فبعـــد وفاة والده في عام ١٨٦٠ ، لبث لبضع سنوات اخرى مـــن الزمن مجرد مستخدم بسيط . وفي عام ١٨٦٤ صار شريكا في الاعمال وواحدا من مدراء المعمل . وعلى مدى ذلك الزمن كلـــه حاول جهده أن يعتق نفسه من «المهنة الخسيسة» . لكنه كـان يفكر فيمستقبله، وعلى الاخص في مستقبل ماركس. وبحوزتنا،

من هذا المنظور ، بضع رسائل مثيرة جدا للاهتمام كتبها الى ماركس في ١٨٦٨ وابلغه فيها انه يجري مفاوضات لترك المعمل، لكنه يريد ان يفعل ذلك بشروط تضمن معيشته ومعيشة صديقه. ونجح اخيرا في التفاهم مع شريكه ، وفي ١٨٦٩ ترك معمله بشروط تسمح له بتأمين مستقبل ماركس ايضا ، وقد انعتق هذا الاخير بالفعل منذ ذلك اليوم من ربقة البؤس الذي كان يتخبط في براثنه . بيد ان انجلز لم يتمكن من القدوم الى لندن والاستقرار فيها الا في ايلول ١٨٧٠ .

لم يكن قدوم انجلز بالنسبة الى ماركس مصدر فرح شخصي فحسب ، بل كان ايضا تخفيفا كبيرا لاعباء العمل الضخم الذي كان يؤديه لحساب **المجلس العام** . وبالفعل ، كان ماركس يتعامل مع عدد لا يحصى من ممثلي أمم شتى ، وكان عليه ان يتصل بهم شفهيا وخطيا . والحال ان انجلز ، الذي كان منذ حداثته موهوبا جدا فيما يتعلق بإتقان اللغات الاجنبية ، كان ينطق او يثغثغ ، كما كان يقول اصدقاؤه على سبيل المزاح ، بزهاء اثنتي عشرة لغة . كان اذن مساعدا لا يقدر بثمن في التراسل مع الاقطار الاجنبية ، وكانت ممارسته التجارية الطويلة الامد قد علمته كيف ينظم العمل ، وهذا ما كان ينقص ماركس .

ما ان غدا انجلز عضوا في **المجلس العام** حتى انكب على مهمته تلك . بيد انه قام ايضا بقسم آخر من العمل ليخلص منه ماركس الذي كانت صحته قد تردت بفعل شظف العيش والعمل المرهق . وصار انجلز للحال ، وهو الرجل العزوم الذي كان يهفو قلبه منذ زمن طويل الى مثل ذلك النوع من النشاط ، واحدا من انشط اعضاء **المجلس العام** كما تشهد على ذلك محاضر ضبط الجلسات .

بيد ان مشاركة انجلز في **المجلس العام** انطوت بدورها على جانب سلبي . فحين قدم انجلز الى لندن للاقامة فيها ، كان الشيوعيون يخوضون غمار الحرب ضد الباكونيين ، وقد

انعكس اثر ذلك الصراع على **المجلس العام** . وناهيك عن ذلك ، كانت تقوم بين الانكليز ، كما سبق ان رأينا ، خلافات عميقة في وجهات النظر بصدد المسائل المبدئية والتكتيكية .

وكما تعلمون من مثال منظمة موسكو ومن مثال أحياء شتى من العاصمة ، غالبا ما تتعقد الاختلافات السياسية وتتفاقم حدتها بفعل الطبع الشخصي للمتخاصمين . وقد يحدث ايضا ان ينحاز أعضاء هذه المنظمة او تلك الى هذه المجموعة او تلك والى هذا البرنامج او ذاك لا لاسباب مبدئية في المقام الاول وانما بالاحرى لاسباب تمت بصلة الى التعلق الشخصي بالقادة او بالمناضلين النافذي الكلمة في هذه المجموعة او تلك . وكثيرا ما نرى رفاقا ، يخنق لديهم صوت العاطفة صوت العقل ، يعكسون تعاطفهم مع شخص من الاشخاص او نفورهم منه على المذهب وعلى المبادىء التي يشهر لواءها ذلك الشخص . ومهما يكن من أمر ، لا يمكن للخلافات الشخصية الا ان تعقد الصراع المبدئي .

حين تنشب أشباه تلك الاختلافات في الآراء في حي من أحياء المدينة ، قد يكون في المستطاع احيانا تدارك الامر بنقل المناضلين الى أحياء اخرى ، ولو بصورة مؤقتة . لكن هذه الوسيلة ، الصالحة في حي او في منطقة او حتى في بلد ، غير صالحة للتطبيق على نطاق **الاممية** كلها . وبصورة عامة ، ليس لوسائل تذليل المصاعب من أشباه نقل المناضلين من مكان الى آخر الا قيمة محدودة . والافضل من ذلك بما لا يقاس القضاء على تلك الخلافات بسرعة ، اما عن طريق اتفاق وإما عن طريق الانقسام .

سبق ان حدثتكم عن الاسباب الموضوعية التي تسببت في بروز اختلافات في الآراء ووجهات النظر في القسم الانكليزي من **الاممية** . وما لا يفهمه او ما لا يريد ان يفهمه بعض مؤرخي **الاممية** ، وبخاصة مؤرخو الحركة العمالية الانكليزية ، هو ان

المجلس العام ، الذي قاد الحركة العمالية الاممية من ١٨٦٤ الى ١٨٧٣ ، كان في الوقت نفسه المركز القائد للحركة العمالية الانكليزية . ولئن كانت الشؤون الاممية تؤثر على الشؤون الانكليزية ، فان كل تغير في الحركة العمالية الانكليزية كان من المحتم ان يكون له انعكاس على الوظائف الاممية **للمجلس العام** . سبقت لي الاشارة في المرة الاخيرة الى ان التنازلات التي حصل عليها العمال الانكليز بين ١٨٦٧ و١٨٧١ (حق الانتخاب لعمال المدن والاشهار القانوني للتريديونيونات) قد عززت التيار المساوم في صفوف التريديونيونيين الذين يحتلون مقاعدهم في **المجلس العام** . كان ايكاريوس نفسه يميل الى جانب دعاة المصالحة ؛ ولقد كان بالفعل رجلا ميسورا في ذلك الزمن ، وكما يحدث غالبا في أشباه هذه الحالات راح يبدي المزيد من التسامح تجاه البورجوازية . وقد وقف بجانبه عدد من اعضاء **المجلس العام** الذين ما لبثوا فيما بعد ان انفصلوا عن ماركس .

وتجدر الملاحظة ان العلاقات الشخصية التي زادت من تفاقم تلك الاختلافات في وجهات النظر المبدئية تجد تفسيرها في مشاركة انجلز في **المجلس العام** حيث راح ينوب منـاب ماركس في حالات عديدة .

كانت قد تصرمت زهاء عشرين سنة منذ ان رحل انجلز الى مانشستر ، وانفصل بالتالي عن الحركة العمالية . **وطوال تلك** الحقبة مكث ماركس في لندن . وقد وطد صلاته بالميثاقيين ، وكتب في صحفهم ، وتردد على النوادي العمالية الالمانية ، وشارك في حياة المهاجرين . كان يلقي محاضرات ، ويقابل الرفاق بانتظام ، وكثيرا ما كان يتخاصم واياهم ، لكن العلاقات مع «بابا» ماركس كانت على الدوام ودية وأخوية ، مترعة بمحبة كبيرة ، كما يتبين من ذكريات اولئك الذين افترقوا عنه فيما بعد سياسيا . وقد قامت صلات ودية للغاية بين العمال وماركس في عهد **الاممية**. وكان اعضاء **المجلس العام** الذين يعرفون ماركس

ويعاينون عوزه وبؤس مسكنه ويشهدون نشاطه في **المجلس العام** ويدركون مدى استعداده لهجر مشاغله كافة ومؤلفه العلمي كي يهب وقته كله وقواه جميعها للطبقة العاملة ، يجلونه عميق الإجلال . وكان ماركس يعمل بداب لا يعرف الكلل ، بلا اي تعويض مادي ، مترفعا عن كل امتياز ، متأبيا عن كل لقب شرف.

وغير ذلك كان حال انجلز الذي ما كان معظم اعضاء **المجلس العام** على معرفة به البتة . كان الالمان وحدهم يتذكرونه ، لكن كان على انجلز مع ذلك ان يكسب ثقتهم . أما في أنظار الآخرين فكان رجلا ثريا ، صاحب معمل من مانشستر كتب قبل ٢٥ عاما كتابا جيدا بالالمانية عن العمال الانكليز . وكان انجلز بمعاشرته على مدى حوالي عشرين عاما المجتمع البورجوازي وكبار رجال المال والصناعة قد اكتسب ـ فضلا عن انه كان بطبعه لبقا وكريم الشمائل ـ المزيد من النعومة والظرف في السلوك . كان على الدوام متأنقا في لباسه ، معتدلا ، متحفظا ، مهذبا ، مشيته قريبة بعض الشيء من المشية العسكرية ، لا يسمح لنفسه ابدا بالتطرف الكلامي ، فكان يوحي وكأنه رجل جاف القلب ، بارده .

بهذا الوصف يصفه اولئك الذين عرفوه شخصيا بعد عام ١٨٤٠ . ففي اثناء العمل في تحرير **الصحيفة الراينية الجديدة**، وفي الاوقات التي يكون فيها ماركس غائبا ، كان كثيرا ما ينشب النقار والخصام بينه وبين رفاقه الذين كان يشعرهم احيانا بتفوقه الفكري اكثر مما ينبغي . ولئن كان أقل نزقا من ماركس، فقد كان ايضا أقل تساهلا وتسامحا منه في العلاقات الشخصية ، مما جعله يخسر ود العديد من العمال ، وذلك بخلاف وولف وماركس اللذين كانا معلمين ورفيقين يضرب بهما المثل .

لم يتمكن انجلز من التكيف مع وضعه الجديد والتخلص من عاداته القديمة الا تدريجيا . بيد ان طباعه وشخصيته ساهمت

مساهمة مرموقة ، اثناء تلك السنوات الصعبة التي كان عليه فيها ان ينوب غالبا مناب ماركس ، في تأجيج أوار الاختلافات المؤقتة، وبخاصة في **المجلس العام** . وعلى هذا المنوال بادر لا ايكاريوس وحده بل العديد ايضا من معاوني ماركس القدامى من أمثال يونغ الذي شغل لحقبة مديدة من الزمن منصب امين السر العام **للاممية** والذي كان يرتبط بصلة شخصية وثيقة بماركس وكثيرا ما ساعده عن طواعية وبلباقة لا مستزاد عليهما في اداء مهمته الشاقة ، بادروا الى الانسحاب رويدا رويدا من **المجلس العام** .

طبيعي ان الشائعات والنمائم المعتادة كانت تفعل فعلها . كان كثيرون ممن لا يعرفون انجلز يتساءلون لماذا يحبه ماركس كل ذلك الحب ويكيل له الثناء والمديح . ينبغي ان نقرأ ذكريات هندمان ، مؤسس الاشتراكية ـ الديموقراطية الانكليزية ، حتى نتبين حطة تفسيراتهم . ففي رأيهم ان ما كان يشد ماركس برباط الصداقة الحميمة الى انجلز هو ان هذا الاخير كان ثريا وأنه كان يعيله . وقد جاوز مسلك بعض الانكليز كل حد في الخسة ، وأخص بالذكر منهم شخصا يدعى سميث شارك فيما بعد كمترجم في **الاممية الثانية** ولفت اليه الانظار اثناء الحرب ، مثله مثل هندمان ، بوطنيته المسعورة . ولم يغفر انجلز قط ، لا له ولا للآخرين ، حملة افترائهم تلك على ماركس ؛ وكما يروي فاندرفيلد ، طرد من منزله قبيل وفاته سميث الذي كان قد قدم لرؤيته .

على ان تلك الشائعات والنمائم كان يروج لها بنشاط في عام ١٨٧٢ في اوساط العمال الالمان من ذوي الاتجاه اللاسالي الذين قدموا للاقامة في لندن ، وبخاصة الثوريين الشبان الذين لاذوا بالفرار بعد سحق **العامية** وما كانوا يعرفون شيئا عن تاريخ الحركة . وكان **المجلس العام** يقدم مساعدة مادية للمهاجرين ، ومع ان ماركس وانجلز بذلا كل ما بمستطاعهما لتنظيم عملية

نجدة **العاميين** ، ما كان الرضى يساور هؤلاء الاخيرين قط ، وكانوا على الدوام يشكون وينتقدون .

بيد ان مشاركة انجلز في **المجلس العام** لم تزد الانقسام تفاقما في لندن وحدها . فقد كان باكونين وأتباعه ، كما تذكرون ، ينشطون بصورة رئيسية في روسيا والبلدان اللاتينية : في ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا والبرتغال وفي سويسرا الرومانديه والايطالية . وكان باكونين يقيم لايطاليا اعتبارا خاصا ، لان العنصر السائد فيها كان البروليتاريا الرثة التي كان يرى فيها القوة الثورية الرئيسية ، ولانه كان يوجد فيها العديد من الشبان المخلوعين طبقيا الذين لا قدرة لهم البتة على شق طريقهم في المجتمع البورجوازي ، ولأن اللصوصية وقطع الطريق كانا الشكل الرئيسي الذي يتجلى به احتجاج الفلاحين الفقراء . وبمختصر الكلام ، كانت ايطاليا تضم عددا مرتفعا للغاية من تلك العناصر ، من الفلاحين الجائعين والمتشردين واللصوص الذين كان باكونين يعلق عليهم اهمية كبرى في روسيا .

والحال ان انجلز هو الذي كان يتولى التراسل مع تلك الاقطار ، وكما نستطيع ان نتبين من بعض المسودات التي بقيت لنا ، كان يكافح الباكونينيين بلا هوادة .

ان الكراسة الشهيرة عن **تحالف** باكونين ، والتي كانت بمثابة تقرير رفع الى لجنة مؤتمر لاهاي وتضمن فضحا لسياسة الباكونينيين وتنديدا بها ، قد كتبها انجلز ولافارغ الذي كان قد لاذ بالفرار ، بعد هزيمة **العامية** ، الى اسبانيا وخاض غمار مجادلة عنيفة مع انصار باكونين الاسبان . ولم يعاون ماركس الا في تحرير الفصل الاخير ، لكنه كان متضامنا من وجهة **النظر** السياسية مع مجمل ذلك البيان الاتهامي الموجه ضد الباكونينية.

بعد ١٨٧٣ هجر ماركس الحلبة العامة . ففي ابان ذلك العام

أنجز الطبعة الثانية للمجلد الاول من **الرأسمال** وحرر الترجمة الفرنسية التي صدرت طبعتها الاخيرة في ١٨٧٥ . وكان ذلك ، مع التذييل الجديد للكتيب القديم عن **رابطة الشيوعيين** ومقال قصير برسم الرفاق الايطاليين ، هو كل ما نشره ماركس حتى عام ١٨٨٠ . وبقدر ما كانت تسمح له صحته المتداعية ، كان يوالي العمل في مؤلفه الرئيسي الذي كان أنجز مسودته الاولى في حوالي العام ١٨٦٤ . لكن لم يتح له الوقت حتى لتحضير المجلد الثاني الذي كان يعمل فيه آنئذ تحضيرا نهائيا للطبع . ونحن نعلم الان ان المخطوط الاخير الذي نشر من ذلك المجلد قد كتب في عام ١٨٧٨ . وكان ماركس ، المرهق غاية الارهاق ، مهددا بالسكتة الدماغية فيما اذا حاول بذل اي مجهود فكري مضنك . وإبان تلك السنوات كان انجلز وأسرته يتوجسون خيفة باستمرار من نهاية فجائية له . كان جسم ماركس القوي، الذي مكنه آنفا من القيام بعمل خارق لطاقة الانسان ، قد حل به وهن شديد ، وصار لا يتحمل ما كان يتحمله في سنوات البؤس المادي من التقلبات الجسمانية والمعنوية . ولم تعد ذات جدوى رعاية انجلز المؤثرة له ، ومحاولته بكل ما أوتي من طاقة شد أزر صديقه القديم من الناحية الجسمانية . كان ماركس يعمل في مسودة مؤلفه الكبير ، وكان يعاود الانكباب عليها بمجرد ان تسمح له قواه بذلك ويبتعد خطر الموت المباشر ويأذن له الاطباء بالعمل لبضع ساعات في اليوم . وكان يعذبه ويقض مضجعه الشعور بأنه لم يعد قادرا على اداء مهمته على نحو ما كان يرجو . قال : «العجز عن العمل هوحكم بالموت بالنسبة الى كل انسان لا يريد ان يكون بهيمة» . وبعد ١٨٧٨ اضطر الى التوقف عن كل عمل في **الرأسمال** ، لكنه لبث متمسكا بحبال الامل في العودة الى مزاولة نشاطه بمجرد ان تعود له عافيته . ولم يتحقق هذا الرجاء . كان ماركس ما يزال قادرا على الكتابة ؛ فكان يواصل تدوين الملاحظات ، ويتابع بانتباه تطور الحركة

العمالية الاممية ، ويشارك فيها فكريا مشاركة نشطة ، فيرد على العديد من الطلبات والاسئلة التي كانت ترده من أقطار شتى . ولائحة العناوين التي سجلها في كتاب خاص بلغت حجما هائلا بعد عام ١٨٨٠ بوجه خاص . وكان يطلع مع انجلز ، الذي صار يقوم بجل العمل ، على مجرى الحركة العمالية التي كانت قيد التطور السريع والتي كانت قد بدأت تنتصر في صفوفها افكار **البيان الشيوعي** . وهذا بفضل انجلز الـــذي بذل بين ١٨٧٠ و١٨٨٠ ، جهدا جبارا .

ان الكلام عن صراع الماركسيين والباكونينيين في **الاممية الاولى** أمر لا يخلو من غلو ومبالغة . فقد كان الباكونينيون في الواقع كثيري التعداد ، لكن صفوفهم كانت مؤلفـــة من عناصر متنافرة لا يجمع بينها سوى نضالها ضد **المجلس العام** . وكـان الوضع اكثر سوءاً بكثير في اوساط الماركسيين . ولم يكن مـع ماركس وانجلز الا حفنة من الرجال تعرف **البيان الشيوعي** حق المعرفة وتفهم تمام الفهم المذهب الماركسي. ولم يؤد نشر المجلدات الاولى من **الرأسمال** الى زيادة عدد هؤلاء كثيرا . فقد كان هذا المؤلف بالنسبة الى الغالبية الساحقة من الشيوعيين أشبه مـا يكون بكتلة من الصوان ينكفئون عليها بحمية... ولكن بلا نتيجة. وحسبنا ان نقرأ كتابات الاشتراكيين ــ الديموقراطيين فـــي الاعوام ١٨٧٢ ــ ١٨٧٥ ، بل حتى كراســـات ف. ليبكنخت ، تلميذ ماركس المباشر ، كي ندرك مدى وهن تطور الدراسة النظرية للماركسية . وغالبا ما كانت الصحيفة المركزية للحزب الالمانـي تمتلىء بخليط غريب من الانظمة الاشتراكية الاكثر اختلافـــا وتباينا . اما منهج ماركس وانجلز والتصور المادي للتاريـــخ ومذهب الصراع الطبقي ، فقد بقي ذلك كله امرا مغلقا عويص الفهم على معظم الشيوعيين ، وكان ليبكنخت نفسه يحيد عـــن صراط الفلسفة الماركسية الى درجة الخلط بين ماديـة ماركس

وانجلز الجدلية وبين مادية موليشوت وبوخنر البيولوجية .

اخذ انجلز على عاتقه عندئذ ان يدافع عن افكار الماركسية وأن ينشرها ، بينما راح ماركس يحاول جاهدا ، ولكن بـــلا جدوى كما رأينا ، ان ينجز **الرأسمال** . وكان انجلز يتناول مقالا ما استوقف انتباهه او حدثا راهنا كي يبين الفارق العميق بين الاشتراكية الدولانية (١) والانظمة الاشتراكية الاخرى ، او كـي يسلط الضوء على مسألة عملية ما من وجهة نظر الاشتراكيـــة العلمية ويبين طريقة تطبيق منهج هذه الاخيرة عليها .

من ذلك انه حين نشر البرودوني الالماني موهلبرجر فـــي الصحيفة المركزية للاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية مقالات عن مسألة السكن ، انتهز انجلز السانحة ليظهر للعيان الهوة التي تفصل الماركسية عن البرودونية ، متمما بذلـــك كتاب ماركس **بؤس الفلسفة** ، وليسلط الضوء على واحد من اهم العوامـــل المحددة لوضع الطبقة العاملة .

وقد أعاد طبع كتابه القديم عن **حرب الفلاحين في المانيا** مع مقدمة جديدة كي يعطي الشيوعيين الشبان مثالا على تطبيـــق التصور المادي للتاريخ على واحدة من اهم مراحل تاريخ المانيا والطبقة الفلاحية الالمانية .

حين انطرحت في الرايخستاغ مسألة العـلاوات التي اراد الملاك العقاريون البروسيون الكبار عن طريقها ان يضمنوا لانفسهم حق مواصلة تصريف مشروباتهم الروحية وبيعها للشعب ، ازاح انجلز النقاب في كراسة بعنوان **المشروب الروحي البروسي في الرايخستاغ الالماني** عن جشع اليونكر واغتنم الفرصة كي يسلط الضوء على الدور التاريخي للملكية العقارية الكبيرة واليونكـــر البروسيين . وقد اتاحت اعمال انجلز تلك جميعا ، مع مقالات

---

١ ـ نسبة الى الدولة . «م»

اخرى عن التاريخ الالماني ، لكاوتسكي ومهرينغ امكانية تبسيط افكار انجلز الاساسية وتطويرها في كتاباتهما عن التاريخ الالماني.

لكن اعظم لقب شرف ومجد لانجلز يتمثل في كتاباته في عامي ١٨٧٦ – ١٨٧٧ . ففي عام ١٨٧٥ اتحد اللاساليون والآيزناخيون على اساس برنامج غوتا الذي كان بمثابة تسوية رديئة بين الماركسية وبين ذلك التحريف للماركسية الذي يحمل اسم اللاسالية . وقد احتج ماركس وانجلز بشدة على ذلك البرنامج ، لا لانهما كانا ضد الاتحاد او لانهما ارادا بأي ثمن تعديل البرنامج طبقا لتوجيهاتهما . وانما ارتأيا عن صواب انه اذا كان الاتحاد ضروريا ، فلا حاجة البتة الى تبني برنامج رديء كأساس نظري لذلك الاتحاد ؛ وقدرا انه من الافضل الانتظار والاكتفاء بوثيقة اساسية عامة لتصريف الشؤون العملية اليومية . وكان يشاطرهما وجهات نظرهما كل من بيبل وبراك ، ولكن ليس ليبكنخت .

بعد بضعة اشهر امكن لماركس وانجلز ان يقتنعا بأن الفئتين المتحدتين لا تختلفان في المستوى من منظور الاعداد النظري . فقد طفق مذهب الفيلسوف والاقتصادي الالماني أ. دهرينغ يكتسب شعبية واسعة في الحزب في أوساط الاعضاء الشبان والمثقفين وكذلك العمال . وقد كان دهرينغ لحين من الزمن استاذا مساعدا في جامعة برلين ، وقد احاط نفسه بهالة من المجد والتعاطف العام بفضل شخصيته وجرأة آرائه على حد سواء . وكان يلقي ، وهو الضرير ، محاضرات في تاريخ الميكانيكا والاقتصاد السياسي والفلسفة . وكان تنوع معارفه مثارا للدهشة ، اذ كان من المعلوم انه بحاجة الى من يقرأ له الكتب اللازمة له وانه كان يملي مؤلفاته . كان على جميع الاحوال رجلا نابغة . وحين شرع بحملة نقد عنيفة للمذاهب الاشتراكية القديمة ، وبخاصة مذاهب ماركس ، لقيت محاضراته صدى

واسعا وتركت أثرا ووقعا . وخيل للطلبة والعمال الالمان ، وكذلك للمعجبين الروس بدهرينغ ، انهم يسمعون للمرة الاولى «صوت الحياة في مضمار الفكر» . وكان دهرينغ ينوه بأهمية النشاط والكفاح والصراع والاحتجاج ، ويعارض العامل الاقتصادي بالعامل السياسي ، ويلح على اهمية القوة والعنف في التاريخ . وما كان في مناظرته يتحرج ، فكان يهاجم بقدر سواء من العنف ماركس ولاسال ، ولا يتردد في محاجّته في التذكير بأن ماركس يهودي .

تردد انجلز مليا قبل ان يرد على دهرينغ . وفي النهاية صدع لإلحاف اصدقائه الالمان ونشر في١٨٧٧ في صحيفة الحزب المركزية ، «فورفاتس» ، سلسلة من المقالات أعمل فيها معول الهدم في نظريات دهرينغ . بيد ان تلك المقالات اثارت استنكار العديد من رفاقه الحزبيين . فقد كان يتزعم أنصار دهرينغ يومئذ برنشتاين ، منظّر التحريفية المقبل ، وموست ، الزعيم المقبل ايضا للفوضويين الالمان . وفي مؤتمر الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية هاجم عدد من المندوبين ، وفي عدادهم اللاسالي القديم فالتش ، انجلز بعنف . بل كاد المؤتمر أن يتخذ قرارا بحظر مواصلة نشر مقالات انجلز في الصحيفة المركزية للحزب الذي كان يعتبر ماركس ولاسال معلميه .

وكادت القضية ان تنقلب الى فضيحة لو لم يتقدم في نهاية الامر احد الموفقين باقتراح يدعو الى مواصلة نشر مقالات انجلز، لا في الصحيفة المركزية نفسها ، وانما في ملحق خاص . وتم اقرار الاقتراح .

جمعت تلك المقالات فيما بعد في مجلد ، وصدرت في ١٨٧٨ في طبعة خاصة . وقد ترك ذلك الكتاب : **الثورة التي قام بها دهرينغ في العلم** او كما نسميه عادة **الآنتي ـ دهرينغ** ، ذكرا دائما في تاريخ الماركسية . فعن طريق ذلك الكتاب عرف الجيل الطالع الذي شرع بالنضال في فترة ١٨٧٦ ـ ١٨٨٠ ما كانته

الاشتراكية العلمية ، وما كانته مبادئها الفلسفيـــة ومنهجها . و«**الآنتي ــ دهرينغ**» خير مدخل الى «**الرأسمال**» . حسبنا ان نقرأ المقالات التي كتبها يومذاك الماركسيون المزعومون حتى نرى غرابة النتائج التي كانوا يستخلصونها من **الرأسمال** الذي كانوا يؤولونه خبط عشواء . ولا محيص لنا من الاقرار بأن ما من كتاب بعد **الرأسمال** فعل ما فعله **الآنتي ــ دهرينغ** فيما يتعلـــق بنشر الماركسية كمنهج وكنظام قائم بذاته . وعلى يدي ذلـــك الكتاب تثقف جميع الماركسيين الشبان ، برنشتاين وكاوتسكـي وبليخانوف ، الذين ابتدؤوا نشاطهم في ١٨٨٠ ــ ١٨٨٥ .

بيد ان **الآنتي ــ دهرينغ** لم يؤثر على قادة الحزب وحدهم . ففي ١٨٨٠ اختار انجلز ، بناء على طلب الماركسيين الفرنسيين، بعض الفصول من الكتاب ، وبعد ترجمتها الى الفرنسية عرفت انتشارا واسعا يضاهي انتشار **البيان الشيوعي** . وقد صدرت تلك الفصول مجتمعـــة تحت عنوان **الاشتراكية الطوباويـــة والاشتراكية العلمية** . وقد ترجـــم ذلك الكتاب للحال الـــى البولونية ، وبعد عام ونصف عام من نشره في طبعة خاصـــة بالالمانية صدر ايضا باللغة الروسية . وقد أنجز انجلز جميـــع تلك الاعمال فيما كان ماركس لا يزال على قيد الحياة ، وكـــان هذا الاخير يساهم فيها احيانا لا بالنصائح فحسب ، وانمـــا مساهمة مباشرة ، كما فعل على سبيل المثال في **الآنتي ــ دهرينغ** اذ حرر منه فصلا بكامله .

بعيد عام ١٨٨٠ حدث انعطاف في الحركة العمالية الاوروبية. فبفضل انجلز ونشاطه الذي لا يعرف الكلل وبراعته كمبسط ، راحت الافكار الماركسية تنتشر باطراد في صفوف الحركـــة العمالية . ففي المانيا ، حيث سرى على الحـــزب الاشتراكي ــ الديموقراطي في عام ١٨٧٦ مفعول القانون المناهض للاشتراكيين، تمكن التيار الماركسي ، بعد توقف قصير ، من التغلب اكثر فأكثر

على التيارات الاخرى . وكما يتضح لنا من ذكريات بيبل ، لعب مناضلو لندن القدامى دورا كبيرا في ذلك الانعطاف : فقد هددوا بالاحتجاج علنا وجهارا اذا لم يوضع حد لما سموه بـ «الفضيحة»، واذا لم يشن نضال لا هوادة فيه ضد كل محاولة للاتفاق مع البورجوازية .

وفي فرنسا تنظم في مؤتمر مرسيليا في عام ١٨٧٩ حزب عمالي جديد على اساس برنامج اشتراكي . وضم ذلك الحزب مجموعة من الماركسيين الشبان كان على رأسها باكونيني سابق هو جول غيد . وفي ١٨٨٠ تقرر وضع برنامج جديد . وتوجه غيد ورفاقه لهذا الغرض الى لندن قاصدين ماركس الذي شارك مشاركة نشطة في وضع ذلك البرنامج . ولما لم يوافق ماركس في القسم العملي من البرنامج على بعض النقاط التي كان الفرنسيون يصرون عليها لاهميتها للتحريض المحلي ، اخذ على عاتقه القسم المبدئي فصاغه برمته . وقد دلل من جديد على عمق معرفته ، رغما عن مزاعم مهرينغ، بخصائص فرنسا وتفهمه لها ، فجاءت صياغته متضمنة بصورة منطقية لمبادىء الشيوعية الاساسية ، وفي متناول كل فرنسي في الوقت نفسه . وصار البرنامج الفرنسي نموذجا يحتذى بالنسبة الى جميع البرامج التي تلته : البرنامج الروسي ، البرنامج النمسوي ، وبرنامج إرفورت ، ووضع غيد ولافارغ في وقت لاحق شرحا لذلك البرنامج ، وما لبث ذلك الشرح أن ترجم الى الالمانية على يد برنشتاين ، ثم الى الروسية على يد بليخانوف تحت عنوان **ما يريده الاشتراكيون ـ الديموقراطيون** . وعلى ذلك المؤلف تثقف الماركسيون الروس الاوائل . فكان بالنسبة اليهم ، مع كراسة انجلز ، مدخلا الى دراسة البرنامج ووجيزا ممتازا للتعليم في الحلقات العمالية .

وضع ماركس للفرنسيين استمارة اسئلة مفصلة لاستخدامها في استقصاء عن وضع الطبقة العاملة . وقد صدرت تلك

الاستمارة بلا توقيع ماركس . وبينماكان الاستقصاء الذي وضع خطوطه العريضة في المذكرة ـ التقرير الى مؤتمر جنيف في ١٨٦٦ لا يحتوي على اكثر من خمسة عشر سؤالا ، ضم الاستقصاء الجديد مئة سؤال ونيفا . وقد استدرك فيه أدق تفاصيل الحياة العمالية . وكان بالنسبة الى ذلك الزمان استقصاء ممتازا لا يمكن ان يضعه الا خبير بالمسألة العمالية نظير ماركس . وقد قدم دليلا جديدا على ان ماركس يملك المقدرة على تفهم الشروط العينية ، وأنه يتسم ، بالرغم من كل الاتهامات التي صوّرته مولعا بالتجريد ، بحس عميق بالواقع . فان يعرف الانسان كيف يحلل الواقع ، وأن يعرف كيف يستنبط منه استنتاجات عامة ، لا يعني بالضرورة الانفصال عنه والتحليق فوق ذرى التجريد . ومن سوء الحظ ان تلك الاستمارة المنشورة باللغة الفرنسية لم تترجم للحال الا الى البولونية . أما بالروسية فلم يقيض لها النشر ، بناء على اقتراحي ، الا في السنة الماضية في واحدة من جرائد النقابات .

كان انجلز وعلى الاخص ماركس يتتبعان بانتباه الحركة الثورية الروسية . وقد انكب كلاهما على دراسة اللغة الروسية. ولم ينصرف ماركس الى تلك الدراسة الا في زمن متأخر ، ولكنه فعل ذلك بحماسة بالغة ، فبات في أجل قصير قادرا على ان يقرأ لا دوبروليوبوف وتشيرنيشفسكي فحسب ، بل كذلك سالتيكوف وستشدرين ، وهما من الكتاب الذين تشق مطالعتهما كثيرا على الاجانب . وتوصل الى قراءة الترجمة الروسية لـ **الرأسمال** . وخلافا لما يؤكده مهرينغ ، ما ونت شعبية ماركس عن التعاظم في روسيا بعد مؤتمر لاهاي . وكان ماركس يحظى في روسيا ، بصفته ناقدا للاقتصاد السياسي البورجوازي ، بنفوذ كبير لا يحظى بمثله في اي بلد آخر ، ولا حتى في المانيا ، وقد ترك تأثيرا عميقا في عدد من الكتاب الروس ممن حدد لهم

وجهة اعمالهم . وتتردد أصداء تأثير ماركس بصورة مباشرة او غير مباشرة في مؤلفات اقتصاديين روس من أشباه سيبر ويانجول وكابلوكوف وكوفمان ، ومؤرخين روس من أمثال كوفالفسكي ولوتشيتسكي . أما مؤلفات ماركس الاخرى ، عدا **الرأسمال** ، فلم تكن معروفة كثيرا . كذلك كان معظم الروس يجهلون جهلا مطبقا فلسفة ماركس والتصور المادي للتاريخ ، او لم تكن لهم عنهما الا فكرة مبهمة للغاية .

صحيح انه كان بحكم المعروف منذ عهد بعيد ان ماركس يعزو اهمية راجحة الى العلاقات الاقتصادية . فكما أوضحت في عام ١٩٠١ ، ترجم تكاتشوف ، الناقد المعروف الذي مثل في قفص الاتهام في محاكمة نتشائيف، الى الروسية في عام ١٨٦٥ المقدمة المشهورة لـ **نقد الاقتصاد السياسي** ، تلك المقدمة التي عرض فيها ماركس بإيجاز التصور المادي للتاريخ . لكن في الوقت الذي كان فيه تكاتشوف ، ومن بعده سيبر ونيقولاي ، يقر بالاهمية الفاصلة للشروط الاقتصادية ، كان على جهل مطبق بالعلاقة القائمة بين التصور الاقتصادي للتاريخ ومذهب الصراع الطبقي.

بعد ١٨٧٠ أثر ماركس وانجلز تأثيرا مباشرا على لافروف الذي كان يصدر في لندن مجلة **الى الامام** . وكان أتباع لافروف في روسيا ، نظير الاشتراكيين ـ الديموقراطيين عصرئذ ، يكنون إجلالا عميقا لماركس ، لكنهم كانوا يمزجون الماركسية بضروب شتى من المذاهب المثالية . ولم يكن ماركس أقل نفوذا في اوساط الباكونينيين الروس الذين كانوا قد عزفوا عن طرائق نتشائيف وكيفوا تعاليم باكونين مع الشروط الروسية **محولين** اياها الى ضرب من الشعبوية الثورية .

كان ماركس وانجلز في حوالي العام ١٨٧٨ يكنان اعظم التقدير لحركة **نارودنايا فوليا** . كانا يعتبران روسيا القيصرية المعقل الرئيسي للثورة المضادة العالمية ، فكانا يريان في النضال البطولي لاعضاء **نارودنايا فوليا** حركة ثورية قوية موجهة ضد

القيصرية . وكانت **نارودنايا فوليا** تعتبر ماركس واحدا من اعظم معلمي الاشتراكية ، واقرت له بذلك على رؤوس الاشهاد في خطاب خاص وجهته اليه ، وهو ينطوي بذاته على فائدة جلى .

خلف لنا ماركس جملة من المخطوطات والرسائل التي تظهر مدى اهتمامه بدراسة الادب والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الروسية . بل كان اقاربه والمقربون اليه يحتجون على ما كان يبديه معارفه الروس من أمثال نيقولاي (دانيلسون) من حمية لا تخلو من اسراف وشطط في ارسال مواد احصائية شتى اليه. كانوا يرون بأم أعينهم تردي حالته الصحية ، فكانوا يخشون ان يؤدي إقباله المجاوز الحد على المطالعة لتحضير **الرأسمال** الى إلحاق أذى عضال بجسمه الذي كان ينوء اصلا تحت وطأة الارهاق . ويتجلى لنا ما كان يبديه ماركس من عناية وحمية في دراسة أوضاع روسيا لا في الملاحظات التي كان يدونها في دفاتره فحسب ، بل ايضا في رسائله الى نيقولاي التي تحتوي على تأملات مثيرة للاهتمام للغاية بصدد روسيا . وقد اتاحت له دراسة جدية للمعطيات المتعلقة بحالة الزراعة ان يحدد لا الاسباب الرئيسية لرداءة المحاصيل فحسب ، بل ان يصوغ ايضا قانون دوريتها ، وهو قانون قد تأكدت صحته فيما بعد حتى ايامنا هذه في روسيا .

كان ماركس يريد ان يستخلص نتيجة اعماله في المجلد الثالث من **الرأسمال** الذي درس فيه أشكال الملكية العقارية . لكن لم يتح له الوقت لذلك مع الاسف . فحين وجهت اليه فيرا زاسوليتش في ١٨٨١ رسالة تسأله فيها لها ولرفاقها رأيه حول مصير المشاعة القروية الروسية ، انكب على العمل للحال . لست ادري اذا كان كل من زاسوليتش وبليخانوف قد استلما جوابه. أفترض ان لا . وقد أمكنني ان أعثر على المسودة . وهي تظهر للعيان ان مقدرة ماركس على العمل قد ارتجت بقوة . فقد ملأها

ماركس بالشطوب والكلمات المضافة ، وأرجح الظن انه لم يتح له الوقت لانهائها (٣) . وسأنشرها عما قريب .

استطاع ماركس ، بالتعاون مع انجلز ، أن يكتب ايضا مقدمة للطبعة الروسية الجديدة من **البيان الشيوعي** ، تلك الترجمة التي كان يعتقد ان زاسوليتش هي التي قامت بها ، مع انها كانت في الحقيقة من عمل بليخانوف .

لقد نصب التاريخ في الواقع نوعا من المقلب لماركس وباكونين. فما من احد في مجموعة الثوريين التي كانت تتألف منها الشعبة الروسية من **الاممية** التي انتخبت ماركس ممثلا لها في **المجلس العام** صار ماركسيا متماسك المنطق . بل انهم جميعهم ، خلا لوباتين ، هجروا الاحتراف الثوري او صاروا من المرتدين . وعلى العكس من ذلك خرج من صفوف الباكونينيين الروس كل من بليخانوف وزاسوليتش واكسلرود ودويتش ، اي الماركسيون الروس الاوائل الذين لم تكن الماركسية بالنسبة اليهم مجرد مذهب اقتصادي ، وانما جبر الثورة .

كان آخر عام ونصف عام من حياة ماركس رحلة بطيئة نحو الموت . كان ما يزال امام ماركس مشروع عمل ضخم ، وكان ينكفىء عليه كلما سمحت له صحته بذلك . وكان قد رسم ، حين كان في عز قواه ، نموذج الانتاج والتبادل الرأسماليين ومعالمهما وحدد قوانينهما الاساسية . بيد ان القوة خانته فما استطاع ان يصنع من ذلك عملا حيا ، ناجزا ، مكتملا ، شأن المجلد الاول من **الرأسمال** الذي يسلط ساطع الضوء على كل اوالية الانتاج الرأسمالي والصراع الذي تدور رحاه على قاعدته بين الرأسمالي

---

٣ ــ في الواقع ، انجز ماركس تلك الرسالة ، وفي الواقع ايضا انه كتب لها مسودات ثلاثا لا واحدة فقط . راجع «حول نمط الانتاج الآسيوي» و«مراسلات ماركس ــ انجلز» (دار الطليعة) . «م»

والعامل .

فتك المرض فتكا ذريعا بماركس ، ونهك قواه الجسمية تماما؛ فما أمكنه ان يتحمل ضربتين موجعتين للغاية انهالتا عليه على التوالي : موت زوجته وموت ابنته . ولقد كان ماركس ، على الرغم من جلافة طبعه ، ومهما بدا ذلك غريبا ، يحب أسرته حبا جما ، وكان وديعا للغاية في حياته الخاصة ؛ وكان من هذا المنظور يشبه غاية الشبه تشيرنيشفسكي . وحين نقرأ رسائله الى كبرى بناته ، التي تألم منتهى الالم لفقدها حتى بات اصحابه يتوقعون ان يفارق الحياة بين يوم وآخر ، نقف مدهوشين امام ما يحمل ذلك الرجل الجلف للغاية في ظاهره من حساسية وحنان لا غور له بين جنباته .

سأبيح لنفسي الان استطرادا بسيطا . فحين أقيم اثناء المؤتمر التاسع للحزب حفل على شرف لينين ، أرغمني المؤتمرون على القاء كلمة . وقد فعلوا ذلك ، متأملين في أرجح الظن انني لن أغدق على لينين الا عاطر الثناء . وقد نوهت يومذاك ببعض خصال لينين التي جعلته يبدو غريبا جدا في أنظار رفاقنا الغربيين . رويت في ما رويت دهشة فكتور آدلر حين أبلغته ، اثناء حديثنا عن الوسائل القمينة بانتشال لينين وزينوفييف بأسرع ما يمكن من الوضع المربك الذي كانا عليه في النمسا في بداية الحرب ، أن لينين يعبد أسرته وأن قلبه عامر بالعطف على والدي زوجته . وكان مارتوف قد نشر قبيل ذلك بقليل ، حتى يسيء اساءة قاضية الى سمعة لينين والبلاشفة ، كراسة مقيتة صوّر فيها لينين بصورة زعيم لجماعة من قطاع الطرق والمصادرين الذين لا يتورعون عن شيء ولا يردعهم وازع من ضمير.

وكما أصغى الي فكتور آدلر بدهشة وأنا أتكلم عن لينين ، كذلك يقرأ الان جميع الادعياء بله المستجدين الثوريين بدهشة قصة السنوات الاخيرة من حياة ماركس . تراهم يقولون انه لامر يدعو الى الاسف ان يكرس الثوري شطرا من قواه لشيء آخر غير

الثورة . فعلى الثوري الحقيقي ، طوال حياته ، ولاربع وعشرين ساعة في اليوم ، ان يلزم موقعه وأن يكون حيث يقضي الواجب. من الصباح الى المساء ، ومن المساء الى الصباح ، يكتب او يتخذ قرارات . رجل قدّ من كتلة واحد من الفولاذ الثوري ، مصمت القلب دون اي عاطفة انسانية . يعيش من غير ان يشرب او ان يأكل ، او يكتفي عند الاقتضاء ، مثل يوحنا المعمدان ، بالجراد والعسل البري (وما هذا القوت اصلا بأدنى من قوت الكثيرين من مناضلينا في ١٩١٨ ــ ١٩١٩) . اما يسوع المسيح ، فهو بالاصل أبيقوري . عنه يقول الانجيل انه كان يأكل ويشرب ، وانه لعن شجرة التينة لعقمها . ومع ذلك كان يسوع أشد حزما وأقوى تصميما في ثورته من الرسـول المتزمت بطرس الذي أنكره ، لاسباب سياسية ، ثلاث مرات .

ينبغي الحكم على كل شيء من وجهة النظر الانسانية . فأنتم ايضا ، حين تقرؤون سيرة حياة رجال توقرونهـم وتجلونهم ، يسعدكم ان تعلموا ان من تجلونه انسان كسائر الناس ، لكنه اذكى وأكثر ثقافة وأعظم نفعا لقضية الثورة . وانما فقط فـي المآسي القديمة والتراجيديات التي تدعي الكلاسيكية يصـور الرجال بصورة الابطال : يسيرون فتنهار الجبال ، يضربون الارض بأقدامهم فتنشق وتفغر فاها ، ويأكلون ويشربون كالآلهة .

بهذه الصورة يُصور احيانا ماركس على غرار ما تفعـل عزيزتنا كلارا زتكن التي لا تخلو من جنوح الى المغالاة والتشدق. ومن يصور ماركس بتلك الصورة ينسى جوابه الى اولئك الذين سألوه عن حكمته المأثورة : Homo Sum : Humani Nihil A Me Alienum Puto (٤) . كان ، شأن كل انسان ، يقترف أخطاء .

---

٤ ــ انا انسان ، وما من شيء انساني بغريب عني : بيت للشاعر والمؤلف الهزلي اللاتيني تيرانسيوس (نحو ١٩٠ ــ ١٥٩ ق.م) . «م»

فكان كثيرا ما يبدي اسفه لفرط ثقته بالناس ، على سبيل المثال ، او يعرب عن حزنه لما يقترفه من حيف بحق بعض الاشخاص . وفيما يتعلق بي ، استطيع ايضا ان أغفر له شغفه بالنبيذ ، وهو ابن مقاطعة الموزيل ، لكني لا استطيع ، على ما اكنّ له من حب ، أن أغفر له ولعه بالتبغ . فقد كان يقول بنفسه ، ولو على سبيل المزاح ، ان **الرأسمال** لم يدر عليه حتى ما يسد به ثمن التبغ الذي دخنه في تأليفه . والحال ان عوزه قضى عليه بأن يدخن تبغا رديئا ، مما قصّر ايام حياته وأورثه التهابا رئويا مزمنا عانى بسببه أوجاعا لا تطاق في سنيه الاخيرة .

فارق ماركس الحياة في ١٤ آذار ١٨٨٣ . ولقد اصاب انجلز عين الحقيقة حين كتب يوم وفاته الى رفيقه القديم سورجه :

«ان جميع الظاهرات ، حتى اعظمها هولا ، التي تتم وفق سنن الطبيعة ، لتنطوي على عزاء . وكذلك الحال هذه المرة . ربما كان ما يزال في وسع فن الطب ان يهبه عامين او ثلاثة أعوام اخرى من حياة خاملة ، من حياة عاجزة لانسان يموت ببطء ؛ لكن ما كان لماركس ان يطيق حياة كتلك . فان يبقى على قيد الحياة وأمامه جملة من الاعمال غير المنجزة وأن يتعذب عذاب طنطال (٥) وهو يعاين عجزه عن اتمامها كان أشق عليه بألف مرة من ميتة هادئة . كان من عادته ان يقول مع أبيقور : «ليس الموت رهيبا على من يموت ، وانما على من يبقى على قيد الحياة» . وما كان افظعه من

---

٥ ــ ملك ليديا الاسطوري قضت عليه الآلهة بأن يذوق ، ما عاش ، آلاما لا تطاق عطشا وجوعا ، حتى صار يضرب بعذابه المثل . «م»

مشهد لو كنا سنرى ذلك الرجل العبقري ، القوي ، وقد أمسى طللا متداعيا ، يجرجر أذيال الحيـــاة ليتباهى به الطب ويشمت به الجهلة الادعياء الذين ساطهم بلا رحمة او شفقة يوم كان في عز قواه ، والذين ما كانوا والحالة هذه الا ليهتبلوا الفرصة السانحة كـــي يتخذوا منه هزأة لهم ؛ وانه لافضل بألف مرة ان يكون الامر قد تم على نحو ما تم به ، وأن يكون قد توارى عن الوجود لنواريه بعد غد في الرمس الذي ترقد فيه زوجته .

في رأيي انه لم يكن هناك ، بعد كل ما عاناه ، من منفذ آخر ؛ واني لأعلم ذلك خيرا مما يعلمه النطاسيون جميعا .

ليكن ما كان . فالانسانيـــة خسرت رأسا ، وأي رأس ! خسرت واحدا من اعظم ممثليها عبقرية .

ستتابع حركة البروليتاريا طريقها ، لكن لن يكون على رأسها بعد الان القائد الذي كان يلجأ اليه فـــي الساعات الحرجة الفرنسيون والروس والاميركـــان والالمان ؛ والذي كان يسدي اليهم على الدوام نصائح واضحة وموثوقة ، نصائح لا يمكـــن ان يسديها الا نابغة ورجل مطلع أتم الاطلاع على مجرى المسألة» .

وقعت أعباء عظيمة الاهمية على عاتق انجلز عندئذ . وكان انجلز يحتل بصورة طبيعية وعن طيب خاطر مؤخرة المسرح يوم كان ماركس حيا يرزق ، مع انه كان كاتبا نابها ، وواحدا مـــن خيرة من كتبوا بالالمانية ، وذا اطلاع وتبحر واسع ، واختصاصيا في جملة من القضايا .

«لا استطيع ان أنكر انني ساهمت في توطيـــد

النظرية ، وعلى الاخص في انشائها ، خلال الاربعين سنة التي جمعتني فيها الصلة بماركس . لكن القسم الاعظم من الافكار الرئيسية ، وبخاصة في التاريخ والاقتصاد ، وكذلك صياغتها النهائية ، يعودان الى ماركس وحده . وما اعطيته شخصيا كان ماركس يستطيع بسهولة ان يسد فيه مسدي ، ما عدا ـ من الجائز ـ قسمين او ثلاثة أقسام اختصاصية . لكن ما فعله ماركس ما كان بوسعي قط ان افعله . كان ماركس اسمى موقعا ، ويرى الى أبعد ؛ وكانت رؤيته أرحب وأسرع من رؤيتنا . كان عبقريا ؛ أما نحن فما كنا في أحسن الفروض الا ذوي مواهب . بدونه ما كانت نظريتنا لتكون ما هي عليه . ولهذا تحمل بإنصاف اسمه» .

بات متوجبا على انجلز ، كما كتب الى بيكر ، ان يقوم بعبء الدور الاول، وهو الذي لم يلعب في حياته كلها سوى الدور الثاني الذي قبل به بفبطة وحبور . وكان وماركس على وفاق تام مستديم . وكانت اول مهمة ـ فائقة الاهمية ـ تقع على كاهل انجلز بعد وفاة ماركس هي جرد الميراث الادبي لهذا الاخير . وعلى الرغم من افتراضات استاذ ايطالي كان في رسائله الى ماركس قد ابدى له ضروب الزلفى والتملق ، ثم ما لبث بعد وفاته ان تجاسر وكتب ان ماركس بإحالته القراء في المجلد الاول من **الرأسمال** الى المجلدين الثاني والثالث انما كان يخدعهم لا اكثر ولا أقل ، وجدت بين اوراق ماركس مخطوطات مجلد ثانٍ وثالث ورابع . والمؤسف ان جميع تلك المواد تركت في حالة اوجبت على انجلز ، الذي ما كان يستطيع ان يكرس لها وقته كله ، ان يمضي احد عشر عاما في اعادة ترتيبها وتصنيفها . وكان ماركس يكتب بطريقة تكاد ان

تكون غير مقروءة ؛ وكثيرا ما كان يستخدم اختصارات لا يفهمها احد سواه . وقبيل وفاته بقليل ، وحين ادرك انه عاجز عن انجاز عمله ، قال لابنته الصغرى ان انجلز قد يتمكن من **استخلاص** شيء ما من تلك الاوراق .

ومن حسن الحظ ان انجلز استطاع القيام بالقسم الرئيسي من ذلك العمل . وطبع المجلدين الثاني والثالث من **الرأسمال** . ولا يسمح لي مخطط محاضراتي بالتوقف عند عمله هذا ، على اعتبار ان عرض المجلد الاول بالذات من **الرأسمال** قد أرجيء الى دورة اخرى . وتبيانا لاهمية عمل انجلز ، سأقول لكم انه لولاه لما قدر احد على انجازه . صحيح ان العمل تشوبه بعض العيوب ، بيد ان تبعتها لا تقع على عاتق ماركس وحده . وليس لنا الا أمل واهٍ في ان نضع اليد ذات يوم على جميع المخطوطات كما حصل عليها انجلز ، ولا يسعنا ، نحن والاجيال القادمة ، ان ندرس المجلدين الاخيرين من **الرأسمال** الا في حالتهما الراهنة ، وفي الشكل الذي اعطاهما اياه انجلز .

وكانت امام انجلز مهمة اخرى ، كان فيما سبق ينجزها بوصفه مساعد ماركس ومعاونه ، وباتت الان تقع على عاتقه بكاملها . فبعد حل **الاممية الاولى** ، والى ماركس وانجلز اداء وظائف **المجلس العام** القديم . واعتبارا من ذلك اليوم بات على انجلز وحده ان يكون الوسيط بين مختلف **الاحزاب الاشتراكية**، وان يسدي اليها النصائح ، وأن يبقى من ثم على اطلاع دقيق على مجريات أوضاعها . والحال ان الحركة العمالية الاممية شهدت، غب وفاة ماركس على وجه التحديد ، تطورا كبيرا ، بحيث انطرحت في عام ١٨٨٦ مسألة تنظيم **أممية** جديدة . لكن حتى بعد عام ١٨٨٩ ، وهو العام الذي اجتمع فيه في باريس **المؤتمر** الاول التأسيسي **للاممية الثانية** التي بقيت بلا مكتب مركزي متفرغ حتى عام ١٩٠٠ ، لبث انجلز ، بوصفه كاتبا ومستشارا ، يسهم بأكبر قسط في الحركة العمالية في جميع بلدان اوروبا

تقريبا . وبات **المجلس العام** القديم ، الذي كان مؤلفا من عدة اعضاء وله أمناء لكل قطر، متجسدا الان في شخص انجلز وحده. فما أن تبرز الى حيز الوجود مجموعة ماركسية جديدة في قطر من الاقطار ، حتى تبادر انجلز بطلب النصح ، فكان هذا الاخير ، بما يتوفر له من معرفة ممتازة باللغات ، يتمكن من الرد بلا تأخير على الكثيرين من مراسليه بلغتهم الأم . وكان انجلز يتتبع بانتباه الحركة العمالية في كل قطر بأدبياتها الخاصة . وكان ذلك يستغرق منه زمنا كثيرا ، لكنه كان يوطد على هذا النحو نفوذ الماركسية ، موفقا ببراعة بين المبادىء وبين خصائص كل قطر . ولم يكن هناك قطر واحد لم يشارك انجلز في حركته العمالية ولم يكتب في صحيفتها المركزية . وقد نشر مقالات في الصحف الالمانية والنمسوية والفرنسية ؛ ووجد متسعا من الوقت ايضا ليكتب مقدمة للترجمة البولونية لـ «**البيان الشيوعي**» ، وساعد بنصائحه او بتوجيهاته الماركسيين الاسبان والبرتغاليين والسويديين والدانمركيين والبلغاريين والصربيين .

ويخلق بي ان أنوه بالمساعدة الخاصة التي قدمها للماركسية الروسية الفتية . فقد كانت معرفته بالروسية تسمح له بأن يقرأ الادب الماركسي الروسي بلغته الاصلية ، وبفضل تأثيره دون سواه تمكنت مجموعة **تحرير العمل** (٦) ، بالرغم من النفوذ الهائل لـ «**نارودنايا فوليا**» ، من توثيق الصلات بسرعة مع الماركسية الالمانية ومن التغلب على الريبة التي كانت اوروبا الغربية ، وبخاصة المانيا وفرنسا ، تحيط بها الماركسية والحركة العمالية في قطر آسيوي نظير روسيا . وفي عام ١٨٨٩ قصد بليخانوف

---

٦ ــ اول مجموعة ماركسية روسية ، وقد انشقت عن التنظيم الشعبوي «نارودنايا فوليا» . «م»

لندن للتعرف الى انجلز ولاطلاعه على التيار الجديد الذي اخذ يبرز وسط الحركة الثورية الروسية . وكتب انجلز مقالا خاصا عن السياسة الخارجية للقيصرية لاول مجلة ماركسية روسية شرعت باصدارها مجموعة **تحرير العمل** (٧) .

وسرعان ما عاين انجلز ثمار نشاطه الجبار . وحين أسست **الاممية الثانية** ، لم يشارك مباشرة في اعمال مؤتمراتها . فقد كان يتجنب المداخلات العامة ويكتفي بكونه مستشارا لاولئك الذين يتولون من بين تلاميذه ، في جميع أقطار العالم ، قيادة الحركة، ويعلمونه بالاحداث الهامة، ويسعون الى الافادة من نفوذه وهيبته. وبفضل حظوة انجلز اكتسبت بعض الاحزاب نفوذا مرموقا في **الاممية** وحافظت عليه . وفي أواخر حياته ، ترتبت على ذلك النهج ، القائم على التعامل فقط مع زعماء الحزب الرئيسي في كل قطر ، بعض المحاذير . ففي حين رفع انجلز صوته بالاحتجاج المباشر على جموح الماركسيين الفرنسيين في المسألة الفلاحية ونوه بالطابع البروليتاري للبرنامج ، تراجع امام الالمان المتخوفين من اعادة العمل بالقانون المناوىء للاشتراكيين وخفف حدة لهجة المقدمة التي وضعها لمقالات ماركس عن **صراع الطبقات في فرنسا**، تلك المقالات التي تعد تطبيقا باهرا لمبدأ الصراع الطبقي المستمر ودكتاتورية البروليتاريا .

وحين قدم انجلز للطبعة الالمانية الرابعة لـ **«البيان الشيوعي»** ـ وهي المقدمة التي كتبها يوم الاحتفال العالمي بالاول من ايار (١٨٩٠) ـ نوه بتنامي الحركة الاممية وأعرب عن الاسف لان ماركس لم يبق على قيد الحياة ليشاهد بأم عينه ذلك المشهد الذي يبعث العزاء والسلوان في النفس . وفي حين ان ماركس

---

٧ ـ نص هذا المقال ـ الدراسة منشور بالعربية في «حول روسيا» (من ترجمتنا) ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٥ . «م»

لم يشتهر الا في الاوساط الاكثر تقدما من الحركة العمالية ولم يتوصل اثناء حياته الى الشعبية الواسعة ، صار انجلز ، الذي كان يعرف حق المعرفة اهمية الدعاية ، على الرغم من انه كان يمقتها شأن صديقه فيما يتعلق به شخصيا ، صار في أواخر حياته واحدا من أشهر قادة الحركة العمالية الاممية . وقد امكنه ان يقتنع بذلك حين استسلم لاول مرة في عام ١٨٩٣ لإلحاح اصدقائه وإلحافهم ، وذهب لزيارة البر الاوروبي . فقد اخذت المسيرات والاحتفالات الجماهيرية والحفاوات التي نظمت على شرفه طابعا من العظمة بحكم التطور الرائع للحركة العمالية بعد عام ١٨٦٣ . ومن قبيل ذلك ان استقبالا منقطع النظير أعد لانجلز في المؤتمر الاممي في زوريخ مع انه كان لا يريد ان يكون فيه اكثر من مدعو ، وقد اكتفى بإلقاء خطبة قصيرة في نهاية الدورة :

ينبغي عليّ أن أشير هنا الى حادثة في ذلك المؤتمر الذي حضره انجلز . فقد كان الحزب الاشتراكي البولوني يتمتع يومئذ بنفوذ مجاوز الحد في **الاممية** ، وكان يتباهى فيها بماركسيته ويطرح شعار استقلال بولونيا ، منحرفا اكثر فأكثر نحو الاشتراكية ــ الوطنية الاشد ابتذالا . وبالتوازي مع ذلك الحزب برزت مجموعة ماركسية اخرى لفتت الانظار منذ ذلك الحين الى انحراف الحزب الاشتراكي البولوني عن الخط البروليتاري . وقد طلبت تلك المجموعة الصغيرة ، بقيادة روزا لوكسمبورغ ، أن تقبل في مؤتمر زوريخ . لكن الطلب رد . ولم يؤيده بليخانوف ايضا لانه كان يقدر ، كما روى لي بحضور انجلز ، ان جهود تلك المجموعة لن تثمر ولن تحرز تقدما . وقد كانت هناك ، بالطبع ، اسباب اخرى ، يأتي في طليعتها ان مجموعة روزا لوكسمبورغ كانت تؤكد على صلاتها بالمنظمة البولونية «**البروليتاريا**» التي كانت فيما سلف حليفة **نارودنايا فوليا** وحاربت بالتالي مجموعة

تحرير العمل .

مهما يكن من أمر ، لبثت مجموعة لوكسمبورغ معزولة عزلة تامة . ورجيت روزا لوكسمبورغ نفسها ان تغادر المؤتمر . وقد تحملت تلك الاهانة امام **الاممية** كلها ، وبحضور انجلز ذاته . ولعلها بكت ، لكنها لم تضمر ضغينة لا لماركس ولا لانجلز ولا للاشتراكية العلمية ، بل ازدادت تصميما في يقينها ، وقالت بينها وبين نفسها : سوف نقنع **الاممية** وسوف نثبت لها صحة موقفنا . وهذه الميزة على وجه التحديد هي التي كانت تميز روزا لوكسمبورغ عن غالبية المثقفين البائسين الهزيلين الذين اذا دفعت بهم المصادفة الى الدخول الى حزب اشتراكي ووقعوا ضحايا لظلم ظاهر او فعلي ، سارعوا الى الخروج من ذلك الحزب ، والى الافتئات عليه ، والى الانتقال من ثم الى صفوف البورجوازية . ان الحزب ليس مدرسة داخلية لبنات النبلاء . انه يتألف من أفراد أحياء قد يتبادلون احيانا ، وهم في المعترك ، ضربات موجعة . هذا امر مستكره ، لكنه محتم ، على الصعيد القومي كما على الصعيد الاممي . وبعد مؤتمر زوريخ ذاك ، **الذي أنزل** حيفاً بأشخاص آخرين ما لبثوا لاحقا ان انحازوا الى جانب الفوضويين ، او بكل بساطة الى جانب البورجوازية ، اثبتت روزا لوكسمبورغ انها فعلا تلميذة ماركس وانجلز ، ممثلي اولئك المثقفين الثوريين حقا الذين لا دور لهم غير ان يساعدوا الطبقة العاملة على وعي نفسها وعلى تحويل العمال الثوريين لا الى مثقفين وانما الى عمال مثقفين .

احتفظ انجلز ، بخلاف ماركس ، بقدرته على العمل الى سن الخامسة والسبعين تقريبا . ففي آذار ١٨٩٥ كتب الى فكتور آدلر رسالة مهمة اشار فيها الى الترتيب الذي يخلق ان يقرأ به المجلدان الثاني والثالث من **الرأسمال** . وفي تلك الحقبة ايضا

كتب تتمة مهمة للمجلد الثالث . وكان يتهيأ ايضا لكتابة تاريخ الاممية الاولى . وفي ابان ذلك النشاط الفكري ألم به مرض فارق على أثره الحياة في ٥ آب ١٨٩٥ .

يرقد ماركس في مقبرة هايغيت في لندن في ضريح واحد مع زوجته وحفيده . ويتألف قبره من حجر واحد بسيط . وحين كتب بيبل الى انجلز عن عزمه على اقتراح تشييد نصب فوق جدث ماركس ، رد عليه انجلز بأن بنات ماركس يعارضن ذلك معارضة جازمة. وحين قضى انجلز ، كانت عادة إحراق الجثمان قد بدأت تدرج . فطلب ان تحرق جثته وأن يلقى رمادها في البحر . واثر وفاته طرحت تساؤلات حول ما اذا كان ينبغي او لا ينبغي تنفيذ مشيئته الاخيرة ، اذ ارتأى بعض الرفاق الالمان نفس رأي من يريدون اليوم تحويل الساحة الحمراء في موسكو الى مقبرة ، مع انصاب للموتى فضلا عن ذلك . ومن حسن الحظ ان رفاقا آخرين أصروا على ضرورة احترام ارادة المتوفى. وعلى هذا النحو أحرق جثمان انجلز ، وألقيت المرمدة المحتوية على رماده في بحر الشمال .

لقد ترك الصديقان نصبا اكثر ديمومة من الصوان ، وأبلغ وأفصح من أي شاهدة قبر : الحركة الشيوعية الاممية للبروليتاريا التي تسير، تحت راية الماركسية والشيوعية الثورية، باتجاه انتصار الثورة الاجتماعية الكونية . تركا لنا منهج البحث العلمي ، وقواعد الاستراتيجية والتكتيك الثوريين . تركا لنا كنزا لا يقدر بثمن لا نزال نغرف منه لندرس الواقع المحيط بنا ولنفهمه .

لقد فاتتهما سعادة واحدة . فقد خامرهما الحبور لدى احساسهما بهبوب عاصفة الثورة ، وشاركا بقسط فعال في هذه الثورة ، لكنها لم تكن الا الثورة البورجوازية ، ولم يقيض لهما أن

يعيشا الى حين الثورة الاجتماعية، الى حين الثورة البروليتارية. لكن روحهما تحوم فوق ثورتنا ، وفي الهدير المقترب للثـــــورة الاجتماعية الكونية يدوي النداء الجهير الذي أطلقاه قبل خمسة وسبعين عاما : «يا بروليتاريي جميع البلدان ، اتحدوا !» .

الفهـــرس

تقديـــم ٥

المحاضرة الاولى :

مدخل ــ الثورة الصناعية في انكلترا ــ الثورة الفرنسية الكبرى واثرها في ألمانيا . ٨

المحاضرة الثانية :

الحركة الثورية في المانيا في١٨٣٠ ــ الراينلاند ــ سنوات مراهقة ماركس وانجلـز ــ كتابات انجلز الادبية ــ ماركس محرر «الصحيفـــة الراينية» . ٢٥

المحاضرة الثالثة :

الصلة بين الاشتراكية العلميـــة والفلسفة ــ المادية ــ كانط ــ فيخته ــ هيغل ــ فيورباخ ــ مادية ماركس الجدلية ــ الرسالـــة التاريخية للبروليتاريا . ٤٣

المحاضرة الرابعة :
نقد وجهات النظر الشائعة عن تاريخ «رابطة الشيوعيين» ـ ماركس منظما ـ الصراع ضد فيتلنغ ـ تأسيس «رابطة الشيوعيين» ـ «البيان الشيوعي» ـ المساجلة مع برودون . ٦٦

المحاضرة الخامسة :
ثورة ١٨٤٨ الالمانية ـ ماركس وانجلز في الراينلاند ـ انشاء «الصحيفةالراينية الجديدة» ـ غوتشالك وفيليش ـ اتحاد كولن العمالي ـ سياسة «الصحيفة الراينية الجديدة» وتكتيكها ـ ايتيين بورن ـ انعطاف في تكتيك ماركس ـ هزيمة الثورة وخلافات في الآراء في «رابطة الشيوعيين» ـ الانشقاق . ٩٣

المحاضرة السادسة :
الردة من عام ١٨٥٢ الى ١٨٦٢ ـ «تريبيون» النيويوركية ـ حرب القرم ـ آراء ماركس وانجلز ـ المسألة الايطالية ـ مناقشة ماركس وانجلز مع لاسال ـ المناظرة مع فوغت ـ موقف ماركس من لاسال . ١١٥

المحاضرة السابعة :
ازمة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ـ نمو الحركة العمالية في انكلترا وفرنسا والمانيا ـ معرض ١٨٦٢ الكوني في لندن ـ الحرب الاهلية في اميركا ـ ازمة الصناعة القطنية ـ الانتفاضة البولونية ـ تأسيس الاممية الاولى ـ دور ماركس ـ «الخطاب الافتتاحي» . ١٤٤

المحاضرة الثامنة :
دستور الاممية الاولى ـ اجتماع لندن ـ مؤتمر

جنيف ـ مذكرة ماركس التقريرية ـ المؤتمران الاميان في لوزان وبروكسيـــــل ـ باكونين وماركس ـ مؤتمر بال ـ الحـــرب الفرنسية البروسية ـ عاميـــــة باريس ـ الصراع بين ماركس وباكونين ـ مؤتمر لاهاي . ١٧٣

المحاضرة التاسعة :

انجلز يستقر في لندن ـ دوره فـــي المجلس العام ـ مرض ماركس ـ انجلز يحـــل محل ماركس ـ «الآنتي ـ دهرينغ» ـ آخر سنوات ماركس ـ اهتمام ماركس بروسيا ـ انجلـــز ينشر مؤلفات ماركس بعد وفاته ـ دور انجلز في عهد الاممية الثانية ـ وفاة انجلز . ٢٢٠

مؤلفات نظرية وفلسفية

صادرة عن دار الطليعة

الموسوعة الفلسفية

اعداد لجنة من العلماء والاكاديميين

باشراف م. روزنتال و ب. يودين

هيغل : مختارات (١)

هيغل : مختارات (٢)

موسوعة علم الجمال الهيغلي

١ ــ المدخل الى علم الجمال

٢ ــ فكرة الجمال (في جزئين)

٣ ــ الفن الرمزي

٤ ــ الفن الكلاسيكي

الفن والتصور المادي للتاريخ

جورج بليخانوف

تطور الفكر الفلسفي

تيودور اويزرمان

مدخل الى علم المنطق

د. مهدي فضل الله

الرسالة الرمزية في أصول الفقه

د. عادل فاخوري

أضواء فلسفية على ساحة الحرب اللبنانية
د. انطوان خوري

ماركس والفوضوية (١) : سان سيمون
بيير انسار

ماركس والفوضوية (٢) : برودون
بيير انسار

ماركس والفوضوية (٣) : ماركس
بيير انسار

الماركسية وعلم الجمال
روجيه غارودي

غارودي والتحريفية المعاصرة
بيوتر فيدوسييف

فلسفة الانوار
جورج بوليتزر

تعاليم الماركسية (طبعة رابعة)
انغلز

الماركسية بعد ماركس
بيير سويري

محاضرات في فلسفة التاريخ
جورج بليخانوف

الماركسية والمسألة الفلاحية
ستالين

تطور **الفكر الماركسي** (طبعة خامسة)
د. الياس فرح

علم الاجتماع الماركسي (طبعة ثانية)
كونستانتينوف وكيل

القضايا الفلسفية المعاصرة
اميل براهييه

هذا الكتاب

المحاضرات التسع التي يتألف منها هذا الكتاب ليست لا ترجمة لحياة ماركس وانجلز ولا عرضاً لفكرهما ولعملهما ، بل هي قبل ذلك وفوق ذلك محاضرات في تاريخ الماركسية بالذات ، تاريخ تكونها وتطورها ونضوجها ، تاريخ تحولها الى مذهب متكامل من خلال الصراعات اليومية وسيرورة التاريخ العامة .

وهي محاضرات تتميز بالوضوح والسهولة ، لأنها بالاساس محاضرات ألقيت على جمهور عمالي ونشرت في كتاب برسم العمال .

يوم ألقى ريازانوف هذه المحاضرات سنة ١٩٢٢ كان مديراً للاكاديمية الاشتراكية ، وكان شغل من قبل منصب رئيس اتحاد نقابات بتروغراد ، ثم أسس « معهد ماركس ـ انجلز » وظل مديراً له الى أن اعتقل وصفي في موجة التطهيرات الستالينية الكبرى في ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ .

عن خطة هذه المحاضرات قال ريازانوف انه ارادها تطبيقاً لمنهج الماركسية على تاريخ الماركسية .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

MOUYN

الثمن : ١١،٥٠ ق .ل.
او ما يعادلها